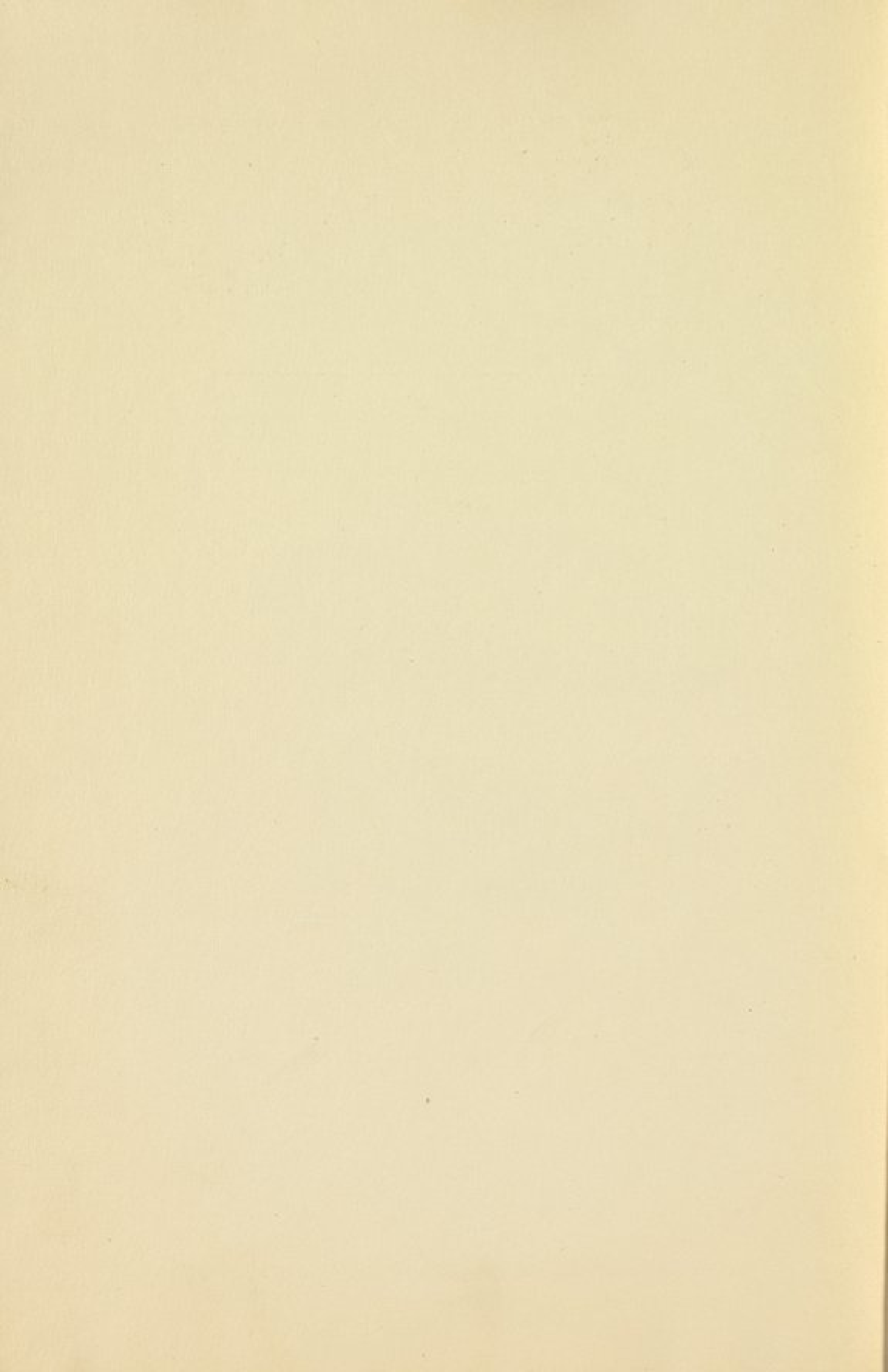


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







A 55

جامعة الدول العربية

الإدارة الثقافية

العالم العربي

مقالات وبحوث

في بعض شئونه السياسية والعلمية

الكتاب الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م



جامعة الدول العربية

الإدارة الثقافية

مع تحيات الإدارة الثقافية
بجامعة الدول العربية

العالم العربي

مقالات وبحوث

في بعض شئونه السياسية والعلمية

الكتاب الأول

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٨ هـ — ١٩٤٩ م

956
L4745
v.1

فهرس

مقدمة

للدكتور أحمد أمين بك
مدير الإدارة الثقافية

كان مما اضطلعت به الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية نشر آراء كبار الكتاب والمفكرين والإخصائيين حول القضايا التى تهم الأقطار العربية ، والمشاكل التى تواجهها فى مختلف النواحى ، عسكرية كانت أو اقتصادية أو سياسية أو اجتماعية أو ثقافية .

وقد استكتبت الإدارة حول هذه المشاكل والقضايا كبار الكتاب فى العالم العربى ، فتلقت منهم — مشكورين — هذه الجملة من المقالات والبحوث التى تقدمها للجمهور العربى فى هذا الكتاب ، بعد أن قدمت له خلاصة عن بعضها فى محطة الإذاعة المصرية .

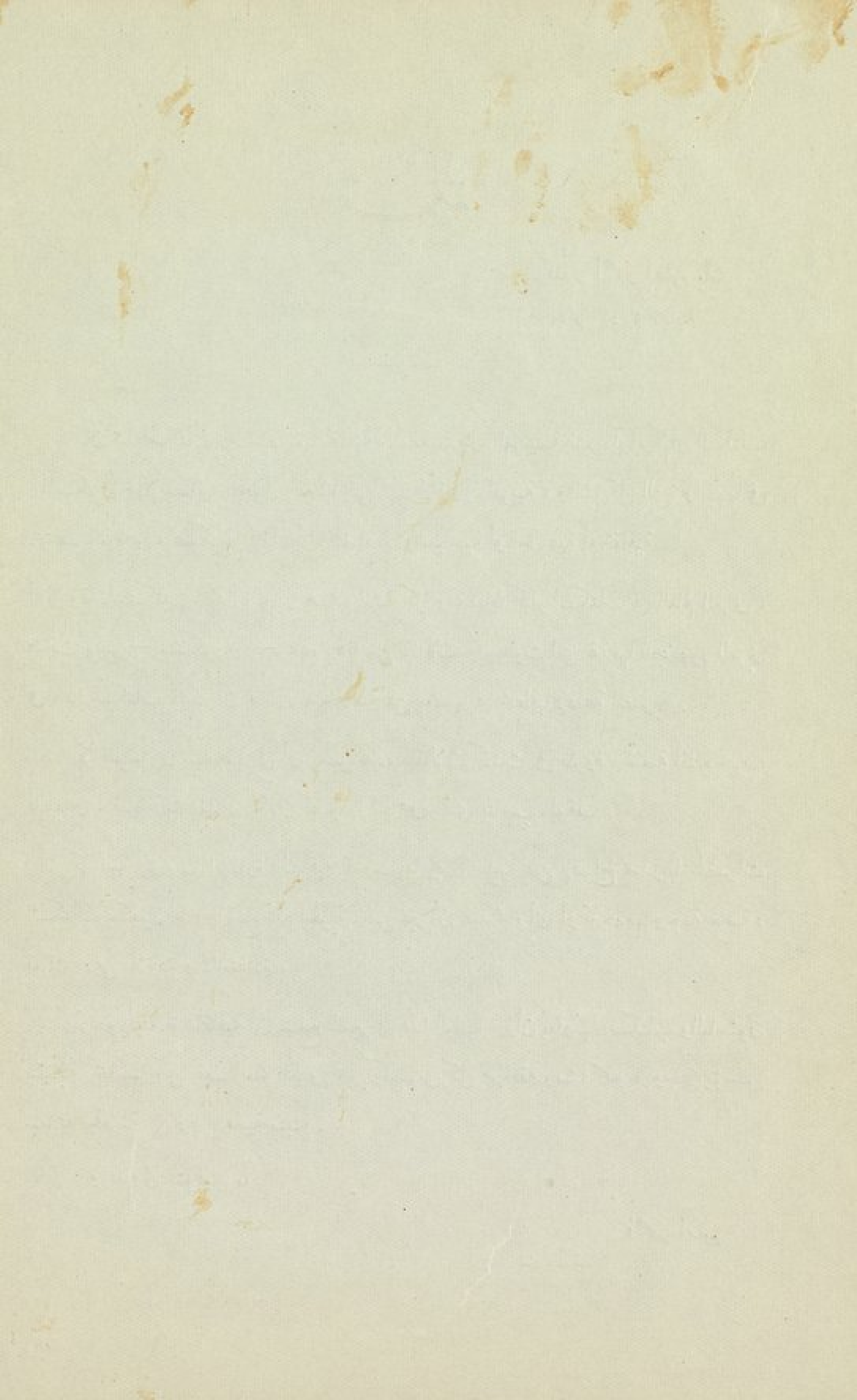
ولا يفوتنا أن ننبه هنا إلى أن بعض هذه المقالات كتبت فى ظروف خاصة أثناء حرب فلسطين ، فدعا ذلك إلى أن يكون لها لونها الخاص الذى يناسب الموقف .

كما ننبه إلى أن الإدارة الثقافية قدرت ما يجب عليها من إفساح صدرها لحضرات الكتاب يكتبون ما يرون مع تمام الحرية ، من غير أن تقيدهم برأى أو توجههم وجهة خاصة ، فذلك أدعى للافادة والاستفادة .

وترجو الإدارة الثقافية أن تتابع السير فى هذا الباب ، وأن يعاونها الكتاب والباحثون بنتيجة أبحاثهم حتى يقف العالم العربى على آرائهم فى كل مرافقه ومشاكله ، وحتى يؤسس نهضته الحديثة على دعائم علمية متينة .

والله ولى التوفيق ؟

أحمد أمين



مستقبل العالم العربى فى السياسة الدولية

للدكتور محمود عزمى بك

انعقد الاصطلاح هذه السنوات الأخيرة على «أن يعتبر عربياً كل من تكلم العربية وأحس العروبة» دون ارتباط بمختلف نظريات الأصول والأجناس، فشمل «العالم العربى» لا شبه الجزيرة وحدها — وهى «بلاد العرب» الأصيلة — ولا شبه الجزيرة مع «الهلال الخصيب» فى شمالها مكتنفاً فلسطين ولبنان وسوريا والعراق وشرق الأردن التى عمرتها من قديم الزمان، على حد رأى علماء الآثار، قبائل سامية نزحت إليها من شبه الجزيرة فى موجات فكونت أقوام كنعان وفينيقيا وأشور وبابل وما قام وسطها من جماعات، بل ذلك كله وما انبثق بفعل الفتح الإسلامى على امتداد الشمال الإفريقى فى تلاصق وتلاحق من برزخ السويس إلى المحيط الأطلنطى ماراً بمصر وبرقة وطرابلس وتونس والجزائر ومراكش، ووسط القارة خلال نيجريا والصومال وزنجبار، وفى بعض أطراف آسيا بين جزر الملايو وأندونيسيا وما إليها من مواطن.

وإن نظرة تلق على هذا «العالم العربى» الشامل خلال اعتبارات «السياسة الدولية» لتسجل أول ما تسجل ظاهرة «التفاوت» فى المكان بين أجزائه التى تراوحت بين الاستقلال المطلق من التعهدات الخاصة بالنسبة لسوريا ولبنان، والاستقلال المقيد بالتزامات خفيفة بالنسبة للعربية السعودية، وثقيلة بالنسبة لمصر والعراق واليمن، ومرزئة بالنسبة لشرق الأردن، والحماية بالنسبة لتونس ومراكش والكويت والبحرين وعمان ومسقط وسائر المحميات التسع، والاستعمار بالنسبة لعدن ونيجيريا والصومال وزنجبار، والضم بالنسبة للجزائر وبعض ثغور الريف، والدولية بالنسبة لطنجة، والتعليق فى ميزان القدر بالنسبة لليبيا وفلسطين والمناطق الأندونيسية.

وكذلك تسجل تلك النظرة «الدولية» التى تلق على العالم العربى اختلاف طبائع ذلك التفاوت فى الكيان بين أجزائه. فقد تعددت الدول الأجنبية التى تتصل بهذا الكيان، وتنوعت وسائل اتصالها به، وطرأت على تعدد تلك الدول وتنوع هذه الوسائل مضاعفات من شأنها أن تفعل فى الطبائع أفعالا متعددة الأثر ومتنوعته معاً. فالاتصال قائم بالفعل بين

أجزاء العالم العربى ودول بريتانيا وفرنسا وإسبانيا وهولندا ، وهو متحفز للقيام بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية بحكم « دور الإشراف العالمى » الذى تود أن تقوم به الدولة « المنتصرة العظمى » ، وهو محل سعى لبعثه من جديد بينها وبين إيتاليا عن طريق الحل الذى تريد الدول العظمى أن تتلمسه لمشكلة « المستعمرات » السابقة ، وفيها برقة وطرابلس والصومال ، وهو محل اقتحام من ناحية الاتحاد السوفيتى خلال محاولات المساهمة فى تنظيم شئون فلسطين . ولكل من تلك الدول جميعها اتجاهات ومصالح خاصة قد يتقارب بعضها وبعضها الآخر حيناً وقد يتنافران بالذات حيناً آخر فيفعل التقارب ويفعل التنافر أفعالا متناقضة وغير منسجمة فى الكيان العربى وفى علاقات العالم العربى بسائر عوالم السياسة الدولية .

وإلى هذا ، فإن لكل وحدة من وحدات العالم العربى مشاكلها الدولية الخاصة التى تتميز طبائعها ويتميز موقف الدول الأجنبية إزاءها ، بل الدول العربية ذاتها المتصلة بها . فلسوريا المطلقة من القيود الدولية الخاصة مثلا خلافها القائم بينها وبين تركيا على لواء الأسكندرونة ، ولها وللبنان خلافهما فيما بينهما وبين فرنسا حول النقد وتصفية العلاقات المالية المترتبة على انقضاء عهد الانتداب ، ولليمن إشكالها مع انجلترا حول المحميات ، وللعربية السعودية خلافها مع شرق الأردن ذاته على « العقبة » التى يزعمها كل منهما لنفسه ، ولمصر ثورتها على انجلترا بصدد الجلاء عنها وبصدد السودان ، وللعراق إلى مشكلة معاهدته مع بريتانيا مشكلة إقليم «عربستان» الذى يريد انتزاعه من إيران ، ومشكلة الأكراد الذين يطالبون باستقلالهم الذاتى على الأقل ، ولشرق الأردن مطمعه السافر حيناً والكامن دائماً فى تحقيق مشروع اتحاده بالعراق وبسوريا الكبرى ، ولتونس والجزائر ومراكش نزعتها الاستقلالية ، ومضاعفات المطالب الأمريكية المتصلة باقتصاديات البلاد وبمواقعها الاستراتيجية المطلة على المحيط الأطلنطى وعلى البحر المتوسط ، وقد تراضت انجلترا والولايات المتحدة ، وقد تكون فرنسا وإسبانيا أيضاً فى تراض — على اعتبارها من خط « الدفاع » الأول عن نصف الكرة الغربية ، أوخط الهجوم منه ... ، ولليبيا نزعتها إلى الاستقلال والوحدة هى الأخرى وما يطرأ عليها من مضاعفات الرغبة البريتانية فى استخلاص برقة للنفوذ البريتانى ، والرغبة الفرنسية فى إلحاق « فزان » بالداخل الجزائرى ، والتبلبل الدولى بالنسبة لطرابلس ، هل توضع تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة بحيث يغلب فيها النفوذ الأمريكى الاقتصادى والاستراتيجى ، أوالنفوذ الإيتالى ، يقتسمه النفوذ الأمريكى أو النفوذ السوفيتى ، ولفلسطين أزمتها المزمنة ، هل تقوم فى جزء

منها دولة مستقلة لإسرائيل ، أو يقوم فيها نظام « فدرالى » للمنطقة اليهودية فيه حكم ذاتى مميز ، أو يكون الحكم فيها حكم الدولة الموحدة لا تعتبر فيها اليهودية إلا ديناً من الأديان ولا يعتبر معتنقوه إلا أقلية من الأقليات لها حقوق سائر الشعب الدينية فى الوطن الديموقراطى الحديث ، أو تتسع رقعتها بحيث تمتد إلى شرق الأردن أو يمتد إليها شرق الأردن فتصبح « فلسطين الكبرى » وتوضع كلها تحت تاج الملك عبد الله الهاشمى ... ومهما يكن المصير التى تؤول إليه ، فهل تنفرد بريتانيا بالنفوذ فيها أو تقاسمها إياه الولايات المتحدة الأمريكية أو تستطيع المحاولات السوفيتية أن تجد لها ثغرة تنفذ خلالها ويصبح للاتحاد السوفيتى هو الآخر فى ذلك النفوذ نصيب ..

***

ذلك هو الوضع الذي يحتله العالم العربى فى عباب الخضم الدولى ، ولكنه لا يحتله مستسلماً للأمواج تتقاذفه ، بل يحتله مجاهداً فى سبيل شق طريقه إلى شاطئ السلامة وضفاف الاستقرار . ولعل أبرز نشاط فى هذا المضمار إنما هو تأليف « جامعة الدول العربية » بميثاقها المعقود فى الثانى والعشرين من شهر مارس لسنة ١٩٤٥ . فقد قامت بهذا التأليف هيئة من الدول العربية المستقلة غرضها « توثيق الصلات بين الدول المشتركة فيها وتنسيق خططها السياسية تحقيقاً للتعاون بينها وصيانة لاستقلالها وسيادتها والنظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها » ، فوجدت بقيامها نواة التكتل الذى يربط بين أجزاء « العالم العربى » كله ، ويوحد بين أسباب نهوضها وأساليب احتلال المكان اللائق بها فى الحظيرة الدولية جميعاً . فهى إن ألفت من « الدول العربية المستقلة » وحدها فقد ذهبت بأغراضها إلى حد « النظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها » جميعاً ، ولم تكتف بتضمين المادة الثانية من ميثاقها النص على هذا « النظر » الشامل فى عموم ، بل راحت تخص به ملحقاً معيناً من ملاحق ذلك الميثاق سجلت فيه بصريح العبارة أن « الدول المشتركة فى الجامعة ستباشر فى مجلسها وفى لجانها شئوناً يعود خيرها وأثرها على العالم العربى كله » وأن مجلسها « لا يدخر جهداً لتعرف حاجات البلاد العربية غير المشتركة فيه وتفهم أمانيها وآمالها ، ويعمل بعد ذلك على صلاح أحوالها وتأمين مستقبلها بكل ما تهيئه الوسائل السياسية من أسباب» .

وإذا كان الساعون إلى تأليف « جامعة الدول العربية » من مفكرى العرب وقادتهم وحكامهم قد قصدوا أول ما قصدوا إلى إقامة هيئة « توفيق بين الاتجاهات » على غرار

« جامعة الدول الأمريكية » تهدف إلى « تعاون الدول المشتركة فيها تعاوناً وثيقاً بحسب نظم كل دولة منها وأحوالها فى الشئون الاقتصادية والمالية ، وشئون المواصلات والثقافة والجنسية ، والشئون الاجتماعية والصحية » فإن الظروف العالمية التى اكتنفت مولد « الجامعة العربية » قد كانت أوسع أفقاً من الظروف التى اكتنفت مولد « الجامعة الأمريكية » فعاونت على أن تبعد من مدى نشاطها وطاوعت على أن تزيد من خطوات تطورها فى الحظيرة الدولية ذاتها .

فقد وقع على ميثاق « جامعة الدول العربية » فى الوقت الذى كان يجتمع فيه مؤتمر سان فرنسيسكو لإقرار ميثاق هيئة الأمم المتحدة . فدعا هذا التوافق إلى إضافة مهمة إلى مهام مجلسها هى « تعزيز وسائل التعاون مع الهيئات الدولية التى تنشأ فى المستقبل لكفالة الأمن والسلام ولتنظيم العلاقات الاقتصادية » . . . وقد نص فى ميثاق الأمم المتحدة على قيام « منظمات إقليمية » يعهد إليها بشئون الأمن والسلام فى مناطقها المحلية ، كما نص على قيام المجلس الاقتصادى والاجتماعى « هيئة من هيئات الأمم المتحدة » يكون له اتصال بمنظمات إقليمية فى ميدان الاقتصاد والاجتماع ، كما يكون لمجلس الأمن فى ميدان الأمن والسلام ، وشاءت المقادير بعد ذلك أن تعرضت أمور بعض البلاد العربية للامتحان ، فبدا التضامن بينها جميعاً على خير ما يكون ، وصهرت جامعة الدول العربية بأمتن ما يكون من طبائع التدعيم ، وظهرت « الكتلة » العربية فى اجتماعات « الأمم المتحدة » بأروع ما يكون من مظاهر فى قضايا سوريا ولبنان ومصر وفلسطين .

وكان من جراء ذلك كله أن سارت « الجامعة العربية » فى طريق « الوقائع » الدولية إلى أن اشتدت « الأزمة الفلسطينية » فاستدعت التدخل المسلح من جانب دول تلك الجامعة للضرب على أيدى العصاة من الخوارج والثائرين ، ولإقرار الأمن والسلام فى ركن من أركان العالم العربى ، فكان هذا التدخل بلوغا بجامعة الدول العربية إلى نهاية طريق تلك « الوقائع » الدولية ، إذ أصبحت بفعله « منظمة إقليمية » من المنظمات التى نص عليها ميثاق « الأمم المتحدة » ، وإذ اعترف « مجلس الأمن » بكيانها وشخصيتها ، فقد أوفد إليها « مندوبه » لإقرار الهدنة والسعى بواسطتها للوصول إلى حل سلمى لما هدد الأمن فى هذا الركن من أركان العالم ، والاجتماع بلجنتها السياسية والاستعانة بمن يختارهم من الوسطاء والمتصلين والخبراء ، فاستكملت شرائط الوجود والعمل ، وأضحت « حقيقة » من حقائق النظام الدولى المقرر فى هذا الزمان .

وإذا كانت « فلسطين » التى أسبغت أزمتها على الدول العربيـة نعمة استكمال شرائط « الحقيقة الدولية المقررة » معتبرة واحـدة من دول تلك الجامعة بحكم الملحق الخاص بها فى ذيل الميثاق — وقد أقر بأن « وجودها واستقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه » ، وإنه « إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا يسوغ أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة » — فإن مجلس الجامعة وأمانتها العامة قد استطاعا أن يمدا من أفق الجامعة إلى حيث يشمل غير أعضائها وغير دولها بالذات . فالاتصال بين الأمانة العامة وفرنسا مثلا يجرى بين الوقت والوقت فى صدد بلاد المغرب ، وبينها وبين لجنة التحقيق الدولى أو مجلس وزراء الخارجية الأربعة بشأن ليبيا ، وكذلك فإن المنطقة الخليفية المراكشية وبعض البلاد العربيـة الواقعة على الخليج الفارسى أو المحيط الهندى ممثلة بالفعل ومساهمة فى أعمال بعض لجان الجامعة ولاسيما الثقافية منها .

وهذا وذاك يضفيان على جامعة الدول العربية نوعا من أنواع صفات التميز والاستقرار فى الحظيرة الدولية قصد تحقيق الاعتبارات التى أشير إليها فى ديباجة الميثاق من « تثبيت العلاقات الوثيقة والروابط العديدة بين الدول العربية ، والحرص على دعم هـذه الروابط وتوطيدها على أساس احترام استقلال تلك الدول وسيادتها ، وتوجيه الجهود إلى ما فيه خير البلاد العربية قاطبة وصلاح أحوالها ، وتأمين مستقبلها وتحقيق أمانيها وآمالها ، واستجابة الرأى العربى العام فى جميع الأقطار العربية » .

***

والحق أن تلك الصفات التى ذكرنا ، صفات التميز والاستقرار فى الحظيرة الدولية ، التى أضفتها تطورات الحوادث على جامعة الدول العربية ، قد تفاعلت مع ما كان يجيش فى صميم « الآراء العامة » للعالم العربى من مصالح وأهداف فصقلت وعى هذه « الآراء » ودفعت بها إلى التفكير فى إقامة صرح عالمها على أسس متينة مستندة إلى اعتبارات السياسة الدولية الصميمة السليمة .

وواقع هذه الاعتبارات هو أن « الأمم المتحدة » من ناحية قائمة ، وأن قيامها من ناحية أخرى تعتوره صعاب تحول دون تأدية رسالتها على الوجه الكامل ، والمعروف أن كمال هذه الرسالة إنما هو فى توفير « الأمان الجماعى » عن طريق مجلس الأمن المتضامنة عناصره تضامناً أكيداً ، والملاحظ أن هذا التضامن غير متوافر ، بل إن عدم الثقة هو الأصل الذى تبدّى أن العلاقات الدولية لا تزال ترجع إليه .

وقد نشأ عن ذلك الواقع البادى فى ميدان السياسة الدوليـة أن الاتجاه إنما هو إلى تقابل كتلتين تجتهد كل واحدة منهما فى « تكتيل » أكثر عدد من الدول فى حظيرتها استعداداً للتصادم أو درءاً لهذا التصادم ، كما نشأ إحساس عند كثير من الدول «المتوسطة والصغيرة» أنه لا مصلحة لها فى ذلك التقابل ، بل تبين لديها أن مصلحتها الحقيقية فى ألا يقع هذا التقابل الذى قد تكون هى ميدانه وأن تستعد من جانبها لملاقاة أخطاره .

وكانت «جامعة الدول العربية» من أولى مجموعات تلك الدول المتوسطة والصغيرة «التى أحست ذلك الإحساس وتبينت ذلك التبين فلم يتردد أمينها العام فى أن يواصل التصريح بالتصريح معلناً أن « الجامعة » تود الاحتفاظ بحيادها وسط ذلك التقابل بين الـكتلتين ، وأنها إذ تضطرها الظروف إلى الانضمام إلى واحدة منهما دون الأخرى فإنمـا هى مصلحتها وحدها التى تملى عليها اختيار الناحية التى تنضم إليها حين يقع التصادم وحين تتبين المصلحة . وكذلك اعتصمت سوريا واعتصم لبنان معها بانطلاقهما من قيود المعاهدات الثنائية .

على أن الجامعة العربية تعرف أن الزمن ليس زمن اتجاهات سياسية وحسب ، بل إنه لا يزال كذلك زمن تدعيم هذه الاتجاهات السياسية بالقوات المادية التى يؤثر فيها التكتل على التفرد . ففـكرت فى إقامة « حلف عسكرى » بين أعضائها ، تقدم باقتراحه رئيس وزارة سوريا من شهور وجاءت حوادث فلسطين تدعمه تدعيما وتصرخ بضرورته صراخا . وعمل التشارك فى الجهاد والتآخى فى التضحية بالأرواح أبرك عمل « للقضاء » على ما كان يشوب بعض العلاقات من شوائب توطئة لإبرام ذلك الحلف العسكرى المتوج لما رمزت له جامعة الدول العربية من حلف سياسى .

وإذن فقيام « الـكتلة العربية » أمر واقع لا شك فيه ورغبتها فى التميز عن الـكتلتين المتقابلتين فى عالم السياسة الدولية واضحة أكيدة . وتشاء الأقدار أن تجاور هذه الـكتلة العربية أقطار من الدول « المتوسطة والصغيرة » أيضاً تحس إحساسها وتتبين مصلحتها بالنسبة للـكتلتين المتقابلتين كذلك . فترنو هـذه الأقطار بأبصارها إلى « الحقيقة » الدولية الجديدة وهى حقيقة « جامعة الدول العربية » ، وتود لو وفقت إلى وسيلة من وسائل الارتباط بها ، فتزداد جميعها قوة وتتمكن معها من التميز والاستقرار فى العالم الدولى المتلاطم . والواقع أن بين العراق وبين تركيا وإيران وأفغانستان ميثاق تحالف أو عدم اعتداء هو « ميثاق سعد أباد» ، ومن البين أن يمتد نطاقه إلى سائر دول الجامعة العربية عن طريق العراق ذاته ، فيشمل مصر وسوريا ولبنان والعربية السعودية وشرق الأردن واليمن ، وليس عسيراً عسر استحالة

أن يسوى بين ما سوريا وتركيا من خلاف حول الإسكندرونة ، ولا ما بين العراق وإيران من خلاف حول عربستان . وأفغانستان لا تترك فرصة تمر منذ قيام جامعة الدول العربية دون الاتصال بها وإظهار جميل عواطفها نحوها . وتركيا وإيران وأفغانستان متفقات فى الإحساس بأنها محل منافسة بين « الكتلتين » وبأن طريق الخلاص الوحيد لها جميعاً إنما هو بالوقوف موقف الحيدة المطلقة من الاثنتين . وقد ضربت تركيا وإيران فى ذلك بسهم ، إذ جرت تقاليدهما بالارتباط بمحالفتين والاستعانة « بالصداقتين » مع روسيا من ناحية وانجلترا والولايات المتحدة من ناحية ثانية .

وبهذا يتكيف — فى نظرى — المستند إلى وقائع الحوادث — مستقبل العالم العربى فى السياسة الدولية :

منظمة إقليمية تلتف حولها دول الشرق الأوسط تسهر على الأمن والسلام فى ركنها من أركان العالم .

مجموعة من الدول « المتوسطة والصغيرة » حريصة على الحيدة بين الكتلتين المتقابلتين المعكرتين صفو العلاقات فى العالم .

هيئة حائلة بذلك دون قيام حرب « عالمية » ثالثة ، ولا سيما أن الهند آخذة من جانبها بفكرة الحيدة والابتعاد عن الالتزامات العالمية المسلحة .

وإنه لمستقبل جدير بفخر العروبة والعاملين لها جميعاً ، إذ ينطوى على رسالة من أنبل الرسالات تبعث فى نفوس المشارقة روح الإحساس بكيانهم ، وتقف بالشرق الأوسط موقف الحيلولة دون اندلاع لهيب حرب يعرف الناس جميعاً أنها إن وقعت فلن تبق فى المعمورة على أخضر ولا على يابس ، وتعود بالبشرية إلى سبل الوئام والاهتمام بالحضارة الخيرة .

***

أما بعد ، فذلك هو مستقبل العالم العربى فى السياسة الدولية على ما ألمحه خلال الأوضاع التى سقتها متصلة بوقائع الأمور فيما أتبينه من أفق دولى صافية سماؤه وواضحة مرئياته . لكن تحقيق هذا المستقبل الذى ارتأيته رهين بأوضاع أخرى متصلة بوقائع أمور أخرى تتبين فى أفق العالم العربى ذاته ، ومن شأن قيامها أن تتفاعل عناصر هذا العالم مع عناصر تلك السياسة الدولية وينتج تفاعلها إفادة العالم العربى مما تهيئه له الملابسات الدولية .

وإنما أعنى بهذه الوقائع الأخرى التى يجب أن تحل مكانها فى العالم العربى كى يتم التفاعل وتحصل الإفادة ويحقق المستقبل المرجو ، توافر العلم الصحيح بمجريات الشؤون الدولية عند

القادة والزعماء أنفسهم ، وسرعة الإحساس بتطورات هـذه المجريات حتى لا تضيع الفرص التى تهيئها هذه التطورات ، وأخذ الأمور العـامة بالجد الذى تستأهله حتى تأخذ البيئات الدولية العالم العربى بالجد الذى يعين على تفاعل عناصره بعناصر هذه البيئات ، وأخيراً ، بل قبل هذا كله ، الإقدام فى حزم على استكمال شرائط الوجود الحيوى والخلقى ، وما يستلزمه من كيان اقتصادى واجتماعى وثقافى داخل كل بلد من بلاد العالم العربى .

عندئذ تتكاتف طبائع الأشياء وطبائع الأشخاص على شق الطريق المستقيم لمستقبل مزدهر للعالم العربى فى السياسة الدولية .

محمود عزمى

الأخطار العسكرية التي تواجه العالم العربي
وكيف يتقيها

للعميد طه باشا الهاشمي

يجدر بنا قبل البحث فى هذا الموضوع أن نحدده، ونضع له إطارا لا يتعداه البحث لأن الموضوع الذى نعالجه يشبه إلى حد ما المواقف الحربيـة التي يعالجها رؤساء أركان الجيوش فى وقت السلم لتقدير الخطة التي تسير عليها البلاد فى حالة تعرضها لخطر الحرب . فالمعالجة وهى تقدير الموقف كما يعبر عنه عسكريا تساعد على وضع الخطة الحربية التى تجرى بموجبها الحركات الحربية فى زمن الحرب .

وكان المارشال مولتكه رئيس أركان الجيش البروسى فى منتصف القرن الثامن عشر أول من انتبه إلى معالجة المواقف العسكرية ووضع الخطط الحربية فى وقت السلم فاقتدى به بعد ذلك رؤساء أركان الجيوش فى الدول الأخرى، وأخذوا يضعون الخطط الحربية فى وقت السلم ويحورونها كلما اقتضى ذلك تبدل الموقف السياسى والوضع العسكرى .

ونحن فى معالجتنا الموضوع نريد أن نسلك إلى حد ما الطريقة المتبعة فى وضع الخطط الحربية ويلوح لنا أننا نستطيع بذلك أن نحدد الموضوع .

الموقف السياسى :

لا ريب فى أن العالم سائر إلى الحرب، والحرب لا بد من نشوبها بين المجموعتين العالميتين أى المجموعة الروسية والمجموعة الأنجلوسكسونية، أو بالأحرى روسيا ومن تبعها من الدول من جهة وأمريكا وانجلترا من جهة أخرى .

ويلوح لنا أن من أهم أسباب التأزم العالمى الذى أخذ يشتد كثيرا هو فقدان التوازن السياسى أو بتعبير آخر فقدان وجود دولة عازلة تستطيع بانضمامها إلى أحد الفريقين المتنافسين أن توقف المنافسة وتحول دون نشوب الحرب . ولو كانت الحرب انتهت ببقاء ألمانيا محتفظة ببعض قواتها لما بلغت المنافسة بين الفريق الروسى والفريق الأنجلوسكسونى الحد الذى

نشاهده الآن ، لأن مجرد انضمام ألمانيا إلى أحد الفريقين كان يجعل الفريق الثانى يفكر كثيرا قبل الإقدام على الحرب . زد على ذلك أن خروج ألمانيا من الحرب محتفظة ببعض قواتها كان من غير شك يحول دون توسع نفوذ روسيا إلى وسط أوروبا وتغلغله بهذا الشكل المخيف .

لا نريد أن نعلم من هو المحق فى هذه المنافسة .. هل الفريق الروسى الذى يزعم أنه يريد أن ينقذ الشعوب المستضعفة من نير الاستعمار ؟ أو الفريق الأنجلوسكسونى الذى يدعى أنه يريد أن ينقذ العالم من أخطار الشيوعية ؟ وإذا ماصدق كلا الفريقين فى بعض دعواهما فليس من شك أن فى ادعائهما نواحى لا يطمئن إليها البال ، فروسيا مثلا تزعم أن الفريق الأنجلوسكسونى يعد العدة لإقامة الحصار حولها ، ويسعى لتأليب دول العالم ضدها ، لهذا ليس فى كل ما تتخذه من تدابير سياسية فى شرق أوروبا سوى إبعاد خطر الحرب عن بلادها واتخاذ الحيطة للدفاع عنها عند الحاجة ، على حين أننا نرى الفريق الأنجلوسكسونى يحذر العالم من السياسة الاعتدائية التى تسلكها روسيا ، ويرى فى امتداد نفوذها إلى وسط أوروبا خطرا على الحضارة الأوروبية . أما الذى يتتبع سير الحوادث فيرى أن روسيا فى مزاعمها تريد أن تخفى السبب الذى دفعها منذ قرون إلى التوسع والنزول إلى ضفاف الأبحر الحارة ، سواء فى الشرق الأوسط أو فى الشرق الأقصى . وهناك سبب آخر له خطورته فى الحرب والسلم وهو الاحتفاظ بمنابع الزيت من جهة والحصول على منابع أخرى من جهة ثانية . أما الفريق الثانى فيخفى وراء ادعاءاته الهدف الأصلى من منافسته لروسيا وهو الحيلولة دون نزول الأسطول الروسى إلى الأبحر الحارة من جهة وإبعاد روسيا عن منابع زيت البترول فى الشرق الأوسط من جهة أخرى . وثم سبب آخر يتجلى بالمذهب الاقتصادى الذى يدين به كل من الفريقين ، والواقع أن كلا من المذهبين لا يرى سلامته إلا بالقضاء على المذهب المنافس له .

إذن فى مثل هذه المنافسة المتأصلة ، ولا سيما إذا كان الفريقان المتنافسان يتساويان فى القوى أو يكادان ، لابد من نشوب حرب بينهما . لهذا نعود فنقول إن الحرب لابد من وقوعها آجلا أو عاجلا .

دار الحرب :

نقصد بتعبير دار الحرب البلاد التى تجرى فيها الحرب فى حالة نشوبها بين الفريق الروسى والفريق الأنجلوسكسونى ، والواقع أنه لمن الصعب تحديد دار الحرب فى حرب تقع بين روسيا وتوابعها وانجلترا وأمريكا وتوابعهما بعد أن أصبحت القوات الجوية العامل الأول

فى اكتساب النصر ، فليس من ريب فى أن العالم بأجمعه سيصبح دارا للحرب فى هذه الحرب .

لقد قال تشمبرلين رئيس الوزارة البريطانية الأسبق قبل نشوب الحرب الأخيرة إن نهر الرين حدود انجلترا . أما الآن ففى استطاعة المستر آتلى أن يقول إن اليونان والعراق حدود بريطانيا ، أما ترومان فبوسعه أن يقول إن بلاد الصين حدود أمريكا . ومع ذلك ما دامت الحرب لاتنتهى إلا باشتراك القوات الأرضية فلا بد إذن من تحديد دار الحرب فى حالة اندلاع لهيب الحرب .

والحقيقة أنه على الرغم من عدم وجود حدود مشتركة بين روسيا وأمريكا فان القوات الروسية والقوات الأنجلوسكسونية ستقف وجها لوجه فى الحرب التى ستنشب ، ذلك لأن الجيوش الأنجلوسكسونية من جهة والجيوش الروسية من جهة أخرى ما تزال تحتل ألمانيا ، فضلا عن أن انجلترا حليفة لتركيا واليونان ، وأن لإنجلترا بموجب المعاهدات مع بعض الدول العربية قواعد عسكرية فى الشرق الأدنى وما تزال قواتها تحتل قناة السويس ، وهى بحكم الحلف والمعاهدات ستسرع إلى نجدة تركيا واليونان ، وستستخدم القواعد العسكرية فى العراق وشرق الأردن وقناة السويس ، أما أمريكا فاستنادا إلى حلفها مع انجلترا سترسل قواتها إلى تركيا واليونان وتستخدم قواتها العسكرية فى بلاد العرب . إذن لا بد من احتلال القوات الأنجلوسكسونية هذه القواعد العسكرية فى حالة الحرب ، أما الأقطار العربية التى لا يحق للقوات الأنجلوسكسونية أن تستفيد من مرافقها العسكرية فى وقت السلم كسوريا ولبنان فلا بد أن تجبر على الوقوف إلى جانب الفريق الأنجلوسكسونى شاءت أم أبت . ولكى نفهم الأسباب التى تضطر الدول العربية إلى أن تصبح بلادها قاعدة للحركات العسكرية ينبغى لنا أن نشير إلى الأهداف التى يتوخاها كل من الفريقين المتخاصمين .

أهداف الحرب :

أصبحت سياسة روسيا بعد الحرب سياسة ترمى إلى التوسع من جهة وبسط نفوذها فى البلاد المجاورة من جهة أخرى ، فقد شارفت روسيا ببلادها بلاد البلطيق ، وامتلكت نصف بولونيا ، واستولت على شرق بروسيا ، واحتلت شمال كوريا ، واقتطعت من فنلندا بعض مقاطعاتها ، وبهذه الأعمال ضمنت روسيا بعض أهدافها فى التوسع ، وبفرضها النظام الشيوعى فى رومانيا وبلغاريا ويوغوسلافيا وهنغاريا وبولندا قد بسطت نفوذها فى شرق أوروبا . وبإخضاعها تشيكوسلوفاكيا على قبول النظام الشيوعى مدت يدها إلى وسط أوروبا ، وبمساعدتها

الشيوعيين الصينيين فى بلاد الصين بسطت سلطانها فى شمال الصين . هكذا أنجزت روسيا أهدافها فى بسط نفوذها على البلاد المجاورة لها ، وما تزال ترمى إلى اقتطاع الولايات التركية المتاخمة لبلاد القفقاس ، وتأسيس قواعد عسكرية فى المضايق التركية ، وتريد أن تبسط نفوذها فى إيالة أذربيجان الإيرانية ، فروسيا بسيرها على هذه السياسة التوسعية تريد فى الوقت ذاته إبعاد مصائب الحرب عن بلادها والوصول إلى أهدافها ، ولقد استطاعت أن تبعد بلادها عن مصائب الحرب ببسط نفوذها على بولونيا وتشيكوسلوفاكيا ، واستيلائها على نصف ألمانيا وبذلك جعلت المطارات التى ترسل الطيارات القاصفة إلى بلادها بعيدة عن حدودها . بيد أن انحياز تركيا واليونان إلى جانب انجلترا واحتلال القوات البريطانية للقواعد العسكرية فى العراق وشرق الأردن عرّض منابع البترول فى بلاد القفقاس للخطر وقرب مصائب الحرب من بلادها .

لهذا تستهدف روسيا فى عملياتها الحربية الصمود فى وجه الزحف الانجلوسكسونى فى وسط أوروبا من جهة والهجوم على بلاد تركيا وبلاد إيران من جهة أخرى . وإذا ما نجحت روسيا فى حركاتها الهجومية هذه تكون قد توصلت إلى أهدافها الحربية بامتلاكها المضايق التركية والنزول إلى شواطىء البحر المتوسط .

أما الفريق الانجلوسكسونى فينبغى له ، لكى يمنع روسيا من تحقيق أهدافها الآنفة الذكر أن يسرع إلى نجدة تركيا واليونان ، ويرغم إيران على فتح حدودها للجيوش البريطانية والأمريكية لكى تحول دون توغل روسيا فى بلاد إيران ، وفى كلتا الحالتين أى فى حالة الإسراع إلى نجدة تركيا وفى حالة دخول الجيوش فى بلاد إيران لا بد أن تصبح البلاد العربية قاعدة لحركات الجيوش الانجلوسكسونية ، لأن الجيوش المذكورة ستنزل إلى ميناء حيفا وتمر بالأردن والعراق للذهاب إلى إيران ، كما أن الجيوش التى تسارع إلى نجدة تركيا ينزل بعضها إلى بيروت وطرابلس الشام ويمر بلبنان وسوريا . وهكذا يتضح لنا أن البلاد العربية ستُجرف إلى الحرب بمرور الجيوش البريطانية من شرق الأردن والعراق ، واستخدامها للقواعد العسكرية فيهما بحكم المعاهدات ، واتخاذ لبنان وسوريا قاعدة لحركاتها بالحجة والإقناع أو بالجبر والإكراه — زد على ذلك أن البلاد العربية ستصير قواعد صالحة للطيران ، إذ أن أسراب الطائرات ستنزل إلى مطاراتها سواء فى سوريا أو فى العراق أو شرق الأردن ، وتحمل القنابل إلى بلاد روسيا ، كما أن صد الزحف الروسى فى إيران يضطر القوات الانجلوسكسونية إلى حشد القوات فيها . أما الجانب الروسى فيرى فى إيران هدفا حربياً ممتازاً فيستهدف مهاجمتها

لطرد القوات السكسونية منها والاستيلاء على منابع البترول الغنية فيها ، والبترول كما نعلم من أول العناصر فى الحرب .

إذن لا مناص من أن يواجه العالم العربى أخطار الحرب فى المستقبل ، والغريب أنه يتعرض لأخطار لا ناقة له فيها ولا جمل . ومن المؤسف أن البلاد العربية بوضعها الراهن عاجزة عن أن تبعد عنها أخطار الحرب :

أولاً — لأن جيوشها ضعيفة من حيث التنظيم ، وليس لها معدات كافية ، وليس فيها مصانع ومعامل لتموين الجيوش وهى مفتقرة فى هذه الناحية إلى مساعدة الأجنبى ، وبلاد وضعها العسكرى على هذا الشكل لن تستطيع المحافظة على حيادها . وقد استطاعت تركيا فى الحرب الماضية أن تحافظ على حيادها لأن جيشها كان بدرجة من المناعة ، مما جعل الفريقين المتحاربين يحترمان حيادها ، زد على ذلك أن الموقف العسكرى العام كان يتطلب من الجانبين بقاء تركيا محايدة لتقصير جبهة الحركات ، والفضل فى بقاء تركيا محايدة يعود فى الدرجة الأولى إلى قوة جيشها ، لأنه لو كان ضعيفاً لاكتسحتها قوات الحلفاء كما اكتسحت إيران ولهاجمتها القوات الألمانية .

ثانياً — ولو تيسر للبلاد العربية جيوش قوية واستطاعت أن تمونها بالصناعات الوطنية لما استطاعت أيضاً أن تبعد أخطار الحرب عنها ما دامت هى محرومة من خطة دفاعية مشتركة تنبثق من حلف عسكرى يستند إلى سياسة خارجية موحدة ، فميثاق الجامعة العربية الحالى لم يحقق الوحدة لا فى السياسة الخارجية ولا فى الدفاع .

ثالثاً — وإذا تعاقدت البلاد العربية فيما بينها على سياسة خارجية موحدة وخطة دفاع مشتركة ، فلا تستطيع أيضاً أن تبعد أخطار الحرب عنها ما دام بعضها قد قدم قواعد عسكرية لأحد الفريقين المتنافسين فى بلده ، لأن مجرد وجود هذه القواعد فى أحد الأقطار العربية يعرض البلاد العربية الأخرى إلى أخطار الحرب ولا سبيل لأى بلد من البلاد العربية الأخرى أن يحتفظ بحياده والبلد المجاور له قد فتح أبوابه لمرور الجيوش المحاربة وقدم لها القواعد .

وأخيراً إذا تم للعرب الوحدة التى ينشدونها ، وإذا تيسر لهم أن ينظموا جيشاً قوياً بعدده وعدده واستطاعوا أن يمونوا هذا الجيش بالصناعات الوطنية ، فإن مجرد بقاء جزء من أجزاء البلاد العربية خاضعاً لنفوذ أحد الفريقين المتخاصمين باسم حلف أو وصاية أو حماية أو مساعدة أو دفاع مشترك . . . أو بما شئت من أسماء اعتادت السياسة الحديثة أن تبتدعها فإن ذلك الجزء من البلاد العربية يسبب اندلاع لهيب الحرب فى البلاد العربية أجمع .

كيف تتقى البلاد العربية أخطار الحرب :

والذى يلوح لنا أنه لمن الصعب جداً لأى بلد من بلاد العالم أن يبقى محايداً فى حرب معاصرة تكاد تشترك فيها جميع الدول ؛ والذى نراه أن يكون للدولة من المناعة ما يساعدها على تجنب مصائب الحرب جهد الطاقة . والذى يسترعى الانتباه فى موقف الدول العربية أنها تكونت بعد الحرب العالمية الأولى بشكل جعل الأجنبى يصبح فيها المنتدب السيد ثم أمسى بعد ذلك الحليف الذى تخوله المعاهدة حق الاحتلال فى زمن السلم ولم يسبق قبل ذلك أن الحليف القوى ينتزع من حليفه الضعيف حق احتلال بلده فى السلم ، فهذا التحالف الشاذ الذى يربط دولة صغيرة بدولة كبرى ويجرها إلى حرب ضروس ، هو الذى يعرض الدول العربية لأخطار حرب لا ناقة لها فيها ولا جمل .

فتركيا دولة لا يتجاوز نفوسها العشرين مليونا وهى مجاورة لأعظم دولة ما برحت تختلق الحجج للاعتداء عليها ، ومع ذلك استطاعت بقوة جيشها أن تجعل حلفاءها يحترمونها ولا يقيدونها بقيود الاحتلال فى وقت السلم ، مع أنها معرضة للخطر المباشر ، وهى أحوج إلى معاضدتهم لتقف أمام خصمها الجبار ؛ إلا أن مناعتها وقتها شر ذلك . فمن الغريب أن تختلق الدول الغربية الحجج لتبرير احتلال البلد الحليف فى وقت السلم ، بينما هى تعلم أن ضرورات الحرب تقضى بالاحتلال دون الانقياد إلى معاهدة . لقد هاجم البريطانيون والروس بلاد إيران واحتلوها فعلا من غير أن يستندوا فى ذلك إلى معاهدة ، ذلك لأن ضرورات الحرب ساقتهم إلى هذا الاعتداء الذى كان هدفه تأمين الاتصال بين الحلفاء وروسيا . لهذا فباستطاعة الدول المحاربة أن تملى إرادتها على الدول الأخرى لتنحاز إليها فى زمن الحرب وتحتل بلادها حين تقضى ضرورات الحرب بذلك . وكان باستطاعة مصر أن تنقذ نفسها من مصائب الحرب لو كان لها جيش قوى ، ولو لم تكن مُحْتَـلَّةً بإحدى الدول المحاربة ، وتحمى إيطاليا ليبيا . وبديهى أن ذلك لا يتم إلا إذا كانت البلاد العربية الأخرى مستقلة تمام الاستقلال ، بيد أن وجود القوات البريطانية فى مصر واحتلال الأجنبى للبلاد العربية الأخرى بحجة الوصاية ، وحماية إيطاليا لليبيا ، جرف مصر والبلاد العربية الأخرى إلى الحرب ، فأصابها ما أصابها وما زالت تعانى شر هذا المصاب .

وإذا أرادت البلاد العربية أن تتقى أخطار الحرب فما عليها إلا أن تتخذ التدابير الآتية :

أولا — تخلص بلادها من الاحتلال الأجنبى : وقد سبق أن أشرنا إلى أن احتلال الأجنبى

لبلد من البلاد العربية يجعلها هدفاً لأخطار الحرب ، إذ أن الأجنبي يجعل ذلك البلد قاعدة لحركاته ، وبذلك يعرضه إلى هجوم خصمه فى وقت الحرب فتصبح البلاد العربية بأجمعها ساحة حرب .

ثانياً — توحيد السياسة الخارجية فى البلاد العربية : ويكون من أهداف هذه السياسة عدم السماح لأية دولة عربية بأن تتعاقد مع الأجنبي دون موافقة الدول العربية الأخرى . وبهذا يتسنى للدول المذكورة أن تبعد نفوذ الأجنبي عن بلدانها فلا تفسح له المجال ليتعاقد مع إحداها بحجة الدفاع أو المساعدة أو غير ذلك .

ثالثاً — وضع خطة دفاع مشتركة للجيوش العربية : إن توحيد خطة الدفاع لجيوش البلاد العربية ينسق تنظيم جيوشها من جهة ، ويجعلها قادرة على الصمود للعدو فى وقت الحرب من جهة أخرى ، وبذلك يتسنى لها أن تقف فى وجه العدو . وإذا ما رأت أن قواتها لا تكفى للصمود ، فإنها حينئذ تتعاقد مع الحليف الطبيعى لها وتتعاون معه للتغلب على العدو .

ليس من شك فى أن التدابير الثلاثة الآنفة الذكر إذا لم تق البلاد العربية من خطر حرب عالمية لا سبيل لأية دولة أن تبقى فيها محايدة ، فإن التدابير المذكورة تنقذها على الأقل من أضرار الاحتلال فى وقت السلم .

وبديهى أن توحيد خطط الدفاع يتطلب من الدول العربية أن تسلك سياسة اقتصادية موحدة لتسد حاجات جيوشها فى زمن الحرب ؛ لأن الجيوش مهما كانت قوية ، فإنها — إن لم تستطع أن تمون نفسها بالمؤن الحربية من مصنوعات بلادها — تكون مضطرة إلى طلب المعونة من الأجنبي ، وقد تجرها هذه المعونة إلى الحرب .

فلسطين وليبيا :

ولو فرضنا أن البلاد العربية قضت على الاحتلال الأجنبي ووحدت سياستها الخارجية ، ووضعت خطة دفاع مشتركة بينها ، وقوّت جيوشها بحيث أصبحت تصمد لكل هجوم وتجعل الدول تحترمها وتخطب ودها فإن هذا وحده لا يكفى لتصبح البلاد العربية بمنجى من الأخطار الحربية ، ما دام فى فلسطين دولة يهودية . إن فلسطين النقطة الضعيفة فى الجبهة العربية ، أو بتعبير آخر ، الثغرة التى يستطيع المستعمر أن ينفذ منها إلى البلاد . وإن السماح بتأسيس دولة يهودية فى فلسطين مهما صغر حجمها معناه تأسيس رأس جسر فى بلاد العرب للمستعمر .

وغنى عن البيان أن الدولة اليهودية لا يمكن أن تقوم إلا بمساعدة الأجنبي ، وإذا رفض

الأجنبي تأسيس علاقة معها فهي حتما تغريه بالمال ليكون حليفها أو وصيها أو حاميها .
وإذن ، ما دامت فكرة تأسيس دولة يهودية على ضفاف البحر المتوسط قائمة فلا بد أن تكون فلسطين ثغرة فى الجبهة العربية . وقد تعقد هذه الدولة حلفاً مع الدول العربية ، وتتعهد بالسير على سياستها الخارجية وتمتنع عن عقد أية معاهدة مع الأجنبي دون رضاء الدول العربية . ولكنه لا يبعد أن تصبح البلاد العربية بين عشية وضحاها معرضة لأخطار الحرب لأن الدولة اليهودية فتحت موانئها للقوات الأجنبية . والواقع أن البلاد العربية كلما تخلصت من الاحتلال الأجنبي وقبضت على موانئها فى ضفاف البحر المتوسط تكون قد أبعدت عنها خطر الحرب لأن البحر ذاته ، يعدّ خط دفاع لها .

ونقطة الضعف الأخرى فى الجبهة العربية هى ليبيا ، ولقد تعرضت مصر لأخطار الحرب لمجرد وجود قوات أجنبية فى ليبيا بعد أن فرضت إيطاليا حمايتها عليها . لا شك فى أن الأجنبي يحتل بلاد الغرب العربى ، غير أن هذه البلاد ما تزال أكثريتها الساحقة عربية ، ويتمتع بعضها بنظام حكم لا بد أن يوصلها إلى الاستقلال . أما ليبيا فنفوسها قليلة وإذا ظلت محمية من قبل الأجنبي ، وظل باب الهجرة مفتوحا فى وجهه ، فلا بد أن يطغى عليها سيل الأجنبي فتصبح بلداً أجنبيا يعزل البلاد العربية بعضها عن بعض ، وبذلك تنقطع الصلات بين الشرق العربى والغرب العربى فضلا عن أن بقاء الأجنبي فيها يجر ويلات الحرب إلى البلاد العربية .

طه الهاشمى

الاستعمار الأوروبي في العالم الشرقي

للأمير مصطفى الشهابي

توطئة :

لابد ، قبل الخوض فى موضوع هذا المقال ، أن أذكر كلمة موجزة جداً عن ماهية الاستعمار وعمَّا يسمونه حقوق الاستعمار ، وعن تاريخ الاستعمار على هذه الكرة الأرضية .

ما هو الاستعمار [١] :

الاستعمار على شكله السياسى الحديث ، استيلاء دولة على قطر من الأقطار ، وإدارة شؤونه ، واستثمار مرافقه المختلفة ، إما بيد مهاجرين يرحلون إليه ويقطنونه ، وإما بيد سكانه الأصليين ، وإما باشتراك الفريقين . ومن بدائه الأمور أن الدولة المستعمِرة تضمن فى هذا العمل لنفسها ولقومها أعظم فائدة تستطيع الحصول عليها .

وأداة الاستعمار التسلط . وهو تحكم شعب فى غيره من الشعوب . والتسلط أنواع : أهمها التسلط السياسى ، والتسلط الاقتصادى ، والتسلط الثقافى .

ووسيلة التسلط : القوة ، أى غزو الأرض المراد استعمارها ، واحتلالها عسكرياً ، والقضاء على القوى المحاربة فيها ، وخلع سلطانها ، وإسقاط حكومتها ، وإقامة حكومة من رجال الفاتحين ، ثم استعمال مرافقها فى مصلحة هؤلاء الفاتحين فى الأعم من الحالات .

والأرض المغلوب على أمرها تسمى مستعمَرة . وهى تفقد السيادة الداخلية والخارجية ، وتكون تابعة للفاتحين فى جميع أمورها . ولا يعترف لسكانها بكيان قومى ولا بحكومة قومية

---

(١) فى اللسان أعمره المكان واستعمره فيه جعله يَعْمُره . وفى الأساس : استعمر الله عباده فى الأرض أى طلب منهم العمارة فيها . وفى القاموس جملة اللسان . ولم يزد صاحب التاج على ماجاء فى الأمهات المذكورة ، وكذلك أصحاب المعجمات الحديثة . ويتضح من ذلك ان مدلول لفظة الاستعمار اليوم لا يختلف كثيراً عن مدلولها القديم . ونحن فى الاصطلاح الحديث نجعل فعل « استعمر » يتعدى إلى الأرض أو المكان أو القطر فنقول مثلا « استعمرت انكلترة استرالية » أما لو أريد اتباع نص المعجمات حرفياً لوجب أن يقال « استعمرت إنكلترة شعبها فى أسترالية » . وقد شاع الاصطلاح الحديث .

ويعتبر هذا النوع أشد أنواع التسلط وأفظعه ، ولاسيما إذا قذف المستعمرون بمهاجرين يحلّون محل السكان الأصليين ويقرضونهم بسدّ سبل العيش فى وجوههم .

وهنالك نوع ثان من التسلط أقل فظاعة من الأول يسمى الحماية ، فى هـذا الشكل يُستبقَى رئيس البلد المحمى وحكومته . لـكن المستعمِر يقيم إلى جانب تلك الحـكومة الشرعية شبه حكومة مسلطة يقبض رجالها على مصالح الدولة ، ويحملون رئيسها على اتخاذ ما يشاءون من المراسيم ، كما يجعلون الحـكومة الشرعية أداة صالحة لتنفيذ خططهم الاستعمارية .

وتفقد الدولة المحمية سيادتها الخارجية . وكثيرا ما تفقد سيادتها الداخليـة على بعض مصالح الدولة ، كالجيش والأمن العام والنقد والمـكوس وغيرها ، مما تتصرف به الدولة الحامية وحدها .

وأخف من الحماية الانتداب ، وهو وليد الحرب الـكبرى الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) فرض على الشام والعراق وغيرهما على ما هو معروف .

وأخف منه التعاقد بالمعاهدات بين دول كبيرة ودول صغيرة مستقلة ، عنـد ما تـكون الثانية محمولة على التعاقد بالإرهاب أو القوة .

حقوق الاستعمار :

يدعى المستعمرون وبعض المشرعين الموالين لهم أن للاستعمار حقوقا تجيزه . ولهم فى هذا الباب كتب تدرّس فى قسم الدكتوراه ببعض كليات الحقوق . وهذه الحقوق فى نظرهم هى :

١ — حق القوة . أى أن يكون القوى صاحب حق فى التسلط على الضعيف ، ولو أدّى الأمر إلى إهلاكه لبقاء الأصلح ، وذلك على مذهب نيتشه وهوبس ومكيافلى وأضرابهم من أصحاب فلسفة القوة المنافية لمبادئ الأخلاق الإنسانية .

٢ — حق العنصرية : أى حق تفوق سلالات من البشر على غيرها من السلالات ، كالقول بأن الجرمان بفطرتهم أصلح من غـيرهم للتمدين والحـكم ، ولذا يجب أن يسودوا العالم ، وهذا على مذهب غوبينو الفرنسى وفيخت الألمانى وهستون ستيوارت تشمبرلين البريطانى ومن هم على شاكلتهم من أبناء أمس مثل هتلر وجماعته . والمعروف أن هذه الفلسفة فاسدة ، لأن الخصائص الجسمية والصفات النفسية فى الإنسان ليست من القوانين الطبيعية الثابتة ، بل هى تتبدل وتتحول تبعاً للبيئة التى يعيش فيها الإنسان . فلو وضعتَ الزنوج فى بيئة مماثلة تماماً للتى يعيش فيهـا الجرمان (بدلا من وضعهم فى مناقع أفريقية الاستوائية) ، وثقفتَ

الفريقين ثقافة واحدة ، وجعلت لهما شروطا معاشية واحدة مدة طويلة من الزمن ، لألفيت الزنوج مساوين للجرمان إجمالا .

٣ — حق الاحتلال الأول : وهو أن تحتل دولة من الدول بلداً مجهولا لم يرفرف عليه علم من الأعلام ، فتكتسب تلك الدولة حق التصرف بشؤونه ، مثلما يكتسب المرء حق التصرف بالأرض الموات إذا ما أحياها .

وهذه النظرية فاسدة ، لأن احتلال بلد ما سياسياً غصب بيّن وتعد على حقوق أفراده وقبائله . ولا يجوز حسبان الاحتلال حقاً إلا إذا كان البلد خاليا من السكان ، وهذا شيء نادر .

٤ — حق الاحتلال بالتعاقد : وهى ذريعة مشهورة يتذرع بها المستعمرون عندما يعقدون معاهدات مع شعوب أو قبائل ضعيفة أو جاهلة ، فيتسلطون بها عليهم ، لقاء حمايتهم من عدوان الأجانب ، ولقاء تثبيت سلطة رؤسائهم ، وتنظيم شؤون حكوماتهم ، وما إلى ذلك من المغريات . والمستعمرون فى الحقيقة يتخذون المعاهدات أدوات فعالة لتثبيت تسلطهم الاستعمارى على تلك الشعوب والقبائل .

وتقوم هذه المعاهدات إما على الإكراه أو على الغش أو عليهما جميعاً ، وهى لذلك فاسدة .

٥ — حق الاستعمار نتيجة لحرب عادلة ، والحرب العادلة فى نظرهم هى التى تثيرها الدولة الاستعمارية على الشعب الضعيف إذا أضر أحد أفراده بأحد رعاياها ، أو بمصلحة من مصالحها ، كأن يُعتدى على قنصلها ، أو على إحدى سفنها ، أو على إحدى شركاتها . وأنت ترى أن حق الاستعمار هذا هو حق الذئب على الحمَل ليس غير .

٦ — حق مرور الزمن : يذكر بعض المشرعين أنه مثلما يجوز للفرد أن يتملك الشىء بمرور الزمن ، كذلك يجوز للدولة الاستعمارية (أو للشعب الغالب أو للشعب المتوطن) أن تتملك الأرض إذا طال مقامها فيها . وهـذه النظرية صحيحة إذا انقضى قرون على احتلال الأرض بلا معارض ولا منازع . فالعرب مثلاً فقدت حقها فى الأندلس بمرور الزمن ، وكذلك الإنجليز فى الولايات المتحدة ، والروم فى ديار الشام ، واليهود فى فلسطين ، وفرنسا فى كندا .. الخ . أما إذا وثبت دولة استعمارية على شعب آمن فاحتلت بلاده ، وتسلطت عليـه بالقوة ، وقمعت ثوراته بالحديد والنار ، وفكّكت أوصاله ، بينما هو لا يفتأ يجاهـد بشتى الوسائل فى سبيل استقلاله ، فلا مرور زمن على هذه الحال مهما يطل .

٧ — الاستعمار باسم الرأفة والإحسان : وهو عنوان عجيب لأن تاريخ الاستعمار الحديث

جماع فظائع وأهوال ومذابح واسترقاق وإفقار شعوب وقبائل ضعيفة وتجويعها وقرضها ، فهل يستوى الاستعمار مع الرأفة والإحسان على صعيد واحد ؟

٨ — حق الاستعمار لأجل التمدين : وهى أهم أغنية تتغنى بها الدول الاستعمارية ، وأكبر ذريعة تتذرع بها لاحتلال المستعمرات والتسلط عليها . والحقيقة أنه ما من دولة استعمارية تفتح بلداً من البلاد بغية تمدين سكانه ، بل تفتحه بغية الاستفادة منه . والفائدة هى غايتها الأولى والأخيرة . والتمدين يأتى عرضا . وارتقاء شعب درجة أو أكثر فى سلم المدنية لا يوازى فقده استقلاله وتحكم الأجنبي فى مقدراته .

٩ — حق الحياة : يرى معظم المشرعين الأوربيين أن ضرورة العيش تجيز الاستعمار ، وأن حق الحياة حق محترم ، وأنه لا يجوز أن تظل كنوز الأرض مدفونة فى بلد يجهل سكانه استخراجها والإفادة منها ، بينما تكون البلاد المتمدنة المكتظة بسكانها فى ضنك وخصاصة لقلة الموارد فى تلك البلاد .

وهذه النظرية تبدو معقولة لو أنصف المستعمرون ، واكتفوا بالقوت ، فلم يبتغوا الغنى والرفاه وبلهنية العيش من شقاء شعوب المستعمرات . وفى وسع الدول الاستعمارية استغلال المرافق الاقتصادية بعدل وحكمة دون أن تفقد الشعوب الضعيفة استقلالها .

يتضح من هذه الكلمة الموجزة فيما يسمونه حقوق الاستعمار أنه ليس للاستعمار حقوق مهما زخرفها الكتاب ويطلوها بطلاء من المنطق . فالاستعمار على حقيقته ليس سوى التسلط على شعب ضعيف ، وسلبه استقلاله بغية الاستيلاء على ما فى بلاده من ثروة ، وبغية تشغيل أفراده فى الجندية أو فى الزراعة أو الصناعة لمصلحة المستعمر . وكل ما يقال غير ذلك تمويه وتضليل ، فما من دولة كبيرة تستولى على بقعة من بقاع الأرض وتكون غايتها تمدين سكانها أو الرأفة بهم . وأى تمدين أو رأفة فى دول تتسابق إلى التسلط الاستعمارى بالحديد والنار ؟

ويتضح أن للشعوب المغلوبة على أمرها حق الثورة فى سبيل الاستقلال . فالأديان السماوية والمبادئ الخلقية لا تقر الطغيان ، ولا تسلط شعب على شعب رغماً عن أنفه . وجميعها تجيز الثورة لدفع الطغاة وإزالة حكمهم الجائر . والدولة الاستعمارية تعد الثوار عصاة يستحقون القتل ما داموا ضعفاء ، وتعدهم أبطالاً ورجال دولة شرعيين إذا نجحت ثورتهم . وما برح المستعمر ذئباً مع الضعيف ، وهراً مع القوي . وهذه الجملة تمثل أخلاق المدنية الغربية الحديثة خير تمثيل .

لمحة فى تاريخ الفتح والاستعمار :

قلت فى مقدمة « كتاب الاستعمار » — وهو مخطوط — إن الفتح والتسلط والاستعمار أمور عرفناها فى أيامنا هذه ، كما عرفها الناس فى حقب خلت قبل التاريخ ، أى منذ وُجدت جماعات البشر على هذه الكرة الأرضية . وموجات الفتوحات فى القديم كثيرة ومعروفة كموجة الكلدان والرعاة والفنيقيين والإسماعيليين والإسكندر الكبير والرومان وغيرهم . وبعض هذه الفتوحات رافقها الرفق والرأفة والتسامح ، وبعضها كانت على جانب كبير أو صغير من الظلم والطغيان والقسوة .

وجميع هذه الموجات لا تقاس بالموجات الأوروبية الاستعمارية فى العصور الحديثة بما رافقها من فظائع تقشعر لها الأبدان . فقد كانت مغبتها استيلاء الأوربيين على أميركة وأوقيانوسية جميعاً ، وعلى معظم أفريقية ، وعلى جزء كبير من آسية . وانقرضت فيها شعوب كانت على الفطرة ، وهلك ملايين عديدة من البشر ، ولا سيما الحمر والزنوج . وذكر هذه المظالم يحتاج إلى كتاب برأسه وقد لخصتها فى كتابى المذكور .

وبدأ الاستعمار الحديث منذ أن تقلص ظل الدول العربية والمستعربة واستولى الترك العثمانيون على بلادها ، ومنذ أخذ الإسبان والبرتغال يقذفون عراكبهم على أميركة والهند . وبعد التوسع الكبير الذى حصل فى القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ، وقضاء انكلتره على امبراطوريتى إسبانيا والبرتغال ، أخذ الاستعمار يتسع ويشتد فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين . وهكذا استولى الأوربيون فى القرون الأخيرة على بقاع من الأرض تبلغ مساحتها نصف الكرة الأرضية ، ويبلغ سكانها ٦٠٠ مليون نسمة مما لا مثيل له فى التاريخ .

ومن الأمثلة على التوسع الاستعمارى الحديث استيلاء فرنسة على الجزائر والسنغال والكوشنشين ، وإعلانها حماية تونس ومراكش وأنام . ومنها احتلال إنكلتره لمصر والسودان المصرى ، واستيلاؤها على بلاد عظيمة فى أفريقية خاصةً كنيجرية وزنجبار وأفريقية الشرقية وأفريقية الجنوبية الشرقية . ومنها استيلاء إيطالية على الصومال وطرابلس وبرقة ، واستيلاء ألمانية على بلاد طوغو وكمرون وأفريقية الجنوبية الغربية ، واستيلاء بلجيكة على الكنغو الخ . . ولم تظل الولايات المتحدة مكتوفة اليدين ، فوضعت يدها على كوبة والفلبين وهاواى ، وضمنت لنفسها النفوذ السياسى والاقتصادى فى أميركا الوسطى .

الاستعمار الأوربى للبلاد الشرقية :

لقد كانت الدول العربية من قبل ، والدولة العثمانية فى أيامها الأول ، عثرة فى طريق الاستعمار الأوربى . ولـكن بينما كانت أوربة تنهض نهضتها الحديثة المعروفة ، وتتسابق إلى استعمار الأرض ، لبثت الدولة العثمانية تغطّ فى نومها . وهكذا البلاد العربية التابعة لها ، والبلاد العربية الواقعة فى شمالى أفريقية ، مما جعلها جميعاً مطمع أنظار الدول الاستعمارية .

وكانوا يسمون الدولة العثمانية الرجل المريض . ولو تمـكنت الدول الاستعمارية من الاتفاق على اقتسامها لقضت على اسـتقلالها وتقاسمتها منذ أواخر القرن الماضى وليس ما يسمونه « القضية الشرقية » سوى فصـل نصارى الدولة العثمانية عنها فى أوربة ، ثم الاستيلاء على الأقطار الإسلامية من تلك الدولة ، سواء أكانت عربية أم تركية .

وقد تحقق الشق الأول من هذه السياسة بمساعدة الدول الاستعمارية الـكبرى ، فاستقلت اليونان بموجب معاهدة لوندرة المؤرخة فى ٢٢ آذار سنة ١٨٢٩ ومعاهدة أدرنة المؤرخة فى ١٤ أيلول سنة ١٨٢٩ . ثم استقلت ولايتا ملدافية وولاشية استقلالا داخلياً ، عقب حرب القرم ، بموجب معاهدة الصلح المؤرخة فى ٣٠ آذار سنة ١٨٥٦ ، مما أدى بعدئذ إلى اتحادها واستقلالها التام باسم رومانية . وقد تم ذلك برغم انتصار تركية وحليفتيها إنـكلترة وفرنسة على روسية فى حرب القرم !

وهكذا الصرب ، فإنها استقلت داخلياً سنة ١٨٢٩ بتأثير روسية ، ثم استقلت استقلالاً تاماً بموجب معاهدة برلين سنة ١٨٧٨ ، وذلك عقب انتصار روسية على تركية فى حرب سنة ١٨٧٧ . وقضت معاهدة برلين باستقلال الجبل الأسود نهائياً ، وبجعل بلغارية إمارة مستقلة داخلياً تابعة لسيادة السلطان نظرياً ولها سلطة على الروملى الشرقية .

وفى سنة ١٨٩٦ ثارت جزيرة إقريطش (كريد) على الدولة العثمانية ، وقامت الحرب بين تلك الدولة واليونان بسبب هذه الجزيرة فانتصرت الأولى ، ومع هذا تألبت عليها إنـكلترة وفرنسة وروسية وأرغمتها على الاعتراف باستقلال الجزيرة المذكورة داخلياً ثم التحقت باليونان سنة ١٩١٣ عقب حرب البلقان .

وبعد خلع السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٨ ضمت النمسة مقاطعتى البوسنة والهرسك إلى أراضيها ، وأعلنت بلغارية استقلالها التام . وبعد ذلك احتلت إيطالية رودس وجزائر البحر الأبيض . وهكذا لم تـكد تبدأ الحرب الـكبرى الأولى فى صيف سنة ١٩١٤ حتى كان القسم

الأول من القضية الشرقية قد تحقق ، أى حتى كانت جميع الشعوب النصرانية فى البلقان قد استقلت عن تركية استقلالا تاماً بمعاونة الدول الأوربية الكبرى ومساعيها المحكمة .

أما القسم الثانى من القضية المذكورة أى استيلاء الدول الأوربية الكبرى على الأقطار الإسلامية من الدولة العثمانية ، فكان قد تحقق منه قسم كبير فى شمالى أفريقية خاصة . فمنذ سنة ١٨٣٠ احتلت فرنسا الجزائر ، ثم احتلت تونس فى سنة ١٨٨١ ، وفى السنة التالية احتلت إنكلترة مصر . وجعلت إيطالية تحتل طرابلس الغرب وبرقة فى بدء سنة ١٩١٢ ، وعمدت فرنسة فى تلك السنة إلى مراكش فاحتلتها ، وإن تكن خارجة عن نطاق الدولة العثمانية .

ومن سنة ١٨٨٨ حتى سنة ١٩٠٣ حصلت ألمانية على فرمانات تجيز لها مدّ السكة الحديد من إسطنبول إلى بغداد . ولما كان هذا الخط على طريق الهند خفت إنكلترة سنة ١٩٠١ إلى نشر حمايتها على الكويت . وكانت هذه الدولة احتلت عدن ، وأعلنت حمايتها للمحميات التسع جنوبى جزيرة العرب كحضرموت ولحج والمكلاّ وغيرها .

ولم تقف فرنسة مكتوفة الأيدى ، فضغطت على الدولة المريضة وانتزعت منها بين سنة ١٨٨٨ وسنة ١٨٩٣ بضعة امتيازات ، كمد سكة حديد من بيروت إلى دمشق فالمزيريب فى حوران ، وأخرى من دمشق إلى حمص فحماة فحلب فالبيرة (بيراجك) ، وثالثة بين يافا والقدس ومنها إنشاء ميناء فى كل من إسطنبول وبيروت وإزمير .

أما الروسية فما برحت منذ القديم حتى يومنا هذا تطالب بمضيق البسفور والدردنيل .

وفى سنة ١٩١٢ اتفقت فرنسة وإنكلترة اتفاقا اعترفت فيه الثانية للأولى بنفوذ اقتصادى فى سورية ، أى سورية ولبنان اليوم . وما إن بدأت وقائع الحرب الكبرى الأولى سنة ١٩١٤ حتى راح الحلفاء (إنكلترة وفرنسة وروسية) يتآمرون على الدولة العثمانية وإيران لاقتسام أراضيهما . وقد نشر البلاشفة بعد قضائهم على القياصرة سنة ١٩١٧ وثائق هذه المؤامرات ، وخلاصتها مطالبة روسية بإسطنبول والبسفور والدردنيل ، ومطالبة فرنسة بسورية وفلسطين وكيليكية ، وادعاء إنكلترا بإدخال القسم الجنوبى من إيران ضمن نطاق نفوذها وبتأسيس امبراطورية عربية إسلامية مستقلة مركزها الحجاز .

ولكن تضارب مصالح تلك الدول ، وقيام الثورة الشيوعية ، وخوف فرنسة من الإمبراطورية العربية وممانعتها فى إدخال سورية ضمنها ، كل ذلك حال دون تحقيق تلك المطالب .

انفصال البلاد العربية عن الدولة العثمانية :

من المعروف أنه بعد سقوط السلطان عبد الحميد واستلام جمعية الاتحاد والترقى زمام الحكم

سارت هذه الجمعية على سياسة تتريك العرب وغير العرب بشتى الوسائل . وما كانت تعترف للعرب بكيان قومى ولا تعترف باللغة العربية فى الحكومة ولا فى المحاكم ولا فى المدارس حيث كانت جميع الدروس تلقى بالتركية .

وعند ما شبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ أخذت هذه الجمعية المسلطة تتبع سياسة تتريك العرب بالقوة والبطش والمشانق ونفى الأسر العربية الكريمة إلى بلاد الأناضول . وكان التلفظ بحقوق العرب أو الاستقلال الإدارى يعد خيانة عظمى جزاؤها القتل .

وكان أمام العرب خطتان يجب اتباع إحداهما وهما : إما الإغضاء عن فظائع الأتراك الاتحاديين ريثما تنتهى الحرب ، وإما الثورة عليهم فى جانب الدول المتحالفة . فاتباع الخطة الأولى كان مضراً بالعرب سواء أكان النصر لألمانية وحليفتها تركية أم كان النصر للحلفاء . ذلك أنه فى حالة انتصار ألمانية وتركية يفقد العرب قوميتهم ولغتهم فى ديار الشام والعراق على الأقل ، نتيجة لسياسة التتريك بالقوة ، ويظل الحجاز واليمن تحت سلطة الدولة . أما فى حالة انتصار الحلفاء فإن هؤلاء الحلفاء كانوا عندئذ يعدون العرب رعايا دولة مغلوبة ، فيتسلطون عليهم ويستعمرون بلادهم استعمار الغالب لبلاد المغلوب .

واتباع الخطة الثانية أى الثورة على الدولة العثمانية فى جانب الحلفاء له أيضاً مغبتان : الأولى أنه إذا انتصرت ألمانية وتركية ، فمصير الشام والعراق يكون إلى التتريك ، وإلى استعمار العراق بمهاجرى الألمان ، ويبقى الحجاز واليمن تابعين للدولة العثمانية . وهو المصير نفسه الذى أشرت إليه فى حالة اتباع الخطة الأولى . لكنه إذا انتصر الحلفاء ، فمن المحتمل جداً أن يستقل الحجاز واليمن تماماً . وإذا لم يستقل العراق والشام تماماً فمن الثابت أنه يعترف لهما بكيان سياسى وقومى ، كما يعترف بلغة الضاد لغة رسمية لدولتيهما ، وهى خطوة سياسية كبيرة ، إذا قيست بما كانت أو بما ستكون عليه البلاد العربية ، عند ما تظل تحت سيطرة الدولة العثمانيــة التى لا تعترف لها بكيان سياسى ، ولا تقبل أن يكون فى الدولة إلا جنس واحد ولغة واحدة .

ولهذه الأسباب الهامة التى كان يجهلها كثير من إخواننا المصريين فى تلك الأيام ، بسبب انفصالهم القديم عن الدولة العثمانية ، قامت الثورة العربية سنة ١٩١٦ فى الحجاز ، واشترك فيها نخبة من رجالات العرب ، وانتهت الحرب المذكورة بانتصار الحلفاء ، وربحت العرب استقلال اليمن والحجاز استقلالا تاماً ، واستقلال الشام والعراق استقلالا مشوبا بالانتداب .

أما ديار نجد فسلطة الدولة العثمانية عليها كانت سلطة اسمية ، فاستكملت استقلالها ، وضمت الحجاز إليها ، على ما هو معروف .

وكان حظ الشام أسوأ من غيره ، فقد جعلوا منه أربع دول ، هى سورية ولبنان وشرق الأردن وفلسطين ، وجعلت فرنسة من سورية أربع دويلات صغار منفصلات ، وهى دويلات دمشق وحلب وجبل الدروز وجبل العلويين ، أما فلسطين فقد مُنيت بوعد بلفور ، وبتدفق سيل من اليهود المهاجرين فكان حظها أسوأ الحظوظ ، وأصبحت وضعيتها الدقيقة خطراً عليها وعلى البلاد العربية المجاورة .

وجاهد العراق فى سبيل استقلاله التام ، فانتزع من إنكلترة معاهدتين ، الثانية منهما أصلح من الأولى ، وهو ما برح يطالب بإلغائها . وجاهدت سورية فخطت بالدويلات الأربع المذكورة إلى حكومة اتحادية تضمها جميعاً ، فإلى حكومة سورية موحّدة . ولبثت أهم المصالح بيد الفرنسيين كالجيش والمكوس والنقد والأمن العام ومراقبة الشركات والمدارس الأجنبية حتى تم جلاؤهم عن سورية ولبنان سنة ١٩٤٥ فأصبحت الدولتان مستقلتين تماما .

ومن المعروف أن مصر خطت بجهادها منذ نهاية الحرب الكبرى الأولى إلى اليوم من الحماية إلى إعلان الاستقلال المشوب بالتحفظات ، فإلى معاهدة سنة ١٩٣٦ ، فإلى إنسحاب الجيش البريطانى إلى قناة السويس ، وهى تسعى اليوم إلى التخلص من تلك المعاهدة ، وإلى إعادة علاقاتها الطبيعية الأخوية بالسودان المصرى .

أما شرق الأردن فقد عقد مع إنكلترة معاهدة ضمنت استقلاله ، وضمنت أيضا مصالح هامة لتلك الدولة فيه وبدّل شرق الأردن فى هذه السنة بتلك المعاهدة معاهدةً جديدة أصلح له من الأولى ، ولكن إنكلترة لبثت فى المعاهدة الجديدة أيضاً ضامنة لنفسها مطارين عسكريين فى أراضى شرق الأردن .

جامعة الدول العربية :

يتضح من هذه الخلاصة الموجزة أن الشعوب العربية خطت خطوات واسعة فى سبيل استقلالها منذ الحرب الكبرى الأولى إلى يومنا هذا ، وأنه ما برح أمامها عقبات جمة لاستكمال هذا الاستقلال فى كثير من الأقطار العربية : فهنالك قضية فلسطين الهامة ، وقضية السودان المصرى ، وقضية ليبيا ، وقضية حقوق العرب فى تونس ومراكش والجزائر الخ .

وقد دلت تجارب الأيام والسنين ، وتجارب الحرب الكبرى الثانية ، على أن الدول الصغيرة ، أياً كانت ، لاتقوم لها قائمة فى عراك الدول الكبرى وتنازعها النفوذ أو السيطرة على العالم . ولهذا أخذ مفكرو العرب منذ عدة سنين يتحدثون عن ضرورة إيجاد صلة تربط بعض الدول العربية ببعض . وأتذكر أنني كتبت فى الجرائد المصرية ، وحاضرت بمصر فى هذا الموضوع منذ خمس عشرة سنة . ولكنّ أوضاع سورية ولبنان السياسية خاصة كانت تحول دون تحقيق هذا الاتصال . فلما تنفّستا الصعداء عقب الحرب الأخيرة تذللت أكبر عقبة ، وعاد ذوو الشأن منا إلى البحث والتشاور فى تحقيق هذه الأمنية الغالية ، فكان بروتوكول الإسكندرية سنة ١٩٤٤ ، ثم ميثاق جامعة الدول العربية فى ٢٢ آذار « مارس » سنة ١٩٤٥ والدول التى اشتركت فيه هى : مصر والعراق والمملكة العربية السعودية واليمن وسورية ولبنان وشرق الأردن .

وقد ولدت هذه الجامعة المباركة ونحن فى أشد الحاجة إليها . وهى فى تصنيف الدول لا تُعَدّ دولة موحدة ولا دولة اتحادية ، بل عصبة دول مستقلة داخلياً وخارجياً ، يصل بعضَها ببعض مجلسٌ يعالج أمورها المشتركة ، ويتخذ مقرراته بإجماع آراء الممثلين لدول تلك العصبة . وليس ذلك المجلس دولة فى ذاته . وليس له سيادة على دول العصبة ، ولكنه أداة فعالة لتنسيق جهودها ، ورعاية مصالحها سياسياً وثقافياً واقتصادياً .

وكفى مرور ثلاث سنين على تأليف جامعة الدول العربية لكى يلمس الشرق والغرب أثرها الكبير فى أداء رسالتها . فقد عملت عملاً مبروراً فى تحرير سورية ولبنان ، وما برحت تعمل فى إنقاذ فلسطين من الاستعمار الصهيونى ، وإنقاذ أفريقية الشمالية من تسلط المستعمرين . وكان لها يد مشكورة فى عدول الولايات المتحدة عن مؤازرة قرار تقسيم فلسطين ولو إلى حين ، وتدخلت فى قضية اليمن فحقنت فيها الدماء ، وآزرت كل ضعيف ينشد العدل والحرية كالأندونوسيين والفتناميين .

ويدل ما ألمعتُ إليه من أعمال اللجنة السياسية لجامعة دولنا العربية أنها كانت يقظة تجاه الأحداث السياسية . أما لجانها الأخرى كاللجنة الثقافية واللجنة الاقتصادية ولجنة المواصلات فما برحت فى بدء عملها ، وأمامها مجال واسع جداً لخدمة الدول العربية خدمات جلى هى اليوم فى أشد الحاجة إليها .

الخلاصة :

ضلّ من ظن أن من المستطاع دفع استعمار أوروبة للعالم الشرقى بغير الاتحاد والقوة .

ومن خطل الرأى الاعتقاد بأن الدول الاستعمارية ، أياً كانت ، قد بَدّلت نظرتها إلى العالم الشرق من حيث أساس استعماره . فخطط الاستعمار وحدها هى التى تتبدل ، تبعاً للأحداث السياسية ولتطور الشعوب الشرقية وتقدمها فى الحضارة . ولا شك أن بعض تلك الدول أرحم أو أعقل من بعض . ولـكن المصلحة — لا الحق ولا العدل ولا التمدين ولا الإحسان — هى رائد المستعمرين فى كل عمل من أعمالهم . ولهذا وجب على الأمم الشرقية كافةً وعلى الشعوب العربية خاصةً أن تتقوى وتتكاتف لدرء الاستعمار الأوربى . وما دامت بلادها غنية بالثروات الطبيعية فعين الاستعمار ستظل شاخصة إليها ، لا يثنيها عنها سوى أمرين : الأول تزاحم تلك الدول ، والثانى يقظة الأمم الشرقية ومقاومتها الفعالة للاستعمار . ولا يكفّ المستعمرون عن تسلطهم الاستعمارى إلا عند ما يرون أن مصالحهم أصبحت مهددة ، وأن من الأفضل لهم ترك الشعوب الشرقية تحكم نفسها كما تريد ، وتعيش بحرية وسلام . وعندئذ تكتفى الدول الاستعمارية بأن تعمل ، برضاء تلك الشعوب المستقلة ، على استخراج كنوز أراضيها ، واستثمار مرافقها ، فى فائدة الفريقين ، دون ما تسلط ولا استعمار .

لاذقية العرب ٢٩ / ٣ / ٤٨ — مصطفى الشهابى

كفاح العرب السياسى ضد الصهيونية

للدكتور محمد عوض محمد بك

عندما أخذت الحركة الصهيونية تنظم شئونها ، وتكيف برنامجها فى أواخر القرن الماضى ، كان كثير من الأقطار العربية خاضعاً للحكم العثمانى ، وكان يبذل جهده للخلاص من نير ذلك الحكم ، فكان الهدف الأول الذى وجهت إليه الجهود الوطنية أن تنال البلاد العربية حريتها واستقلالها . وعلى الرغم من أن مطامع الدول الاستعمارية لم تكن خافية على العرب ، والخطر الكامن وراء الدعاية الصهيونية آخذ فى الظهور ، فإن المظالم التى صاحبت الحكم العثمانى كانت هى الحقيقة الماثلة أمام الشعوب العربية ، تحسها فى كل يوم ، وتطالع آثارها فى كل لحظة . فلم يكن بمستغرب أنّ أول ما عنيت به الحركة الوطنية هو التخلص من الحكم العثمانى ، وإقامة حكومات عربية مستقلة .

ولكن هذا السعى إلى الاستقلال ، كان يشتمل على شىء من الكفاح ضد الصهيونية . فإن الحكم العثمانى أجاز إنشاء كثير من المستعمرات الصهيونية . وسمح لها أن تنمو وتترعرع فى ظله . ففى عام ١٨٦١ سُمِح لليهود بإنشاء مدرسة زراعية بالقرب من يافا ، لتخريج زرّاع للمستعمرات المزمع إنشاؤها ؛ وقد أسست لهذا الغرض جمعية فى إنجلترا يهيمن عليها البارون إدمند دى روتشيلد ، واستطاعت أن تؤسس سبع مستعمرات ما بين عامى ١٨٨٣ و ١٩٠٠ ، وأكثرها بجوار يافا وحيفا والقدس . وبفضل هذه المستعمرات زاد عدد اليهود فى فلسطين من ٢٥٫٠٠٠ فى سنة ١٨٨١ إلى ٨٠٫٠٠٠ فى عام ١٩١٤ .

هؤلاء المهاجرون لم يكونوا قانعين بالحياة فى فلسطين أسوة بسائر سكانها ، بل أخذوا ينشئون مدارسهم ويستخدمون فيها اللغة العبرية ، وكانت لهم منشآتهم الخاصة ، وعملتهم التى يتداولونها ، ومحاكمهم التى يحتكمون إليها ، وكانوا ينفرون من بقية السكان ، ويعيشون كأنهم دولة وسط الدولة .

هكذا ولدت الصهيونية الفلسطينية تحت ظل الراية العثمانية ، ولم تفعل الدولة شيئاً لكبح جماحها ، ودفع شرورها ؛ فلا عجب إن كان بغض الصهيونية جزءاً من بغض التسلط

التركى والحكم العثمانى ، وكان المجهود الجبار الذى بذله العرب لنيل حريتهم أثناء الحرب العالمية الأولى هو بداية الكفاح العربى ضد الصهيونية .

وفى وسعنا أن نقسم هذا الكفاح إلى أربع مراحل : الأولى الثورة العربية على الحكم العثمانى ، والثانية كفاح الاستعمار الأوربى الذى آوى الصهيونية وجعلها تحت رعايته ، والمرحلة الثالثة تمثل تضامن الأقطار العربية لنصرة فلسطين من عام ١٩٣٩ إلى تأسيس جامعة الدول العربية . والمرحلة الرابعة هى الكفاح المنظم تحت ظل الجامعة وبقيادتها . وسنتناول كلاً من هذه المراحل الأربع بشىء من الوصف .

١ — الثورة العربية

تولى الشريف حسين بن علىّ قيادة الحركة العربية من مركزه فى مكة أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن الإنجليز أول الأمر راغبين فى مثل هـذه الحركة ، لأنهم خشوا أن تحول بينهم وبين تحقيق مآربهم فى الشرق العربى . غير أن هزيمتهم الأولى فى العراق ، وسير الحرب فى أوربا ، أتاحا الفرصة لجماعة من أنصار العرب من البريطانيين من أمثال لورنس ، ومن على شاكلته ، فطلبوا من الحكومة البريطانية أن تؤيد الثورة العربية وتشد أزرها . من أجل ذلك دارت تلك المفاوضات بين الشريف حسين وبين مندوب بريطانيا فى مصر المدعو هنرى مكماهون ، وقد تبادل فيها الطرفان نحو عشر رسائل . ونظراً لأن هذه الرسائل تشتمل على ركن هام من الكفاح العربى ضد الصهيونية فلا بد لنا أن نورد هنا خلاصتها .

كتب الشريف حسين فى ١٤ يوليه سنة ١٩١٥ يبلغ المندوب السامى البريطانى فى مصر تصميم الأمة العربيـة على نيل حريتها واستقلالها ، واستعدادها لأن تساهم فى تحرير الأقطار العربية من العدو المشترك ، على شرط أن تعترف الحكومة البريطانية باستقلال البلاد العربية التى تحد شمالا بخط يبدأ من مرسينا ويمتد إلى أطنة وأرفا ومردين ، وجزيرة ابن عمرو إلى حدود إيران ، وتحد شرقا بالحدود الإيرانية وخليج البصرة ، وجنوبا بالمحيط الهندى فيما عدا عدن ، التى تظل على حالها التى كانت عليها ، وغربا بالبحر الأحمر والبحر المتوسط لغاية مرسينا .

رداً على هذا الكتاب أرسل المندوب السامى البريطانى خطابا فى ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ يقول فيـه إن إقليم أطنه ومرسينا ، والأراضى الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ليست عربيـة صرفة ، ولذلك يجب أن تستبعد من الحدود المذكورة ، أما فيما عداها فإن الحكومة البريطانية تقبل أن تكون الحدود كما وضعها الشريف حسين ، وهى مستعدة لتأييد استقلال العرب داخل تلك الحدود .

وقد قبل الشريف حسين استثناء أطنه ومرسينا ، ولـكنه أصر على أن سواحل سوريا الواقعة غرب دمشق وحمص وحماه وحلب ، كلها أقطار عربيـة صرفة ، وأن من فيها من النصارى لا يقلون فى عروبتهم ووطنيتهم عن المسلمين ، وأنه لذلك يصرّ على المطالبة بأن تظل هذه الأقطارجزءاً لا يتجزأ من الوطن العربى .

وقد حاول المندوب البريطانى بعـد ذلك أن يشرح للشريف حسين أن موضوع تلك الجهات أمر لا تملك بريطانيا أن تبت فيه وحدها ، لما لفرنسا فيه من مصالح ، لابد لبريطانيا من مراعاتها حرصا على بقاء الوحدة بين الدولتين فى كفاحهما المشترك ، غير أن الشريف أصرّ على موقفه ، وقال إنه يحتفظ بحق العرب فى تلك الجهات بعد أن يتم النصر للحلفاء .

لهذه الرسائل شأن كبير فى مشكلة فلسطين ، فقد حاولت بريطانيا أن تفسر نصوصها بأن الأقطار الواقعة غربى دمشق تشمل فلسطين ، فكان دفاعها فى هذه النقطة بادى الضعف لأن هـذه الرسائل لم تشر بكلمة واحدة إلى فلسطين أو إلى الصهيونيين . ولم يجئ فيها إلا ذكر الجهات التى تزعم فرنسا أنها تهمها ، ولا يستطيع إنسان عاقل أن يزعم أن مدينـة القدس أو نابلس أو طبرية واقعة إلى الغرب من دمشق .

لم يكن وعد بلفورقد صدر بعد ، أو لاحت طلائعه فى الأفق ، ولذلك لا نستطيع أن نلوم الشريف حسين أو مستشاريه ، لأنهم لم يصروا على بيان أكثر جلاء ووضوحا . وعند صدور تصريح بلفور حاول الإنجليز جهدهم أن يخفوه عن العرب ، وأن يهونوا من أمره ، طبقاً للسياسة الانتهازية التى تجرى عليها إنجلترة فى أكثر المناسبات .

وقبل أن نوجه نقداً للساسة العرب فى هذا الشأن يجدر بنا أن نذكر الأمور الآتية :

أولا : كانت الحركة الوطنية العربية فى حالة تحفز وتوثب ، وتريد أن تعمـل لتحرير البلاد العربية لـكى يكون لها بعض الفضل فى ذلك التحرير .

ثانيا : أن خبرة العرب بالسياسـة الغربية وما اشتملت عليه من مراوغة كانت قليلة ، وتجاربهم مع الإنجليز محدودة .

ثالثاً : كانت المشكلة الوحيدة فى نظرهم هى مطامع فرنسا فى لبنان ؛ وكانوا يرجحون أن التحالف الذى بين إنجلترة وفرنسا قليل الخطر .

رابعاً : لعل أهم عنصر فى الموقف أن العرب كانوا حسنى الظن بالإنجليز إلى أبعد حد . ولعلهم اغتروا بمن شاهدوهم حولهم من الذين يعطفون على قضية العرب من أمثال لورنس .

وهكذا مضى العرب فى ثورتهم ، وتم للحلفاء النصر بمؤازرة العرب . ثم جاء أوان السلم

واستقرار الأمور ، ورد الحقوق المغصوبة إلى أصحابها ، فإذا العرب يفاجأون بالانتداب البريطانى على العراق ، والفرنسى على سوريا ولبنان ، والصهيونية فى فلسطين .

٢ — مكافحة الاستعمار

ننتقل إلى المرحلة الثانية من الكفاح العربى ، فى فترة تمزقت فيها وحدة البلاد العربية ، وأصبح لكل قطر عربى مشكلته الخاصة فى مقاومة الاستعمار البريطانى أو الفرنسى . فانصرفت جهود أبنائه إلى مكافحة قوى الظلم والبغى فى قطرهم الخاص ، وقد اعترفت معاهدة فرساى وملحقاتها للأقطار المتخلفة عن انحلال الدولة العثمانية بحقها فى الاستقلال ؛ ولكنها فرضت عليها انتدابات لا تختلف فى حقيقتها ومظهرها عن أقبح أنواع الاستعمار . فثار أبناء كل قطر لمكافحة العدوان الذى نزل بهم . واستنفد هذا الجهاد الشطر الأكبر من جهودهم .

فى هذه الفترة لم يكن بدٌّ من أن يقع عبء مكافحة الصهيونية على عاتق أبناء فلسطين أنفسهم ، وعلى الرغم من أن جميع الأقطار العربية كانت دائماً تعطف على قضية فلسطين ، وأن كثيراً من قادة الرأى فى كل قطر عربى كانوا يشدون أزرها جهد طاقتهم ، فإن الظروف التى تقدم وصفها جعلت من المستحيل أن يقوم العالم العربى بجهود منظم مشترك لمكافحة الصهيونية ، فى البضعة عشر عاماً التى أعقبت الحرب العالمية الأولى .

فالفضل الأول والأكبر فى مكافحة الصهيونية فى العهود الأولى من الانتداب ، راجع إلى أهل فلسطين أنفسهم . وقد أدوا بكفاحهم هذا إلى العروبة كلها — لا إلى فلسطين وحدها — أجل الخدمات ، ولا يستطيع المرء أن يملك نفسه من الإعجاب البالغ بالشعب الفلسطينى العربى ، الذى استطاع وحده فى هذه السنين الطوال — دون أن يدركه السأم أو الكلال — أن يواجه قوات الشر والظلم الاستعمارى الذى يمثله البريطانيون ، وعصابات الإجرام والخيانة التى تتمثل فى الصهيونيين فى فلسطين ، ومن ورائهم عصابات من الأنصار فى أوربا وأمريكا .

كانت وثيقة الانتداب التى وضعها الإنجليز بتحريض الصهيونيين ، ووافقت عليها بعد ذلك هيئة الأمم المتحدة ، وثيقة بادية التحيز والجور ، لا تكاد بنودها الثمانية والعشرون أن تشتمل على شىء سوى حقوق الصهيونيين ورفاهيتهم وهجرتهم ، وتحقيق مآربهم وأوطارهم . ولم يجئ فيها ذكر للعرب ، ولم يرد فيها لفظ « عربى » إلا عند الإشارة إلى أن اللغة العربية إحدى اللغات الثلاث الرسمية . أما السكان العرب فلم يذكروا فيها مرة واحدة ، بل اكتفى

فى بعض البنود بمجرد الإشارة إلى « السكان الآخرين » لفلسطين . فكان من الواضح أن الانتداب لم ينشأ إلا لغرض واحد وهو إقامة الوطن الصهيونى ، وإحاطته بجميع ضروب الرعاية والعناية ، التى تكفل له التقدم والفلاح والسيطرة على البلاد وسكانها .

لو أن عرب فلسطين قابلوا هذه الحال بالرضى والسكون ، ولم ينهضوا لكفاح الصهيونية والاستعمار ، لما كان هنالك شك فى انتصار قوى البغى والعدوان انتصاراً كاملا سريعاً . ولكن عرب فلسطين لم يخضعوا ولم يستكينوا ، بل نهضوا منذ بداية الانتداب إلى الثورة على الضيم الذى يراد بهم ، واضطروا حكومة الانتداب والصهيونيين لأن يحسبوا لمقاومة العرب حسابها . ومن مظاهر كفاح العرب الفلسطينيين ما يأتى :

١ — الاتفاق التام بين المسلمين والنصارى . بحيث مُحيت الاختلافات الطائفية بين عرب فلسطين تماماً ، وأصبحت فلسطين فى هذا الأمر قدوة للأقطار العربية ، بل للعالم بأسره .

٢ — نهضة جديدة تتناول جميع النواحى الأدبية والمادية . فأقبل سكان فلسطين على إنشاء المعاهد العربية الخالصة ، وإنهاض الحياة العقلية والثقافية ، والإلحاح على دولة الانتداب بأن تنشأ المدارس العربية ، وأخذ فوج متزايد من أبناء فلسطين ينزح إلى لبنان والعراق والشام ومصر ، فى طلب العلم .

ونهضت الصحافة العربية فى فلسطين نهضة ملحوظة ، بحيث أصبح للعرب فى فلسطين منبر يسمع منه العالم العربى صوت أبناء القطر الشقيق ، فيشاطرهم آلامهم وآمالهم .

وصاحب هذا كله — فى الناحية المادية — نهضة اقتصادية عظيمة الخطر . فعلى الرغم من أن العرب لم تأتهم تلك الإمدادات المالية التى كانت ترد إلى الصهيونيين من جميع أنحاء العالم ، أمكنهم أن يخطوا خطوات واسعة سديدة فى الزراعة والتجارة والصناعة .

٣ — التنظيم السياسى . على الرغم مما نسمعه من أن عرب فلسطين قد انقسموا فرقاً وأحزاباً ، فإن مثل هذه الانقسامات الحزبية أمر لا مفر منه ؛ وهى من الظاهرات التى تلازم الوعى السياسى فى كل قطر من الأقطار . وحسبنا أن جميع تلك الأحزاب ليس لها سوى برنامج أساسى واحد ، لا يكاد يختلف ، وأنها كلها تسعى إلى تحقيق هدف واحد ، وهو التخلص من الخطر الصهيونى والحكم الاستعمارى . ومهما قيل فى نقد هذه الأحزاب ، فإنها كانت وسيلة لتنظيم الحياة السياسية ، وإيجاد أداة وقيادة للحركة القومية . وفى إبريل سنة ١٩٣٦ أمكن لهذه الأحزاب أن تتحد وأن تؤلف « اللجنة العربية العليا » ، التى تولت قيادة عرب فلسطين فترة من الزمن ، وقد أعيد تأليفها فى الأعوام الأخيرة ، ولا تزال إلى

اليوم تؤدى لقضية فلسطين خدمات جليلة . ليس أقلها خطرا أنها هى الأداة التى أمكن بواسطتها إيجاد اتصال وثيق بين فلسطين وبين جامعة الدول العربية .

ويدخل فى هذه المنظمات — وإن لم يكن ذا صبغة سياسية صرفة — إنشاء نقابة للعمال العرب ، أمكنها أن تعمل لرفع مستوى العمال ولحمايتهم من جور أحزاب العمال الصهيونية ، بل كان لها فوق ذلك نشاط سياسى ملحوظ .

٤ — الثورة على سلطات الانتـداب . لعل أكبر مظهر للنشاط السياسى للشعب الفلسطينى العربى هو تلك الثورات المتتالية التى قام بها منذ بداية الانتداب إلى سنة ١٩٣٩ . ومن الصعب أن نفصل القول هنا فى هذه الثورات ، وما كان لها من الآثار . وليس من الإسراف فى شىء أن نقول إن عرب فلسطين فى العشرين عاما التى تلت الحرب العالميـة ، رأوا أن آمالهم تحطمت على صخرة الشهوات الاستعمارية ، كانوا فى حالة ثورة دائمة ، وإن كانت ثورتهم قد اتخذت صورة أظهر وأكبر فى بعض الأوقات ، وهذه الثورات لم تهدأ ولم تضعف على مضى الزمن ، بل ازدادت حدة وشدة على مر السنين ، حتى صارت فى سنة ١٩٣٦ ثورة عسكرية منسقة ، بقيادة موحدة ، وقوات منظمة .

والعالم الغربى لا يفهم الحق ما لم تؤيده مظاهر القوة . ولذلك اكتسب الشعب الفلسطينى العربى احترام الإنجليز وتقديرهم رغم أنفهم . وأمكن فى الوقت نفسه للعالم العربى أن يستيقظ وأن ينتبه لما يفرضه واجب العروبة من مساعدة فلسطين ومؤازرة سكانها .

لم تكن هـذه الثورات فى أى وقت من الأوقات تنتهى بانتصارات عسكرية للعرب ، ولـكنها من غير شك كانت تنتهى فى كل مرة بانتصارات سياسية ظاهرة لقضية العرب . فقد كانت حكومة الانتداب بعد كل ثورة ترسل اللجنة إثر اللجنة ، والبعثة بعد البعثة . لـكى « تحقق » فى أسباب « الاضطراب » . فكانت هذه اللجان جميعا ومن غير استثناء ، تظهر فى تقريرها ما للعرب من حقوق مهضومة ، وما يتعرضون له من الظلم بسبب نظام الانتداب الصهيونى . وعلى الرغم من أن حكومة بريطانيا لم تستطع — لوقوعها تحت الضغط الصهيونى — أن تنفذ ما أوصت به تلك اللجان ، فإن هـذه التقارير كانت نصراً سياسياً كبيراً للعرب ، ومقياسا واضحا لنجاحهم فى كفاحهم السياسى ضد الصهيونية .

٣ — تأييد الأقطار العربية

تمثل الثورة العربية فى فلسطين عام ١٩٣٦ بداية مرحلة جديدة فى مكافحة الصهيونية ،

لأن بعض الدول العربية أخذت تساهم بنصيب متزايد من العناية والاهتمام بقضية فلسطين . لم يكن فى وسع سوريا ولبنان ، بعد ، أن تشتركا رسمياً فى هذا الجهاد الجديد ، لأن الانتداب الفرنسى كان لا يزال جاثما على القطرين . ولكن أقطاراً عربية أخرى تتمتع بنصيب وافر من الاستقلال ، فى ظل حكومات عربية صميمة ، استطاعت أن تدخل ميدان الدفاع عن قضية فلسطين ، وأن ترسل الإرشادات اللازمة لمندوبيها السياسيين فى بريطانيا ليبذلوا جهدهم فى لندن أو غيرها من العواصم لنصرة تلك القضية ؛ وليدافعوا عنها فى عصبة الأمم نفسها .

ورأت حكومة إنجلترا أنها قد مضت فى مناصرة الصهيونية إلى أبعد مدى ، وأن صوت العرب فى فلسطين أصبح يعبر عن مشاعر العالم العربى كله ، وأن الانتداب بشروطه القديمة أصبح نظاما مستحيل التنفيذ ، ولذلك رأت أن تنشىء عهدا جديداً ، ونظاما جديداً ، يقبله العرب واليهود إذا أمكن ، ويشترك فى وضعه الجانب العربى واليهودى من أهل فلسطين ، ومندوبون عن دولة مصر ، والعراق ، وبلاد العرب السعودية ، وشرق الأردن ، واليمن .

ودعت الحكومة البريطانية هذه الدول إلى إرسال مندوبيها إلى لندن . فكان ذلك أول اعتراف صريح من حكومة الانتداب بأن مسألة فلسطين هى قضية العالم العربى كله . وقد أرسلت الدول العربية مندوبيها لحضور هذا المؤتمر فى شهر فبراير ومارس سنة ١٩٣٩ ؛ وكان رئيس وفد مصر سمو الأمير عبد المنعم ، ومعه على ماهر باشا ، ووزير مصر المفوض بلندن ، ووزير مصر بالعراق (عزام باشا) ؛ وكان يمثل العراق نورى السعيد باشا ، يعاونه وزير العراق فى لندن ، وقام الأمير فيصل آل سعود بتمثيل دولته ، يعاونه وزير المملكة السعودية المفوض فى لندن .

وهذا التمثيل القوى للبلاد العربية يرينا مبلغ اهتمام الأقطار العربية بقضية فلسطين ، وهذه الظاهرة لم تزد على مر السنين إلا توكيداً ووضوحاً ؛ وفى مؤتمر لندن أمكن لحكومة إنجلترا للمرة الأولى أن تقابل العرب وجهاً لوجه فى لندن ، وأن تصغى إلى آرائهم ، وأن تضع مقترحاتهم موضع التقدير .

ولعل حكومة إنجلترا كانت تدرك دائما أن ما يتعرض له عرب فلسطين من الظلم كان له أثره السيء فى العالم الإسلامى عامة ، وفى العالم العربى بوجه خاص . ولكنها مضت فى سياستها الصهيونية ولم تحاول أن تخفف من حدتها ، لأن تدخل الدول العربية لم يتخذ صورة قوية قبل سنة ١٩٣٦ ، ولأن ضغط الصهيونيين على حكومة إنجلترا وبرلمانها كان أشد تأثيراً فى سياستها ، وكان كثير من أولى الأمر فيها ممن استطاع الصهيونيون استمالتهم أو شراء ضمائرهم .

وقد جعلنا نقطة التحول فى سياسة انجلترة ثورة العرب فى فلسطين سنة ١٩٣٦ ؛ ومن الممكن تلخيص الأسباب التى حملت انجلترة على محاولة تعديل سياستها الفلسطينية فى الأمور الآتية :

١ — أن ثورة سنة ١٩٣٦ لم تكن ثورة على الصهيونيين وحدهم ، بل على حكومة الانتداب أيضا ، وقد اضطرت انجلترة إلى جلب وحدات من الجيش من مصر وقبرص ومالطة ، وإلى بذل مجهود عسكرى منظم .

٢ — أصبح العالم العربى شديد الاهتمام بشئون فلسطين ، يرى قضيتها قضيته ، سواء فى هذا شعوب العالم العربى أو حكوماته ، وقد رأت انجلترة نفسها أن تستعين برؤساء الدول فى مختلف البلاد العربية لكى يبذلوا النصح والإرشاد لعرب فلسطين ، حتى يكفوا عن أعمال العنف ، فكانت هذه الدعوة اعترافاً صريحا بأن مسألة فلسطين ليست قاصرة على عرب فلسطين .

٣ — الأمر الثالث — ولعله أهم العوامل عند الإنجليز — التطور السيء للحالة الدولية فقد قويت شوكة المحور ، واعتدت إيطاليا على استقلال الحبشة ، فأضعفت بذلك مركز انجلترة فى الشرق الأوسط . وأخذت الدعاية النازية تفضح السياسة البريطانية فى فلسطين . واكفهر جو السياسة الدولية ، بحيث بات ينذر بخطر محقق ، حتى أصبحت انجلترة تدرك أنها لن تكسب شيئا بمجابهة العرب وممالأة الصهيونيين إلى أقصى حد .

٤ — صار للعرب فى ذلك الوقت صوت مسموع فى عصبة الأمم وبات فى وسعهم أن يستخدموا هذا المنبر العالمى للدفاع عن عروبة فلسطين . وفيما مضى كانت لا تصل إلى العصبة سوى الشكاوى التى ترسلها اللجنة العربية العليا ، وبعض الأفراد والهيئات فى فلسطين . أما الآن فقد أصبح بعض الدول العربية أعضاء فى عصبة الأمم يدافعون عن قضية فلسطين من داخل الهيئة لا من الخارج .

وهكذا تحولت قضية فلسطين — بصورة رسمية — بحيث أصبحت قضية العالم العربى . ولابد هنا أن نشير إلى ناحية أخرى لاهتمام الدول العربية بأمر فلسطين . تلك أن قادة الدول العربية أصبحوا عنصرا هاما فى توحيد كلمة عرب فلسطين ، وإزالة ما بين الأحزاب الفلسطينية من أسباب الخلاف . وقد أوفدت الدول العربية غير مرة بعض مندوبيها لكى يسعى بين تلك الأحزاب ، ويدعوها إلى الاتحاد والائتلاف . وهذه الجهود كانت تنال دائما حظا كبيراً من التوفيق ، وستكون دائما عاملا هاما فى توحيد كلمة فلسطين .

وبعد أن شرد كثير من قادة الرأى فى فلسطين وسجنوا أو نفوا إلى بلاد بعيدة ، ولم يبق بها منهم من تلتف حوله جماعات الشعب الفلسطيني ، كانت قضية فلسطين أمانة فى عنق الدول العربية ،وقد أدت هذه الدول الأمانة فى قوة وإخلاص .

***

لم يسفر مؤتمر لندن عن اتفاق يرضاه العرب واليهود الصهيونيون . فأصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض المعروف فى شهر مايو سنة ١٩٣٩ ، وقد رسم هذا الكتاب السياسة التى آلت حكومة انجلترة على نفسها أن تتبعها فى فلسطين ، وتشتمل هذه السياسة على ثلاثة عناصر رئيسية :

الأول : تحديد مهاجرة اليهود ، بحيث لا يدخل منهم فلسطين بعد ذلك التاريخ سوى ٧٥٫٠٠٠ مهاجر ، موزعين على خمس سنوات تنتهى فى ٣١ مارس سنة ١٩٤٢ .

الثانى : منع بيع الأراضى لليهود إلى جهات محدودة حول القدس وتل أبيب وحيفا وبعض جهات أخرى .

ثالثاً : التدرج فى نظام الحكم ، بحيث تنشأ فى فلسطين حكومة موحدة فى مدى عشرة أعوام

لا شك فى أن هذه الوثيقة تمثل تراجعاً كبيراً فى السياسة البريطانية ، لأنها للمرة الأولى استطاعت أن تعلن أن اليهود لن يسمح لهم بأن يكونوا أكثر من ثلث سكان فلسطين ، وأن معظم الأراضى يجب أن يظل فى أيدى ملاكها من المزارعين العرب .

ومما لا شك فيه أن هذه السياسة تعد نصراً مؤكداً للعرب ، وثمرة من ثمرات كفاحهم الطويل ، ولو أنها لم تحقق ما كانوا يطالبون به .

وعلى أثر مؤتمر لندن ، عقد مؤتمر عربى فى القاهرة ، وعلى الرغم من أنه لم يكن أول مؤتمر عربى بفلسطين ، فإنه امتاز باشتماله على ممثلين رسميين لحكومات الدول العربية . وقد أسفر هذا المؤتمر عن طائفة من المقترحات العملية لحل قضية فلسطين على أساس عادل . ولكن حكومة بريطانيا فضلت كتابها الأبيض والسياسة التى اشتمل عليها ، وقد أثبتت الحوادث أن العرب كانوا أبعد نظراً وأصدق سياسة من البريطانيين . وأهم نواحى الاختلاف بين السياستين أن مشروع القاهرة يقرر الشروع فورا فى إنشاء حكومة وطنية ديمقراطية فى فلسطين ، وأن يقوم بين هذه الحكومة وبريطانيا تحالف مؤيد بمعاهدة بين الطرفين . وبديهى أن انجلترة لو قبلت هذا الحل فى ذلك الوقت لما جرت على نفسها كل تلك الويلات

والكوارث ، التى انتهت بخروجها من فلسطين فى صورة لا نستطيع أن نصفها بأقل من أن الصهيونيين — وهم صنائع الإنجليز — كانوا السبب المباشر فى إخراجها منها .

***

فى أثناء الحرب العالمية ساد نوع من الهدوء فى فلسطين ، لأن العرب كانوا يراقبون باهتمام تنفيذ بريطانيا للسياسة التى نظمها الكتاب الأبيض ، ولأن العرب لم يكونوا يعطفون على دول المحور ، وأشفقوا من أن يخلقوا لدولة الانتداب مشاكل تعجزها عن متابعة الأعمال الحربية . وهذه السياسة نرى أثرها واضحاً فى قلة تأييد العرب لثورة رشيد الكيلانى .

غير أن الصهيونيين لم يهدأوا ولم يستكينوا ، وانغمسوا فى أعمال الشغب والعنف فى أثناء الحرب ، وكان نشاطهم الإجرامى يزداد ازدياداً مطرداً كلما قربت الحرب من نهايتها . هذا على الرغم من أن بريطانيا كانت تحارب النازيين ، وهم العدو الأكبر لليهود . أما نشاطهم السياسى ، فقد اتجه بوجه خاص إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، حيث أمكنهم أن يكتسبوا عطف الرئيس روزفلت ، وأن يحرضوا مجلس الشيوخ ومجلس النواب فى واشنطن على النظر فى اقتراحات خطيرة تؤيد الصهيونيين أشد التأييد .

قدمت هذه الاقتراحات فى عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ . وفى المرة الثانية كان المعروض على الكونجرس الأمريكى أن يوافق على فتح أبواب فلسطين للهجرة اليهودية من غير قيد ولا شرط ، وأن تتحول فلسطين بعد الحرب إلى دولة يهودية حرة ، وأن تستخدم الولايات المتحدة نفوذها فى تحقيق هذا الهدف .

لم يكد هذا المشروع أن يثار فى البرلمان الأمريكى ، حتى بادرت الدول العربية جميعاً — ومنها الآن سوريا ولبنان — بالاحتجاج الشديد لدى الحكومة الأمريكية ، وكان لهذه الاحتجاجات القوية أثرها . حتى اضطرت الجنرال مارشال رئيس أركان حرب القوات الأمريكية إلى الضغط على البرلمان الأمريكى بأن يعدل عن هذه المقترحات .

وفى أوائل عام ١٩٤٥ كان الرئيس روزفلت عائداً من مؤتمر «يلطا» ماراً بالبحر الأبيض المتوسط ، وقد رست به سفينته بعض الوقت فى بحيرة التمساح بقناة السويس . وزاره هناك الملك عبد العزيز آل سعود ودار بينهما حديث ، احتلت فيه قضية فلسطين المكان الأول . وحسبنا أن نذكر هنا ما قاله الرئيس روزفلت نفسه فى هذا الصدد ، فى رسالته عن رحلته التى أرسلها إلى الكونجرس ، والتى قال فيها إن هذه اللحظات التى قضاها مع الملك عبد العزيز قد علمته عن مشكلة فلسطين أكثر مما كان يعرف فى مدى سنوات عديدة ،

ومنذ عاد الرئيس روزفلت إلى أمريكا ظهر تحول واضح فى موقفه من الصهيونيين ، فلم يعد يفتح لهم باب البيت الأبيض ، أو يستمع إلى شكاياتهم ومطالبهم التى لا تنتهى .

وبعد عودة الرئيس إلى واشنطن تلقى رسالة طويلة من الملك عبد العزيز ، والراجح أنه كان ينتظر مثل تلك الرسالة . وقد شرح فيها الملك العربى قضية فلسطين شرحا وافياً . وضمنها كل حجة دامغة تمزق دعاوى الصهيونيين شر ممزق . ولم يلبث أن جاء الرد من الرئيس روزفلت ، يعلن أنه لن يحدث أى تحول فى حالة فلسطين السياسية ، دون الرجوع إلى رأى العرب واليهود ، وأن حكومة الولايات المتحدة لن تبدأ من تلقاء نفسها بالمطالبة بإحداث أى تغيير فى فلسطين .

وقد وجه سائر ملوك ورؤساء الدول العربية رسائل فى نفس المعنى والتاريخ إلى رئيس الولايات المتحدة ، وتلقت منه ردوداً مشابهة . ولاشك أن وفاة الرئيس بعد ذلك بقليل كانت خسارة كبيرة للعالم العربى ولقضية فلسطين ، بعد أن جاهد قادة العرب جهادا صادقا لإفهامه قضية فلسطين على حقيقتها ، ومكنوه من أن يدرك تضليل الصهيونيين وبطلان دعايتهم .

وقد حاول الرئيس ترومان بعد ذلك أن ينكر أن مثل هذه الرسائل قد تبودلت ، وسولت له نفسه أن يزعم أنه يجهل وجود أمثال هذه المكاتبات . ولكن الدول العربية اضطرته إلى أن يعدل عن هذا الموقف الغريب ، وأن يعترف بوجود هذه الرسائل . ولم يكن ما يقبله العقل أن يجهل نائب الرئيس عملا خطيرا كهذا من أعمال رئيسه ، وكان بوسعه لو شاء أن يستوثق من الأمر قبل أن يندفع فى زعمه الباطل ، وأن يتخذ موقفا لم يكن له أن يرجع عنه ، وليس فى مثل هذا الحادث ما يحفظ لرئيس كرامته أو يشجع على الثقة به .

٤ — قيام جامعة الدول العربية

لا شك أن قيام التعاون السياسى والاقتصادى والثقافى المنظم بين الأقطار العربية ، الذى يتمثل فى جامعة الدول العربية ، كان ولا يزال أكبر أداة لمكافحة الصهيونية وأنصارها . ومن الممكن أن نقول إن نظام جامعة الدول العربية قد جاء بعد أن وجد ذلك التعاون فعلا ، وبعد أن كانت تلك الجامعة قائمة بالفعل ، وإن لم تكن قد أنشئت رسميا بعد ، فلم يكن هذا الإنشاء الرسمى سوى اعتراف بالأمر الواقع . بدأ هذا التعاون بصورة قوية منذ سنة ١٩٣٦ ثم أخذ ينمو نموا مطردا . وفى أثناء الحرب كان العرب فى جميع محافلهم وأنديتهم لا يتحدثون

فى شىء أكثر من حديثهم عن وحدة البلاد العربية ، والصورة التى يجب أن تتخذها تلك الوحدة . وبدأت المداولات فى أثناء عامى ١٩٤٣ و ١٩٤٤ ، وانتهت بوضع بروتوكول الإسكندرية ، موقعاً عليـه من المندوبين الرسميين لخمس دول عربية ، وهى : لبنان والعراق وسوريا وشرق الأردن ومصر ، فى ٧ أكتوبر سنة ١٩٤٤ . ثم وضع الميثاق فى ٢٢ مارس سنة ١٩٤٥ ، ووافقت عليه الدول العربية السابقة الذكر ومعها المملكة العربية السعودية ، كما انضمت إليها بعد قليل مملكة اليمن .

وفى كل من البروتوكول والميثاق أبدت الدول العربية عنايتها واهتمامها بقضية فلسطين . فجاء فى البروتوكول قرار خاص بفلسطين ، ينص على أن فلسطين ركن مهم من أركان البلاد العربية ، وأن حقوق العرب لا يمكن المساس بها من غير إضرار بالسلم والاستقرار فى العالم العربى ، ويعلن تأييد الدول العربيـة لعرب فلسطين بالعمل على تحقيق أمانيهم المشروعة فى قضيتهم العادلة .

أما الميثاق فقد عنى عناية خاصة بالوضع السياسى لفلسطين ، والوسيلة التى يجب أن تتبع لضمان مساهمة سكانها العرب فى أعمال الجامعة العربيـة . ولهذا الغرض اشتمل الميثاق على ملحق خاص بفلسطين ؛ ينص على أن استقلالها الدولى من الناحية الشرعية أمر لا شك فيه . وأنه إذا كانت المظاهر الخارجية لذلك الاستقلال ظلت محجوبة لأسباب قاهرة ، فلا ينبغى أن يكون ذلك حائلا دون اشتراكها فى أعمال مجلس الجامعة . ولذلك رأت الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية ، أنه نظرا لظروف فلسطين الخاصة ، وإلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا ، يتولى مجلس الجامعة اختيار مندوب عربى من فلسطين للاشتراك فى أعماله .

كان تضمين الميثاق هذا الملحق الخاص بفلسطين أمراً على جانب كبير من الأهمية ، لأنه مكن عرب فلسطين من الاشتراك الرسمى فى مداولات الجامعة ولجانها ومؤتمراتها من جهة ، ومن جهة أخرى ساعد على توحيد كلمة الفلسطينيين وتنسيق نشاطهم وجهودهم بحيث تتمشى مع الإجراءات والسياسة التى يرسمها مجلس الجامعة .

ومنذ تمت الموافقة على الميثاق مضت جامعة الدول العربية فى جهودها لنصرة فلسطين ، وازدادت هذه الجهود أضعافاً مضاعفة . ومن المستحيل أن نحيط بجميع هذه الجهود فى هذا المقام المحدود . وعلى الأخص أن معظمها لا يزال ماثلا فى أذهاننا وأمام أعيننا . وحسبنا هنا أن نشير إلى بعض النواحى الهامة لكفاح جامعة الدول العربية . من أجل فلسطين ؛ ولعل أهمها توحيد وتنسيق العمل فى المؤتمرات الدولية عامة ، وفى اجتماعات هيئة الأمم المتحدة بوجه خاص .

كان لوجود جامعة الدول العربية فضل كبير فى اعتراف الأمم المتحدة لهذه الدول بأنها مجموعة متضامنة تؤلف وحدة إقليمية ذات شأن . وقد ضمن هذا أن يكون للجامعة عضو يمثلها فى مجلس الأمن . وفى سائر الهيئات واللجان التى يشتمل عليها نظام الأمم المتحدة .

وكان لهذا الأمر أعظم الأثر فى الدفاع عن قضية فلسطين ، وقد رأينا ذلك فى وضوح ، ولا نزال نشاهده حتى اليوم ، فى الدفاع المجيد الذى يقوم به مندوب سوريا فى مجلس الأمن عن شئون فلسطين . والحقيقة أن ممثل سوريا فى مجلس الأمن هو ممثل لجامعة الدول العربية كلها .

واشتركت الدول العربية فى مؤتمرين فى لندن ، فى أواخر عام ١٩٤٦ وأوائل عام ١٩٤٧ وبفضل جهودها الموفقة أمكن مكافحة النفوذ الصهيونى الذى كان يسيطر على حزب العمال . وأخذت حكومة العمال تنظر إلى قضية فلسطين نظرة أقرب إلى الحقيقة . ومن أهم الثمرات التى نشأت من اجتماع لندن ذلك المشروع العربى لحل قضية فلسطين ، الذى يمتاز بالهدوء والاعتدال ، ولا يستطيع منصف أن ينكر أنه أفضل حل لتلك القضية ، على كثرة ما عرض فيها من الحلول ، وما أثير حولها من الارجاف .

وقد أمكن لجامعة الدول العربية أن تعنى بالدعاية لقضية فلسطين ومساعدة المكتب العربى فى انجلتره وأمريكا على النهوض بأعماله فى هذا الميدان الهام ؛ كما أنها استطاعت أن تنظم الوسائل التى تتبع لمقاطعة الصناعات والسلع الصهيونية ، فأنزلت بالاقتصاد الصهيونى أفدح الخسائر .

وبديهى أنه لولا النشاط السياسى الذى اضطلعت به جامعة الدول العربية ، لما تيسر لها بذل ذلك المجهود الحربى المنظم ، لتحرير فلسطين والقضاء على العصابات الإرهابية فيها . وهو من غير شك أكبر مظهر للتعاون العربى ، بل لعله من أهم مظاهر التعاون فى الميدان الدولى كله .

وهكذا نرى أن الكفاح السياسى ضد الصهيونية قد بلغ ذروته بإنشاء جامعة الدول العربية ، وما ترتب عليه من توحيد كلمتها وتنسيق جهودها .

محمد عوض محمد

الكفاح الاقتصادى ضد الصهيونية

للأستاذ برهان راغب الدجانى

حينما بدأت الصهيونية غزوها لفلسطين بعد الحرب العالمية الأولى كان هذا البلد متأخراً من الوجهة الاقتصادية تأخراً كبيراً . فالصناعة كانت فى بدء نشوئها ، وكانت طرقها قديمة غيرمجدية . والمعرفة الفنية اللازمة لصناعة حديثة كانت معدومة تقريباً ، كما أن نظام الحكم لم يكن يشجع على نشوء الصناعة أو على التطور الاقتصادى بشكل عام . ولم يكن حال الزراعة أفضل من حال الصناعة ، فقد كانت هى الأخرى متأخرة تستعمل الطرق الساذجة القديمة . وكان يمنع تقدم الزراعة نظام الأعشار والضرائب ، ونظام توزيع الأراضى الذى جعل معظمها فى أيدى قلة من الناس يعيش معظمهم خارج فلسطين . وقد سبب نظام توزيع الأراضى فيما بعد كارثة سياسية بالإضافة إلى أضراره الاقتصادية كما سنرى .

وقد كان تفوق الصهيونية الاقتصادى ساحقاً فى بادئ الأمر ، فقد نص الانتداب الفلسطينى على وضع البلاد فى أحوال اقتصادية وسياسية تساعد على إنشاء الوطن القومى اليهودى ، واستغل الصهيونيون هذا النص استغلالا تاماً فأصبح جهاز الحكم أداة طيعة تسهل لهم تحقيق مشاريعهم الاقتصادية المختلفة ، ثم استطاعوا أن يوظفوا فى فلسطين كميات طائلة من الأموال جمعوا معظمها من أثرياء اليهود فى مختلف أنحاء العالم ، وأوجدوا مؤسسات مالية تغذى مشاريعهم الاقتصادية على أساس تجارى ، وأخرى تغذيها على سبيل الهبة والتبرع كلما لاقت الصعوبات . ولم تكن تعوز اليهود المعرفة الفنية ، فقد جاء معظمهم من بلاد صناعية متقدمة فى أوروبا ووضعوا خبرتهم للقيام بمختلف المشاريع .

وقد استطاع اليهود بفضل هذه الأمور إنشاء نظام اقتصادى واسع فى فلسطين ، كلفهم زهاء مائة وخمسة وعشرين مليون جنيه . وقد وظف اليهود حوالى خمسة عشر مليوناً من الجنيهات فى إنشاء عدد كبير من الصناعات المتنوعة ، وأنفقوا ما يقارب عشرة ملايين من الجنيهات على تنمية زراعة الحمضيات ، أما الباقى فوزع بين أنواع الزراعة الأخرى وتكاليف البناء والعمران والمشاريع الإنشائية والتجارية المختلفة .

أما الأهداف التى كان الصهيونيون يرمون إلى تحقيقها بالوسائل الاقتصادية فهى ثلاثة :

١ — دعم الحياة اليهودية فى فلسطين ، وجعل الطائفة اليهودية فيها قادرة على النمو واستقبال المهاجرين اليهود .

٢ — إنشاء صناعة قوية تطغى على الصناعة العربية فى فلسطين والبلاد العربية الأخرى إن أمكن ، حتى يمكن بذلك إضعاف العرب فى فلسطين اقتصادياً وجعلهم فريسة سهلة للعدوان السياسى من جهة ، وتأمين أسواق البلاد العربية للصناعة اليهودية من جهة أخرى .

٣ — إجلاء المزارعين العرب عن أراضيهم وتحويل طبقة الفلاحين العرب فى فلسطين إلى طبقة عمال حتى يسهل إجلاؤهم عن فلسطين بوسائل الضغط الاقتصادى إذا ماتم تأسيس دولة يهودية .

فهل نجح اليهود فى تحقيق أى هدف من هذه الأهداف ؟ أو هل نجح العرب فى مقاومتهم لها ! إن نظرة واحدة إلى الأهداف الصهيونية المتقدمة تظهر لنا بجلاء أنها أهداف سياسية قد جعل الاقتصاد أداة لتحقيقها . ولذلك فإن الصهيونيين لم يتقيدوا فى سبيل تحقيقها بما تتقيد به المشاريع الاقتصادية عادة من مقياس الربح والخسارة ، بل مضوا غير عابئين بالخسائر ، تاركين للمستقبل أمر إعادة النظر فى تلك المشاريع لوضعها على أسس اقتصادية سليمة ، مثلهم فى ذلك كمثل جيش يريد أن يحتل موقعاً هاماً يسهل عملياته فى المستقبل ، فلذلك تراه لا يعبأ بما يصيبه من الخسائر فى أول مراحل المعركة ، ما دام يستطيع بعد احتلاله لذلك الموقع أن يثبت أقدامه ويطبق على عدوه . وقد مكن اليهود من القيام بالمشاريع غير السليمة من الوجهة الاقتصادية أمران : أولهما الحماية الجمركية العالية التى استطاعوا أن يحصلوا عليها من حكومة فلسطين . والثانى : ذلك السيل الجارف من الإعانات التى يدفعها ممولو اليهود فى العالم والتى مكنتهم من تغطية خسائر كثير من المشاريع ومن القيام بغيرها .

فأما الهدف الأول وهو دعم الطائفة اليهودية فى فلسطين وتثبيتها ، فقد نجح اليهود فى تحقيقه إلى حد غير قليل . إلا أن هذا النجاح لم يكن هيناً ، فقد مرت باليهود فترات من الضيق الاقتصادى أظهرت فساد الأسس التى بنى عليها نظامهم الاقتصادى ، وكادت تعصف بهذا النظام من أساسه . وقد كانت أشد هذه الفترات وأقساها الفترة الواقعة بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ أى فترة ثورة العرب فى فلسطين . وقد كان للهبوط العام فى الحياة الاقتصادية اليهودية بفلسطين فى تلك الفترة عدة أسباب ، منها قلة دخول المهاجرين بسبب الثورة العربية مما أدى إلى تناقص حركة البناء ، وكان أربعون فى المائة من الصناعة اليهودية معتمداً على حركة البناء حتى ذلك الوقت . ومن الأسباب أيضاً هبوط أسعار الموالح فى الأسواق

العالمية ، وكانت صناعة المواخ أحد الأركان الأساسية للحياة الاقتصادية اليهودية . وهناك أسباب أخرى بالطبع مثل سوء المواصلات ومقاطعة العرب وسواها . ولكن هذه الفترة انتهت بإعلان الحرب التى قطعت فلسطين وكثيراً من البلاد العربية المجاورة عن مصادر الإنتاج الصناعى فى العالم ، فانتهز اليهود الفرصة وأحيوا كثيراً من الصناعات الميتة وأنشأوا صناعات أخرى ، جنوا منها فى فترة الحرب أرباحاً طائلة .

وبالرغم مما يبدو على الاقتصاد الصهيونى من ثبات فى الوقت الحاضر فإن المرء ليلحظ كثيراً من نقاط الضعف القديمة ، ولا بد لهذه النقاط أن تظهر يوماً وتؤثر فى حياة اليهود تأثيراً كبيراً . فمن مظاهر الضعف ذلك الدين العظيم الذى تغرق به المستعمرات الزراعية حتى لقد قدر دين المستعمرات الزراعية التابعة لمنظمة الهستدروت اليهودية وحدها بأربعة عشر مليون جنيه فى العام الماضى ، وقد أظهرت حسابات المستعمرات اليهودية الزراعية أن أكثر من ثمانين فى المائة منها يتحمل خسارة سنوية غير قليلة . كما أن الصناعة اليهودية قد عادت إلى شىء من الارتباك منذ نهاية الحرب وعودة الاتصال مع البلاد الصناعية الأجنبية وقد زاد فى هذا الارتباك مقاطعة البلاد العربية للبضائع الصهيونية .

وقد بذل اليهود جهوداً عظيمة لتصريف منتوجاتهم فى الأقطار العربية المختلفة وتوسلوا لذلك بوسائل مختلفة . فمن ذلك وسيلة إغراق الأسواق العربية ببضائع صهيونية رخيصة ، حتى لقد كان الكثير من المنتجات الصهيونية يباع فى فلسطين بثمن أغلى من ثمنه فى أسواق الأقطار العربية الأخرى ، وقد استعملت هذه الطريقة قبل الحرب عدة شركات يهودية منها شركة الأسمنت التى استطاعت أن تبيع الأسمنت فى سوريا ولبنان بما يقرب من نصف ثمنه فى فلسطين ومكنها من ذلك الحماية الكبيرة التى فرضتها حكومة فلسطين على الأسمنت المستورد من الخارج . كما توسل اليهود أيضاً بوسائل الدعاية والإعلان لنشر بضائعهم فى مختلف الأسواق العربية ، وساعدهم على ذلك أن كثيراً من كبار التجار والبائعين فى الأسواق العربية كان من اليهود .

إلا أن الجامعة العربية قد وضعت حداً نهائياً لهذه المحاولات بقرارها مقاطعة البضائع الصهيونية كما سنرى .

وأخيراً فقد نجح اليهود أيضاً فى الاستيلاء على قسم كبير من أراضى فلسطين الزراعية وفى إجلاء العرب عنها وفى خلق طبقة كبيرة من الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً .

ويقدر الآن أن ما يملكه اليهود من الأراضى الزراعية فى فلسطين يبلغ حوالى مليونى

دونم ، من مجموع ثمانية ملايين دونم تصلح للزراعة فى فلسطين بأكملها ، أى أن اليهود يملكون ربع الأراضى الزراعية فى فلسطين ، إلا أن الأراضى التى يملكونها تفوق الربع بكثير ، فهى أجود أراضى فلسطين وأخصبها ، وكلها تقع فى السهول الغنية بتربتها ، والتى يتوفر لها الماء ، إما بواسطة الآبار الأرتوازية ، أو الأنهار والجداول ، أو مياه المطر . وتقع أكثر هذه الأراضى فى السهل الساحلى ومرج ابن عامر وسهل الأردن والحولة ، وهى سهول فلسطين الرئيسية . فالواقع إذن أن قيمة الأراضى الزراعية التى يملكها اليهود تزيد على ثلث الأراضى الزراعية فى فلسطين .

وقد كانت مشكلة الأراضى فى فلسطين إحدى المشاكل الحادة التى أدت إلى الاضطراب والثورات ، ولذلك فقد قام لتحقيقها عدة لجان بريطانية ، بعضها تخصص فى التحقيق بها وحدها ، وكان أهم تقرير كتب عنها ذلك التقرير الذى كتبه الخبير البريطانى جون هوب سمسون سنة ١٩٣٠ ، فقد أوضح بجلاء أن الأراضى التى بيد العرب قليلة جداً وتنقص عن حاجتهم الزراعية بكثير ، ودعا إلى تدارك الأمر بسرعة ، وأظهر أن أكثر من تسعة وعشرين بالمئة من الفلاحين العرب لا يملكون أرضاً على الإطلاق ، ولذلك يعتمدون على الأعمال الزراعية الموسمية أو على مساعدة الأقارب ، أو يضطرون إلى النزوح للمدن ، والمدن تكون بدورها مكتظة بالسكان ، فلا يجدون فيها العمل الذى يبحثون عنه . وأوضح التقرير أيضاً أن المزارعين العرب الذين يملكون الأرض لا يملكون منها ما يكفى لسد أودهم ، ولذا تراهم غارقين بالديون ، ولا بد أن يضطر الكثيرون منهم بسبب ديونهم هذه إلى بيع أراضيهم . وأظهرت لجنة أخرى ألفت للتحقيق فى أحوال المزارعين العرب وهى لجنة جونسون كروسبي أن معدل دين المزارع العربى يزيد على دخله لمدة سنة كاملة ، وأن معدل ما يملك من الأرض يبلغ نصف ما يحتاج . وكثيراً ما وجه اللوم إلى عرب فلسطين واعتبروا مسئولين عن بيع أراضيهم ، ومستحقين للنتائج المترتبة على هذا البيع . ولكن درس مشكلة الأراضى فى فلسطين يظهر لنا بجلاء أن عرب فلسطين لم يبيعوا إلا قسما قليلا من الأراضى لا يزيد فى مجموعه على ربع ما يملكه اليهود . فقد كان اليهود يملكون حوالى ٦٥٠ ألف دونم فى فلسطين قبل حرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ ، وقبل أن تظهر الصهيونية بشكلها السافر . ثم اشترى اليهود بعيد تلك الحرب ما يقرب من ٧٠٠ ألف دونم من عدد من الإقطاعيين اللبنانيين والسوريين الذين لم يسكنوا فلسطين فى يوم من الأيام ، وكان أكثرهم من العائلات التى لم تعرف الوطنية ولم يكن يهمها فى الحياة سوى الملاذ والتشبه بالأجانب .

وكان انتشار النظام الإقطاعى ، أى ملكيات الأراضى الكبيرة ، أحد العوامل التى مكنت اليهود من شراء صفقات كبيرة من الأرض بإغراء عدد قليل من الناس . أما الفلاح الفلسطينى فلم يبع من الأرض إلا مساحات قليلة اضطرته إلى بيعها أحواله المالية الصعبة ، وكان البيع يجرى فى الغالب إلى سمسار اشتراه اليهود بأموالهم ويبيعها السمسار بدوره إلى اليهود .

وبما أن حكومة فلسطين مكلفة بتسهيل إنشاء الوطن القومى اليهودى ، فإنها لم تفعل شيئاً يستحق الذكر لحماية الفلاح العربى من الدائن والسمسار أو للمحافظة على أرضه . وقد سنت فى سنة ١٩٤٠ قانونا لتنظيم انتقال الأراضى فى فلسطين قسمت فيها البلاد إلى ثلاث مناطق — منطقة يمنع فيها بيع الأراضى إلا لعربى فلسطينى — وأخرى يسمح فيها البيع لغير العرب الفلسطينيين بشرط موافقة المندوب السامى — وثالثة يسمح فيها لليهود بشراء الأراضى . وقد وجد اليهود طرقا عديدة للاحتيال على هذا القانون ، ولم تفعل الحكومة شيئاً إزاء تلك الطرق ، فاستمر تسرب الأراضى إلى اليهود فى جميع المناطق .

لقد استعرضنا فيما تقدم مدى نجاح اليهود فى تحقيق الأهداف التى جعلوا من الاقتصاد وسيلة لتحقيقها . وهو كما نرى نجاح خطير مخيف ، من العبث التقليل من أهميته والحط من شأنه ، ولنتم نظرتنا الآن إلى الصورة لنرى ما فعله العرب لمكافحة هذه الأهداف عن طريق الاقتصاد .

قلنا فيما تقدم بأن ما لدى العرب من الوسائل المادية والفنية يقل كثيراً عما لدى اليهود ، ولذلك فإن عرب فلسطين وحدهم لا يستطيعون بوسائلهم المادية المحدودة مقاومة تيار قوى جارف كهذا . ومع ذلك فإنهم لم يقفوا مكتوفى الأيدى وحاولوا ، جهدهم ، العمل بالقليل الذى لديهم .

وكان واجب العرب الأول بالطبع أن يقووا جهازهم الاقتصادى حتى يستطيع الثبات أمام الجهاز اليهودى ، وحتى يساعدهم على الصمود السياسى . ولئن كانت لدى اليهود الميزات المتقدمة فإن لدى العرب ميزة على الأقل ، وهى أن أجور العمال عندهم أقل بكثير مما هى عند اليهود ، وهذا يجعل تكاليف الإنتاج عندهم أقل . وقد استطاع العرب أيضاً توسيع صناعتهم ، فبعد أن كان رأسمالها سنة ١٩١٨ لا يتجاوز مليون جنيه أصبح الآن يقارب خمسة ملايين أى أن الصناعة العربية تبلغ ثلث الصناعة اليهودية ، كما استطاع العرب أيضاً توسيع زراعة الموالح ، وهم الآن يملكون ما يقرب من ٥٥ فى المائة من موالح فلسطين ، ويبلغ مجموع ما وظفوه فى تلك الزراعة عشرة ملايين جنيه . إلا أن الموالح قد تأثرت كثيراً بسبب عدم تصديرها طول مدة

الحرب ، ولم يصدر جميع ما أنتجته فلسطين من الموالح منذ سنة ١٩٣٩ إلا فى هـذا الموسم (١٩٤٧ — ٤٨) . وقد حلت بمزارعى الموالح خسائر كثيرة مدة الحرب ، ولئن صمدت هذه الزراعة ، ولم تزل تماماً فى فلسطين ، فـكثير من الفضل يعود إلى القروض التى دفعتها حكومة فلسطين لمزارعى المواالح خلال مدة الحرب . ولعله يصح القول أنه لو لم يكن لليهود نصف بيارات البرتقال فى فلسطين لما دفعت الحـكومة شيئاً من القروض لمساعدة هذه الزراعة .

إلا أن الجهاز الاقتصادى العربى فى فلسطين يحتاج إلى دعم قوى من دول الجامعة العربية ، وإلى مساهمة هذه الدول فى إنشاء المشاريع الاقتصادية لدى عرب فلسطين ، فمقاومة الاقتصاد اليهودى السلبية بمقاطعة البضائع الصهيونية لا تـكفى ، بل يجب دعم هـذا المجهود السلبى بمجهود إيجابى . وهذا يقودنا إلى نقطة أخرى ، وهى النقطة الوحيدة التى حالف العرب فيها نجاح تام فى كفاحهم الاقتصادى ضد الصهيونية ، وهى مقاطعة البضائع الصهيونية . فقد قررت الجامعة العربية فى جلستها المنعقدة فى ٢٨ ذى الحجة ١٣٦٤ هجرية الموافق ٤٥/١٢/٣ ، أن تقوم جميع الدول العربية بمقاطعة البضائع الصهيونية ، وأن تمنع استيرادها إلى بلادها منعاً باتا . وقد أصدرت الحـكومات العربية فوراً القوانين لتنفيذ هذا القرار وألفت لجنة من الجامعة للاشراف على أعمال المقاطعة . ولا شك أن الدول العربية قد نجحت فى تطبيق هذا القرار . وقد حاول الصهيونيون الاحتيال على قوانين الدول العربية ، كمحاولتهم الاحتيال على قوانين حكومة فلسطين بشأن منع بيع الأراضى لليهود ، فأخذوا يرسلون البضائع إلى أقطار غير عربية أولا (كقبرص) ثم يصدرونها إلى الأقطار العربية على أنها بضائع غير صهيونية ، كما حاولوا تهريب هذه البضائع . ولـكن هذه المحاولات لم تنل نجاحا يستحق الذكر لأن الدول العربية اتخذت ما يلزم من الإجراءات لإحباطها من جهة ، ولأن مثل هذه الطرق يزيد فى تـكاليف البضائع الصهيونية فيجعل تصريفها فى الأسواق العربية صعباً نظراً لغلائها . ثم اتخذت بعض الحـكومات العربية إجراءات أخرى لتضييق الخناق على الاقتصاد الصهيونى ، وذلك بمنع تصدير المواد الأولية إلى فلسطين لـكيلا يستعملها اليهود فى صناعتهم ، ثم قررت حكومة مصر اتخاذ خطوة أخرى بمنعها مرور البضائع بطريق الترانزيت فى مصر سواء كانت ذاهبة إلى الصهيونية أو خارجة منهم .

وقد كان من أثر هذه الإجراءات أن اختفت البضائع الصهيونية من الأسواق العربية اختفاء تاما تقريباً ، وزال أمل اليهود فى أن يجعلوا من الأقطار العربية سوقا ، وهبطت صادرات فلسطين إلى الأقطار العربية فى السنتين الأخيرتين هبوطاً عظيما كبيراً . وقد أثر ذلك على

الصناعات اليهودية ، فأصبحت صناعة النسيج تعانى أزمة حادة وأغلق كثير من مصانع النسيج أبوابه ، كما اختفت صناعة الماس تماما ، وارتبك أكثر الصناعات اليهودية، وراح اليهود يشنون حملة دعاية واسعة ضد الأقطار العربية ويحاولون التفتيش عن أسواق أخرى فى البلقان وتركيا وسواها ، دون نجاح يستحق الذكر . وقد ساعد على هذا الارتباك الهام أن مصادر الإنتاج الرئيسية فى العالم قد أعيد فتحها وأصبح من الممكن استيراد البضائع منها إلى الأسواق العربية . والبضائع التى ينتجها الصهيونيون تعجز عن الصمود أمام منافسة حرة مع البضائع الأوروبية والأميركية نظراً لارتفاع تكاليف الأولى ولعدم جودتها إذا ما قيست بالأخيرة .

ومن الصعب تقدير أثر المقاطعة العربية فى الاقتصاد الصهيونى تقديراً دقيقا ، ولكن المعتقد أنه إذا ما ثابر العرب على هذه المقاطعة ، فإن أثرها سيتضح بجلاء عظيم فى المستقبل وسيكون من نتائج المقاطعة العربية مضاعفة متاعب الاقتصاد الصهيونى وزيادة إرباكه .

إلا أن فى طرق تنفيذ المقاطعة حلقات ضعيفة يجب زيادة الاهتمام بها وتقويتها .

ننتقل الآن إلى كفاح العرب لمنع تسرب الأراضى العربية إلى اليهود . سبق أن قلنا إن معظم ما اشتراه اليهود من الأراضى كان فى البدء ملكا لجماعة من الاقطاعيين غير الفلسطينيين وان الفلاح الفلسطينى متعلق بأرضه لم يبع إلا القليل منها ، وكان بيعه لها ناشئا عن شدة حاجته إلى المال وتغرير بعض الخونة به . وقد قام العرب بصراع سياسى قوى للحصول على تشريع لمنع تسرب الأراضى إلى اليهود فأسفر هذا الصراع عن سن قانون سنة ١٩٤٠ سبقت الإشارة إليه .

وقد أدرك العرب أيضا أنه إلى جانب الصراع السياسى يجب أن يقوموا بصراع اقتصادى فى سبيل تحقيق الغاية نفسها ، ومن الواضح أنه ما دام سبب بيع الأراضى هو الحاجة أو الإغراء ، فيجب على أى مشروع عربى أن يواجه هذين الاحتمالين حتى يتحقق له النجاح ، فتزال الحاجة التى قد تدعو إلى بيع الأراضى ، وتشترى الهيئات العربية الأرض التى تتعرض للبيع بسبب الإغراء . وكانت أول محاولة عربية لإنقاذ المزارع العربى من المرابى وتأمين الدين له بفوائد معقولة هى إنشاء البنك الزراعى العربى سنة ١٩٣٣ ، وقد أشرفت الهيئات الوطنية على تأسيس هذا البنك ، وقام المتمولون العرب بشراء أسهمه . إلا أن هذا البنك قد فشل ، وبعد أن عمل سنوات قليلة كبنك زراعى انقلب إلى بنك تجارى عادى سنة ١٩٤٢ وغير اسمه فأصبح يدعى بنك الأمة العربية . وكانت أسباب فشله كبنك زراعى ما يلى :

١ — تضطر البنوك الزراعية إلى فتح فروع كثيرة ، تجعل تكاليف البنك مرتفعة ،

ويزيد فى كثرة التكاليف أن مجموع الدين انقسم إلى صفقات صغيرة كثيرة العدد .

٢ — يصعب التأكد من أن الفلاح يستطيع تسديد دينه فى المستقبل ، خصوصاً وأنه لا يمكن مراقبة إنفاقه للدين ، فكثيرا ما يغرّق الفلاح نفسه بالدين ، دون أن ينفق الأموال المستقرضة فى الأغراض الإنتاجية ، بل ينفقها فى سبيل استهلاكه ، كاقامة الولائم والأعراس والحج ، وفى سبيل مخاصمة الغير وما شابه ذلك . ولذا تجده بعد الاستدانة أقل إنتاجاً وأكثر عجزا عن تسديد الدين .

وهذه الأسباب تقف فى وجه نجاح أى بنك زراعى للفلاحين العرب فى فلسطين إذا ما أقيم هذا البنك على أساس تجارى .

ولم يكن حظ المحاولة العربية الثانية فى كفاح بيع الأراضى لليهود بأحسن من حظ الأولى . وكانت هذه المحاولة هى شراء الأراضى العربية المهددة بالبيع لليهود بأموال تجمع من العرب عن طريق التبرع . وقد أنشئت لجمع الأموال وشراء الأراضى مؤسسة دعيت (صندوق الأمة العربية) فأنقذ الشىء القليل من الدنمات (الدونم النظامى ألف متر مربع) .

إلا أن مئات الألوف من الدونمات التى كان العرب يملكونها تسربت فى هذه الأثناء إلى اليهود دون أن يستطيع صندوق الأمة العربية عمل شىء لإنقاذها . أما سبب فشله فيرجع إلى أن الأموال التى يجمعها لإنقاذ الأراضى المهددة لا تقاس بحال من الأحوال بالأموال التى يدفعها اليهود فى سبيل الحصول عليها ، خصوصا وأن موارد صندوق الأمة العربية كانت تأتى من عرب فلسطين وحدهم بينما يجمع اليهود الأموال من جميع اليهود فى مختلف أقطار العالم . واليهود ، كما نعلم ، هم أكثر الناس ثراء فى كل قطر ، ولن يستطيع عرب فلسطين بحال من الأحوال مجاراة اليهود فى جمع الأموال ، ولذلك فإن الأثمان التى تستطيع الهيئات العربية دفعها تقل كثيراً عما يستطيع اليهود دفعه ، ولا تكفى إلا الجزء من الأراضى المهددة .

وقد قدم للجامعة العربية فى سنة ١٩٤٥ مشروع لإنقاذ الأراضى فى فلسطين ، يحاول تجنب الصعوبات التى لاقتها المشاريع سابقا وذلك هو « المشروع الإنشائى العربى » ، الذى قدمه الأستاذ موسى العلمى مندوب فلسطين بالجامعة العربية حينذاك . ويقوم هذا المشروع على أساس الاعتراف بأن ما لدى العرب من الوسائل المادية لا يكفى لشراء الأراضى العربية المهددة فى فلسطين ، كما أن مثل هذا الشراء غير مرغوب فيه لأنه لا يفعل شيئا للفلاح بل يحوله من مالك إلى أجير ، ويعترف المشروع أيضا بسوء حالة الفلاح الاقتصادية والاجتماعية ، ويحاول معالجة خطر تسرب الأراضى وسوء حال الفلاح فى آن واحد وبأقل التكاليف .

وطريقة المشروع فى ذلك أنه يقدم خدمات مجانية الآن للفلاحين ، كزرع الأشجار وحفر الآبار وتحسين الأحوال الاجتماعية والاقتصادية بينهم عامة ، مقابل أخذه عليهم تعهدا قانونيا ببقاء الأرض فى أيديهم فلايستطيعون بيعها لليهود . أما فى الأحوال التى تتعرض فيها الأراضى للبيع بسبب الإغراء ، فيشترى المشروع الإنشائى هذه الأرض على أن يعيد بيعها لصغار الفلاحين حالا وبشروط معتدلة تراعى فيها مصالحهم ، مع أخذ التعهدات القانونية لمنع بيعها المستقبل . فيكون من نتيجة هذا المشروع تثبيت الفلاح فى أرضه ، وإبقائه مالكا لها ، بل وجعله مالكا حيثما لم يكن كذلك من قبل ، وتحسين أحواله فى آن واحد . والتكاليف اللازمة لإقناع الفلاح بإعطائه تعهد قانونى هو فى الواقع لمصلحته ، هى تكاليف قليلة ، تقل كثيرا عن الثمن اللازم لشراء الأرض . ثم إن هذا التعهد يضمن عدم بيع الأرض فى المستقبل أمام أى إغراء . وقد قدر الأستاذ العلمى النفقات اللازمة لتحقيق مشروعه فى جميع أنحاء فلسطين بخمسة ملايين تدفعها الحكومة والشعوب العربية فى خمس سنوات ، تصبح بعدها جميع أراضى العرب فى فلسطين آمنة من الخطر ، ويصبح بعدها الفلاحون العرب فى مستوى اجتماعى يضارع مستوى الفلاحين فى أرقى البلدان . وقد قدم للجامعة العربية فى الوقت نفسه مشروع آخر وضعه سعادة الدكتور حافظ عفيفى باشا ، يقوم على أساس إنشاء شركة عقارية برأسمال قدره مليون جنيه ، تضمن الدول العربية الربح بأسهمها بنسبة مئوية معينة ، ولمدة من الزمن وتساهم بربع مليون ليكون احتياطا لها مقابل ضمان الربح . وتقوم هذه الشركة بنوعين من العمل أولهما تيسير القروض للفلاحين وثانيهما شراء الأراضى واستثمارها ، فهى فى الشق الأول من أهدافها تشبه البنك الزراعى العربى وفى الشق الثانى تشبه مشروع صندوق الأمة . ثم إن هذه الشركة فوق هذا وذاك ستحاول إجراء أعمالها على أساس تجارى .

وقد أقرت الجامعة العربية المشروعين فى آن واحد وتركت للدول العربية أن تختار كل منهما ماتشاء ، فاختارت الحكومة العراقية المشروع الإنشائى ودفعت للجمعية التى تأسست فى القدس لتنفيذه مبلغ ربع مليون جنيه ، واختارت باقى الحكومات العربية مشروع الشركة العقارية ودفعت كل منها قسطا من احتياطها ، وقد دفعت حكومة العراق أيضا حصتها من احتياط الشركة ، بالإضافة إلى ما دفعته للمشروع الإنشائى .

وقد لاقى المشروع الإنشائى صعوبات سياسية عظيمة . كما أن الأموال المدفوعة له لا تؤمن قيامه بأعماله الواسعة النطاق التى كان المشروع يهدف إليها بالأصل . ومع ذلك فقد كانت تعد العدة للبدء بأعماله حينما فاجأته الاضطرابات الحالية فتوقف العمل فيه موقتا .

وقد أسست الشركة العقارية وطرحت أسهمها للبيع ولـكن الاضطرابات أيضا فاجأتها فلم تعمل فى فلسطين حتى الآن .

الخاتمـــة

رأينا فيما تقدم أن اليهود قد جعلوا من الاقتصاد أداة لتحقيق هدف سياسى وأنهم بفضل ذلك قد نجحوا فى إحراز قسم كبير من أهدافهم . ولو بنوا مشروعاتهم على أساس المقاييس الاقتصادية من ربح وخسارة لأحجموا عن كثير منها . وقد بذلوا فى سبيل محاولاتهم لإنشاء دولة لهم فى فلسطين بسخاء ما بعده سخاء .

ورأينا أيضا أن موارد عرب فلسطين ضئيلة لا تقاس بما لدى اليهود ، وأنها غير قادرة وحدها على صد هذا الغزو الاقتصادى . لذلك لا يمكن الوقوف فى وجه هذا الغزو إلا بمؤازرة من البلاد العربية . ولـكى تكون هذه المؤازرة فعالة يجب أن تجرى أيضا على أساس سياسى ودون التقيد بالمقاييس الاقتصادية . ويجب أن يكون البذل فيها بسخاء ، وأن يكون هدفها تقوية الاقتصاد العربى فى فلسطين فى سائر فروعه والحيلولة دون تسرب الأراضى العربية إلى اليهود مهما كلف الأمر .

ولئن كان الإجراء السياسى الذى أقرته الجامعة العربية فى سبيل كسب المعركة الاقتصادية وهو مقاطعة البضائع الصهيونية ، إجراء سليما وقويا وفعالا ، فإن الإجراء الاقتصادى الذى قلت به حتى الآن وهو مشروع الشركة العقارية إجراء ضعيف غير كاف ، وذلك لأنه بنى على أساس تجارى لا على أساس التبرع بسخاء ، ولأن ما خصص له من الأموال غير كاف وليس هناك شك فى أن مصير المعركة الاقتصادية يتوقف إلى حد كبير على نتيجة المعركة السياسية الحربيـة فان نجح العرب فى هذه المعركة كما نأمل فحينئذ يمكن وضع فلسطين فى أحوال تمكن من ربح المعركة الاقتصادية . ولذلك فان ما أنفقته الدول العربية وتنفقه فى كسب المعركة السياسية الحربية إجراء سليم يؤدى فى النهاية إلى إحراز النصر فى جميع النواحى الأخرى .

برهان راغب الدجانى

المغرب العربى

الدكتور حسين مؤنس

خلف الستار الحريرى :

يصعب جداً أن يتحدث الإنسان عن المغرب الإسلامى المعاصر فى شىء من الثقة أو قريب من الثقة ، لأن الدولة الفرنسية التى وضعت يدها على معظم نواحى المغرب جميعاً بالتدريج من حدود تونس إلى ساحل المحيط ابتداء من سنة ١٨٣٠ حرصت على أن تسدل على هـذا القطر الإسلامى الواسع ستاراً كثيفاً لا يكاد شعاع واحد من النور ينفذ منه ، لا من المغرب إلى بقية العالم ولا من هذا العالم إلى المغرب . وحذت حذوها إيطاليا فى طرابلس وإسبانيا فى منطقة الريف . وهى إنما حرصت على ذلك لأنها وضعت لنفسها غاية واحـدة لعل دولة من الدول لم ترسمها لا فى حقيقة ولا فى خيال : وهى إلغاء هذا المغرب الإسلامى من الوجود إلغاء واستبدال مغرب مسيحى أو أوربى به . وهى لهذا لم تحرص إلا على شىء واحد فى هذا العالم الواسع : الأرض وما تضمه من خيرات ، فأما الناس الذين يعيشون على هذه الأرض ، وأما الإسلام الذى تأصل فى طبيعة البلاد حتى صار جزءاً من « مناخها » فلم يدخل للفرنسيين فى حساب . ومن ثم توجهت همة الحـكومة الفرنسية مثلا إلى استئصال الشعوب المغربية الإسلامية . وكتابات الفرنسيين المتحمسين تضم إشارات كثيرة إلى ما فعله الأوروبيون بأهل القارة الأمريكية الأصلاء من الهنود الحمر ، وقد لاحظت فى بعض تصرفات حكام الجزائر الفرنسيين ما يدل بوضوح على أنهم يسعون لمثل هذه الغاية سعياً سافراً ، ويتضح ذلك جلياً فى جميع التصرفات التى صدرت عن حكام الجزائر الفرنسيين بين سنتى ١٨٣٠ و ١٨٧٠ — فقد أصدر الجنرال بورمون فى سنة ١٨٣٠ قراراً استصفى به للحكومة الفرنسية كل الأوقاف الإسلامية فى الجزائر ، وبعد ذلك بثلاث سنوات أصدر الجنرال بو[illegible]بى منشوراً استصفى به للحكومة الفرنسية العقارات التى لم يستطع أصحابها إبراز أدلة ملـكيتها خلال فترة قصيرة معينة ، وقد أصدر هذا القرار ونفذه وهو يعلم أن ٩٠٪ من أهل الجزائر لم يعلموا بأمره ، ولو علموا ما استطاعوا تنفيذه لجهلهم بالاجراءات القانونية التى ينبغى أن يقوموا بها

وفى سنة ١٨٤٦ أصدرت الحكومة الفرنسية قراراً استصفت به لنفسها كل الأراضى الفضاء وهى تعلم أن هذه الأراضى إنما هى مراعى لماشية القبائل ، ولا حياة لرجالها بدونها ، وفى سنة ١٨٥١ أصدرت قراراً استصفت به لنفسها أراضى الغابات فى الجزائر كلها ، وفى سنة ١٨٧١ وضعت يدها على خمسة وعشرين ألف كيلو مترا من أخصب أراضى الجزائر عقب ثورة محلية قامت فى بعض النواحى ، وبهذا استخلصت الدولة الفرنسية لنفسها ١١٦٫٩٠٠ كيلو مترا من مجموع مساحة البلاد وهى ٢٠٨٫٠٠٠ كيلو مترا أى ما يزيد على النصف . وبديهى أن هذا المستصفى هو خير أراضى الجزائر جميعاً ، ولم تتوقف الحكومة الفرنسية عن هذه السياسة إلا حينما لم يعد فى هذا القطر أرض تصلح لشىء . ولو قد كانت الحكومة الفرنسية تستصفى ما تضع عليه يدها لصالح الجزائر وأهلها لكان من الجائز تبرير مثل هذه التصرفات ، ولكنها استصفتها باسم الحكومة الفرنسية ولمصلحة الشعب الفرنسى وحده . وغايتها من هذه السياسة واضحة : هى طرد الشعب الجزائرى من بلاده وأراضيه وقذفه إلى الفيافى والهضاب كما فعل المستعمرون الأوروبيون مع الهنود الحمر . وكلما استصفت الحكومة جزءاً من الأرض سارعت إلى توزيعه على مهاجرين فرنسيين أو أوروبيين . وطبيعى أن طرد الناس من بلادهم على هذه الصورة لا يتم فى سهولة وسلام ، وإنما تستعمل القوة لتنفيذه . ومن ثم غصّ تاريخ الجزائر الفرنسية بحوادث محزنة يسميها المؤرخون الفرنسيون « حروباً » ويسميها المنطق الصحيح مجازر ، ولا يعرف العالم عن تفاصيل هذه المجازر شيئاً ، وإن كنا نستطيع أن نتبين الكثير من هذه التفاصيل أثناء مطالعتنا فى تاريخ رجل كالمرشال ليوتى كان يستأصل قبائل مراكشية بأسرها لكى يستولى على أرضها ويوزعها على المهاجرين الألزاسيين الذين فروا إلى فرنسا عقب استيلاء الألمان عليها بعد هزيمة فرنسا سنة ١٨٧١ .

فرنسا تستصفى نصف تونس الشمالية للمستعمرين الأوروبيين

وبعد أن فرضت فرنسا حمايتها على تونس فى مايو سنة ١٨٨١ أسرعت بتطبيق أساليب الاستصفاء واحداً فواحد عليها حتى جرد المزارعون التونسيون من أكثر من ٦٧٫٤ ٪ من الأراضى الصالحة للزراعة فى الشمال ، ولم يبق أمام أهل البلاد إلا الارتداد إلى حياة الرعى أو العمل كأجراء عند المستعمرين .

وفى مراكش :

وقد اتبعت فرنسا هذه الخطة فى مراكش بعد وضعها تحت الحماية الفرنسية سنة ١٩١٢ فقد استمرت الحكومة الفرنسية تجرد الأهلين من كل أرض صالحة للزراعة حتى أصبح ٨٦ ٪ منهم عمالا زراعيين أو رعاة لا أرض لهم ، ولا تزيد نسبة المراكشيين الذين يملكون أرضاً عن ½٪ فى حين لا يوجد بين الـ ١١٥٫٠٨٤ فرنسى الذين يعيشون فى مراكش واحد لا يملك أرضاً أو عقاراً أو مصنعاً .

ولعل أغرب ما فى الموضوع هو طريقة تصرف الدولة الفرنسية فى هذه الأراضى التى استصفتها ، وهى تبلغ نحو ٧٠ ٪ من الأراضى الصالحة للزراعة فى المغرب كله . فقد أنشأت فى كل قطر من أقطار المغرب الثلاثة خزانة سمتها صندوق التعمير Caisse de Colonisation وأخذت من ميزانية القطر جزءاً كبيراً أودعته فيه ، ثم أنشأت إدارات سمتها « إدارات الفلاحة والتعمير » تقوم بتقسيم الأراضى وبيعها بيعاً صوريا للمهاجرين الفرنسيين بأثمان زهيدة تسدد على مدى عشر سنوات ، ولما كان المهاجر الفرنسى يقبل إلى المغرب ولا مال معه ، فإن الحكومة الفرنسية تقدم له قروضا بدون فوائد من صندوق الاستعمار ، أى أن فرنسا تسلب المغربى أرضه وتهديها إلى الفرنسى ، وتأخذ من المغربى المال الذى يلزم الفرنسى لاستصلاح هذه الأرض . وقد بلغ ما جمع من التونسيين وحدهم لصندوق الاستعمار هذا بين سنتى ١٩٠٠ و ١٩٠٧ نحو عشرة ملايين من الفرنكات الذهبية ، (أى نحو مليونين من الجنيهات المصرية الذهبية) . وقس على ذلك ما جرى فى الجزائر ومراكش . هـذا ولا يسمح للمغربى بشراء أرض من هذا المستصفى . ولم يسجل التاريخ فيما عرف من ألوان الاستبداد لونا هو أبشع من ذلك . ولو اشترت الحكومة الفرنسـية الأرض وأقرضت المهاجرين الفرنسيين من مالها لكان ذلك معقولا بعض الشىء ، ولكنها تأخذ من صاحب الأرض أرضه وتعطيها للدخيل ، ثم ترغم صاحب الأرض المسكين على تقديم المال إلى هذا السيد المستعمر ، بل ترغمه على العمل فى أرضه كأجير ، وتحدد الأجر الذى يدفع له ، وتعاقب المغربى إذا رفض العمل .

هكذا أخرج الفرنسيون أهل المغرب من أرض بلادهم وأنزلوهم إلى مرتبة الأجراء والرعاة فحكموا عليهم بذلك أن يظلوا فى مستوى اقتصادى معنوى منخفض جدا لا يمكن من مجرد التفكير فى التقدم أو الارتقاء . ومهما فعل الفرنسيون بعد ذلك من إنشاء مستشفيات أو طرق أو موانئ ، فإن الإنسان لا يستطيع أن يحسبه لهم فى حساب الحسنات أو فى حساب الأعمال

الإنسانية ، لأن شيئاً من هذا كله لا يعود على المغربى بالخير ، بل هو مخصص للفرنسى أو الأجنبي وحدهما ، ومن هنا لا غرابة أن يكون المستوى العام للناس فى هذا المغرب فى حالة من الهبوط لا يمكن مقارنتها بحال فى أى بلد إسلامى آخر ، هذا رغم ما يعرف الناس أجمعون من ذكاء المغربيين واستعدادهم للفوق فى كل ميـدان ، وتاريخهم الإسلامى حافل بالأعلام والدولات على قلة عددهم وقسوة ظروفهم الاجتماعية .

***

الدول الأوربية فى المغرب لا تستند الى أى أساس قانونى :

والمعروف أن الدول الأوربية إذا دخلت بلدا أعلنت أنها لا تقصد إلا معاونة الأهلين على إدارة شئونهم وتدريبهم على أساليب الحكم الصحيح ، حتى يصلوا إلى مستوى يمكنهم من السير وحدهم . هكذا يعلن الإنجليز والهولنديون والأمريكيون ، ولسنا بسبيل محاسبتهم على ما حققوا وما لم يحققوا من هذه الأهداف ، وإنما المهم أنهم يعلنون ذلك فيدلون على لون من الحياء الإنسانى ، ولـكن الفرنسيين لا يعلنون ذلك ولا يتعهدون قِبَل أهل البلاد بشىء .

فقد دخل الفرنسيون الجزائر فاتحين فى سنة ١٨٣٠ ، وألغوا نظامها القائم ، وأخضعوا البلاد لنظام عسكرى ، ولم يتقيدوا قبل أهلها بشىء ، ولم يعدوهم بشىء . وليس فى معاهدة «باردو» التى وقعها الجنرال « بريار » مع باى تونس محمد الصادق فى ١٢ مايو سنة ١٨٨١ نص واحد يتعهد فيه الفرنسيون بالعمل على ترقية مستوى التونسيين أو السير بهم إلى الأمام بل ليس فيها شرط واحد يضمن حقوق الأهلين حيال الغاصبين ، ولو بعد حين من الزمان .

وليس فى معاهدة فاس التى عقدت فى ٣٠ مارس سـنة ١٩١٢ بين الفرنسيين وسلطان مراكش مولاى السلطان عبد الحفيظ نص واحد يدل على أن الفرنسـيين وضعوا مصالح المراكشيين موضع الاعتبار ولو من الوجهة النظرية ، أو كانوا يفكرون — ولو مجرد التفكير — فى ترك البلاد يوما من الأيام .

ويقرر رجال القانون الفرنسيون أن كل قطر من أقطار المغرب له وضـع خاص بالنسبة لفرنسا : فالجزائر جزء من الوطن الفرنسى ، وتونس إقليم مُعاهِد ، ومراكش تحت الحماية . ويحاول هؤلاء القانونيون أن يفلسفوا الموضوع ليبينوا أن فرنسا تضع لـكل قطر منهـا من الأنظمة ما يلائمه ، وأنها تحرص على الأوضاع القانونية فى كل ناحية ، ولـكنهم يقررون صراحة أن الواقع يخالف هذا الوضع النظرى ، فلا فرق فى نظرة فرنسا أو أسلوب سياستها

فى هذه الأقطار المغربية الثلاثة ، فهى تعامَل على نفس الأساس الذى تعامل به المستعمرات الصريحة كالسنغال والكمرون . وقد وضع الفرنسيون هذه الأنظمة منذ قرن من الزمان ولا يريدون أن يغيروا منها شيئاً ، كأن هذه النظم إنما وضعت لتظل قائمة إلى الأبد لا يغير تطور الدنيا أو تقلب الحوادث من أمرها شيئاً ، وكأن هؤلاء المغربيين الذين وضعت لهم هذه الأنظمة ظلوا فى نفس المستوى الفكرى والاجتماعى الذى كانوا فيه يوم نزلت فرنسا بلادهم طوال هذا القرن المنقضى . وفى هذا وحده اعتراف صريح من الفرنسيين بأنهم لم يسيروا بأهل البلاد خطوة واحدة إلى الأمام . وسنرى مما يلى أن البلاد تأخرت فى ظلالهم على نحو محزن حقاً . وذلك طبيعى ، لأن الفرنسيين كانوا يقصدون هذا التأخر ، وكل أنظمتهم وتشريعاتهم وتصرفاتهم تتجه نحو هذه الغاية .

فرنسا تؤخر أهل المغرب :

من هنا لم تتجه همة الفرنسيين إلى أن ترتفع بواحد من هذه الأقطار الثلاثة عن مستوى المستعمرات التى تدار لمصلحة البلاد المستعمر وأهله أو السير بهم فى الطريق الذى يؤدى بهم يوماً ما إلى حكم أنفسهم بأنفسهم حكما عادلا منظما حديثاً . بل جرت الحكومة الفرنسية على عكس ذلك تماماً ، فحرصت على أن تبعد الأهلين عن نواحى الحكم ، وحرصت على أن تقضى على ما عسى أن يكون عندهم من وسائله وما بين أيديهم من أعنته .

فقد دخل الفرنسيون الجزائر مثلا ، فوجدوا فيها نظاماً بدائياً ، كان من الممكن إصلاحه وتعديله أو استعمال العناصر الصالحة منه على الأقل ، كما فعل الإنجليز حينما دخلوا مصر فى سنة ١٨٨٢ مثلا ، ولكن الفرنسيين جروا على عكس ذلك تماماً .

فى سنة ١٨٤٨ قررت الحكومة الفرنسية اعتبار الجزائر مقاطعة فرنسية ، أى جزءاً من الوطن الفرنسى ، أو ملكا للشعب الفرنسى بتعبير أدق ، فألغيت من الوجود إلغاء ، وهذا وضع أقل من أوضاع المستعمرات .

وليت هذا الإلغاء قد تم على نحو يضمن للجزائريين شيئا من الحقوق .

فقد اعتبرت الجزائر جزءاً من الوطن الفرنسى ، فكان من الطبيعى أن يعتبر الجزائريون فرنسيين ، وبذلك يكون لهم وضع دولى مفهوم بين أهل العالم أجمعين . ولكن الفرنسيين منحوا الأرض واستبعدوا الناس ففى سنة ١٩٣٢ كان عدد الجزائريين ٦٫٤٦٩٫٨٩٨ ليس منهم إلا بضعة آلاف معتبرين فرنسيين ، أما الباقى فلا وضع قانونياً لهم يحدد موقفهم من غيرهم من أهل هذه الأرض . فبينما يستطيع أهل المستعمرات الإنجليزية السفر إلى الخارج حاملين

جوازات سفر إنجليزية لا يستطيع جزائرى واحد من هؤلاء « المنبوذين » السفر إلى خارج بلاده — عدا فرنسا — لأن السلطات الفرنسية لا تمنحه ورقة واحدة يثبت فيها وجوده بين أهل الأرض أجمعين .

بل الأمر أسوأ من ذلك بكثير ، فان الفرنسيين يحكمون الجزائر بواسطة حاكم فرنسى تابع لوزير الداخلية يساعده مجلس أعلى من سبعة من كبار الموظفين الفرنسيين ليس فيهم جزائرى واحد .

وهناك الجمعية الجزائرية — وهى شيء يشبه البرلمان — تتكون من ستين عضوا منهم سبعة فقط من الجزائريين ، ثلاثة منهم معينون والأربعة الباقون فقط منتخبون .

وهناك مجلس اقتصادى يبحث المسائل الاقتصادية أعضاؤه ٦٩ ليس منهم إلا واحد وعشرون من المسلمين يمثلون بعض الصناعات المحلية الصغيرة . ولا يقام لآرائهم وزن فى كبير أو صغير .

هذا ونسبة الأهلين إلى الفرنسيين هى ١٦ : ١ .

وإليك ما يقوله أحد « نواب » الجزائر — والمفروض أنه يتصدى للدفاع عن مصالح الجزائريين أجمعين — : « قبل أن نفكر فى منح الحقوق السياسية لهؤلاء الأهلين الذين لا يفهمونها ، ولا يطالبون بها ! ينبغى علينا أن نغذيهم وأن نكسوهم ، وأن نهيء لهم المسكن وأن نعلمهم » . يقول ذلك فى مايو سنة ١٩٤٧ بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد ميثاق الأطلنطى وبعد مائة وسبعة عشر عاماً من الإدارة الفرنسية ! يقول ذلك وهو يعلم أن انجلترا منحت الهند الاستقلال وتخلت عن بورما ، وأن أمريكا أنشأت نظاماً نيابياً فى الفيلبين ، ولم يبق فى الدنيا بلد أهله على شيء من الحضارة إلا أصبح له من الحرية نصيب .

بعد ١١٧ عاما يقرر هذا النائب الجزائرى أن الحكومة الفرنسية لم تعلم الجزائريين بعدُ ولم تطعمهم ولم تكسهم بعد ، ويقول إن الجزائريين لا يفهمون الحقوق السياسية ولا يطالبون بها مجرد المطالبة ، فلو كان ما قاله حقاً فهو عار على الفرنسيين قبل أن يكون عاراً على المغربيين !

هذا ويخضع الفرنسى فى المغرب للقانون الفرنسى فى حين يخضع الأهلون لنظام وقانون خاص يسمى Code de l'indigeanat لا يكاد المغربى يظفر فيه بوضع يفهم منه أنه إنسان له مشاعر وتفكير .

والأمر فى تونس أسوأ من هذا بكثير ، فقد دخل الفرنسيون البلاد سنة ١٨٨١ فوجدوا فيها أميراً له مجلس وزراء يعاونه مجلس نواب ، مهما كان مقدار سلطته وطريقة انتخاب

أعضائه فهو يصور ولو ظلا من الحرية وجانباً من سلطان المحكومين .

بدأ الفرنسيون فقسموا البلاد إلى قسمين : شمالى يديره الموظفون الفرنسيون إدارة مدنية ، وجنوبى يحكمه حاكم عسكرى ، كأنه بعض مواطن الهمج والمتوحشين .

ادارات فرنسية صرفة :

والإدارة فى القسم الشمالى فرنسية صرفة يقوم بها ٣٥٫٠٠٠ من الموظفين ، نحو ربعهم فقط من التونسيين (وهم الخدم وصغار الكتاب) ولو حسبت نسبة الموظفين إلى عدد سكان تونس أجمعين لكان لكل مائة من السكان موظف فرنسى ! وطبيعى أن الحكومة الفرنسية تكثر من الموظفين رغبة منها فى زيادة عدد الفرنسيين فى البلاد .

وهؤلاء الموظفون الفرنسيون يتقاضون حوالى ٦٠ ٪ من ميزانية البلاد ، وهم يستعملون الفرنسية مع من يعرفها ومن لا يعرفها حتى يحتاج التونسى إلى مترجم يتوسط بينه وبين الموظفين !

وهؤلاء الموظفون جميعاً مسئولون أمام الحاكم العام وحده ، وهذا مسئول أمام وزير الخارجية الفرنسية ، ولا مسئولية بعد ذاك .

والحال فى مراكش لا يختلف عن ذلك فى كثير ، فالسلطان لا يملك من الأمر قليلا ولا كثيراً ، والقانون الذى يرعاه الحاكم العام لا يطبق على الأهلين ، وإنما تقتصر امتيازاته على الفرنسيين وحدهم .

ومن غرائب العقلية الفرنسية أنها لا تخجل من أن تعلل هذه التفرقة بالحرص على مصالح المراكشيين ! كأن هؤلاء الناس لا يصلحون لقانون حديث ، وكأنما قضى الله بأن يظلوا فى ظلمات العصور الوسطى إلى أبد الآبدين .

والإدارة فى مراكش فرنسية صرفة يقوم بها ٢٢٠٠٠ من الموظفين منهم ٧٠٠٠ فقط — من صغار الكتاب والمساعدين — من المراكشيين ، يضاف إليهم ٨٠٠٠ من الخدم والفراشين وهم من أهل البلاد طبعا .

وقد ظلت البلاد تحكم حكما عرفياً من ١٩١٢ إلى ١٩٢٤ ، ورفعت الأحكام العرفية عاما ثم أعيدت واستمرت إلى سنة ١٩٢٠ ، وأعيدت مرة ثالثة سنة ١٩٣١ ولا زالت قائمة إلى اليوم ، أى أن مراكش حكمت حكما عسكريا عرفيا نصف المدة التى أقامها فى ربوعها

الفرنسيون . وهو أمر لم يسمع بمثله فى قطر من الأقطار فى أظلم أيام الجهالات والاستبداد .

فهذه البلاد جميعاً تسير من الناحيتين السياسية والاقتصادية إلى الوراء ، وتلك حقيقة ما نظن أحداً من الفرنسيين — منصفين وغير منصفين — إلا ويسلم بها ، لأن الدولة الفرنسية نفسها تقررها ولا تنفيها .

***

الهبوط المعنوى :

هذا هو وضع أهل المغرب من الناحيتين الاقتصادية والسياسية . بق أن ننظر فى أحوالهم من النواحى المعنوية الصرفة : نواحى العقيدة والتعليم والثقافة .

اضطهاد الإسلام :

ربما بدا غريباً أن يقال إن الدولة الفرنسية هى الدولة الأوربيــة الوحيدة التى تستهين بعقائد من تتولى أمرهم من الناس وتحاول تغييرها أو الحط من قدرها بكل ما تستطيع من وسائل القهر والإرهاب .

فقد بدأت الدولة الفرنسية ، فوضعت يدها على الموارد ، التى جرت العادة بأن ينفق منها فى البلاد الإسلامية على شئون الدين وما يتصل به من مساجد ومعاهد : استصفت أموال الأوقاف والعيون المرصودة لشئون الدين واعتبرتها أملاكا للشعب الفرنسى ، وخصصت أكثر من ثلثيها لإعانات المهاجرين الفرنسيين ، أما الثلث الباقى فقد رصدته لشئون العقائد إسلامية وغير إسلامية ، ولا يزيد مقدار المخصص من هذا الثلث لشئون العقيدة الإسلامية على الثلث ، أما الثلثان الباقيان فموقوفان على مصالح الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزيد عدد أتباعها فى المغرب كله على $\frac{1}{10}$ من عدد السكان . وهــذا وحده كاف لكى يعين لنا موقف الحكومة الفرنسية من الإسلام فى هذه البلاد التى تعتبر بحق حصنا من حصون هذه العقيدة السمحاء .

محاولة تنصير أهل البلاد :

ولم تخف الحكومة الفرنسية فى يوم من الأيام نيتها فى تنصير أهل البلاد ، وقد أطمعها فى ذلك مؤرخون ومفكرون فرنسيون استوقفت انتباههم السرعة التى تحولت بها البلاد من

النصرانية إلى الإسلام خلال القرنين اللذين أعقبا فتح المغرب على يد العرب بين سنتى ٦٦٠ و ٧٠٠ ميلادية . وقد بدأ الفرنسيون منذ سنوات الفتح الأولى بتحويل عدد من كبار المساجد إلى كنائس كاثوليكية ، ومن أمثلة ذلك مسجد القشاوة وهو اليوم كنيسة سان فيليب ، وجامع البقشين وهو اليوم كنيسة نوتردام دفكتوار ، وجامع القصبة وهو كنيسة «سانت كروا» وغير ذلك كثير . هذا فى الجزائر وحدها ، ومثله كثير فى كل بلد من بلاد المغرب العربى .
ولم يُخف أولياء الأمور الفرنسيون فى المغرب نواياهم فى القضاء على الإسلام ، فقد قال الجنرال بُوجو مثلا سنة ١٨٣٢ : إن العرب لن تخلص قلوبهم لفرنسا إلا إذا صاروا فرنسيين ، ولن يصيروا فرنسيين إلا إذا أصبحوا نصارى» . وكتب بوجو هذا إلى القس اليسوعى «برُومو» يقول : «حاول يا أبى أن تجعل منهم نصارى ، فإذا وفقت فى ذلك فإنهم لن يعودوا يحولون رصاص بنادقهم نحو صدورنا فى وقت الشدة » .

وفى سنة ١٨١٧ تصور أسقف الجزائر لافيجرى Lavigerie أن هذا التنصير سهل ميسور . فوضع برنامجا مقرراً وهو أن يجعل من الجزائر « مهداً لشعب عظيم كريم نصرانى ، أن يجعل منه فرنسا أخرى باختصار ... » . و «أن ننشر حول أنفسنا أنوار حضارة مصدر إيمانها الإنجيل ، وأن نحمل مشاعل هذه الأنوار حتى ما وراء الصحراء إلى بلاد لا زالت إلى الآن غارقة فى الجهالة .. ثم نربط إفريقية الشمالية وإفريقية الوسطى بحياة الشعوب المسيحية ، ذلك هو ماتتطلبه إرادة الله منا !» .. ولكن لافيجرى لم يلبث أن عرف أن ماقرره فى نفسه لم يكن من إرادة الله فى شىء ، لأن فرنسا لم تلبث أن ابتليت بالغزو الألمانى وما أعقبه من كوارث ، فكانت آمال هذا الأسقف أول ما تبدد وغرق فى طوفان الفوضى التى وقعت فرنسا كلها فيها عقب هذا الانهزام السياسى المعنوى القبيح .

وفى سنة ١٩٣٩ — أى قبل الغزو الألمانى الثانى بسنة واحدة ، ظنت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية أن الجزائر أصبحت ركناً من أركان الكاثوليكية ، فقررت عقد المجمع اليوكاريستى لجميع آباء الكنيسة الكاثوليكية فى هذا البلد الإسلامى الكريم ، وفى هذا المجمع وقف أسقف باريس خروبيه ، وهو رجل كنا نعتبره من رجال الفكر الحر فى فرنسا وقال بالحرف الواحد يخاطب الآباء : « إذا كنتم قد أتيتم تعقدون هنا مجمعكم الكاثوليكى ، فما ذلك إلا لكى تحتفلوا بالعيد المئوى لحادث خالد على الدهر فى تاريخ فرنسا وفى تاريخ الكنيسة ففى سنة ١٨٣٩ كانت الجزائر — المدينة البيضاء — تشرف على البحر بمبانيها تتحدى الشعوب النصرانية . . واليوم أنتم ترون صليب المسيح قائماً فى قمة إحدى مآذنها ! وأصبحت

الجزائر فجأة الباب المنير الذى تنفذ منه يوماً بعد يوم ، وفى سرعة مشاعل الوحى النصرانى إلى قلب القارة السوداء ! »

وكانت هيئة هذا المجمع تجمل أغراضها فى عبارة صغيرة كتبتها بأحرف كبيرة جداً فى أعلى ما أذاعته من منشورات وهى « الكفاح ضد الإسلام » .

وهذه الأدلة وحدها تكفى لتعيين موقف الحكومة الفرنسية من الإسلام والمسلمين . ولم تغير الحكومة الفرنسية من سياستها هذه شيئا رغم ما ابتلاها الله به من ذل واستعباد على أيدى النصارى الألمان ، ففى سنة ١٩٤٥ أصدرت الحكومة الفرنسية منشوراً أخرجت به من إدارة المساجد والمعاهد الإسلامية كلّ من لا يعرف الفرنسية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن قليلا جداً من هؤلاء الأئمة والخطباء والمدرسين يعرفون الفرنسية ، والنتيجة الواضحة لذلك هى بقاء المنشآت الإسلامية من غير أئمة أو شيوخ أو مدرسين .

والأمر فى مراكش لا يختلف عن ذلك فى كثير أو قليل .

والحال فى تونس أسوأ ، فالإسلام هناك عقيدة ممتهنة ، ويُنظر إليه كأنه بقية من بقايا الوثنية التى ينبغى أن تزول ، ولايجرؤ مسلم واحد أن يتحدث فى هذه البلاد الإسلامية باسم الإسلام .

التعليم :

وطبيعى أن يكون موقف الفرنسيين من تعليم الأهلين موقف العدو الذى لايأذن لخصمه المغلوب بشىء من العلم أو النور يرفع به قواه المعنوية ، أو يأذن له فى أن يخطو خطوة واحدة نحو العصر الذى يعيش فيه .

فاللغة العربية معتبرة فى المغرب جميعه لغة أجنبية لا تحفل السلطة المحتلة لها أىّ حفل ، بل تقف منها موقف العدو . ونجتزئ من التصريحات الكثيرة والقرارات المتوالية بقرارين أصدرهما رجلان من كبار المُشرفين على شئون التعليم فى الجزائر ، فقد جاء ضمن قرارات أصدرها الحاكم لاريشال فى سنة ١٩٠٤ ما يلى : « وللسلطات أن تلغى — إلغاء مؤقتا أو نهائيا — كل تصريح للمدرسين بأن يدرسوا اللغة العربية » . وفى ٨ مارس سنة ١٩٣٨ وزعت الحكومة الفرنسية على مدارس الأقطار المغربية منشورا تعتبر فيه اللغة العربية « لغة أجنبية » وتحرم تعليمها .

ويذهب الفرنسيون إلى أن ذلك قاصر على المدارس المدنية . أما فى المعاهد المخصصة للأهلين

فتعليم العربية مطلق مباح ، فأين هى هـذه المعاهد المخصصة للأهلين ؟ إليك مقارنة بسيطة توضح الموضوع :

فالمعروف مثلا أن سكان مراكش المسلمين يبلغون ستة ملايين ، وأن عدد الفرنسيين فيها نحو ربع مليون أى أن النسبة هى ٢٤ : ١ أى أن الفرنسيين يكونون ٤ ٪ من السكان .

لهؤلاء الـ ٤ ٪ ١٥ مدرسة ثانوية كاملة و ٩٨ مدرسة ابتدائيـة وللـ ٩٦ ٪ الباقين مدرستان ثانويتان ناقصتان وأربعون مدرسة أولية وابتدائية ، وعـدد جميع طلبة التعليم الثانوى المراكشيين لا يزيد على ألف تلميذ ، أى دون عدد طلبة مدرسة ثانوية مصرية واحدة هى الخديوية !

وإليك ما يقوله الأسـتاذ ليفى بروفنسال فى ختام فصل طويل عن حياة المراكشيين :
إن إنشاء الحماية الفرنسية فى مراكش ونشر الثقافة الفرنسية هـذا النشر الرائع قد غير المثل الأعلى للجيل المراكشى الجديد تغييراً تاما ، والوقت لا زال مبكرا جدا ولايسمح لنا بتعرف الاتجاه الذى ستأخذه الحياة الفكرية للمراكشيين خلال السنوات المقبلة .

المسألة كلها عنده مسألة الثقافة الفرنسية ، والوقت لا زال فى نظره مبكرا جدا لتعرف اتجاه الثقافة فى هذه البلاد ! يقول بروفنسال هـذا بعد نحو خمسة وثلاثين عاما من الاحتلال الفرنسى !

الأقلية المغربية الممتازة « ايليت » :

ويذهب كثير من الفرنسيين إلى أن هذا الأسلوب فى القضاء على الثقافة العربية الإسلامية فى البلاد قد آتى ثمرا طيبا جدا . فإن توجيه النابهين من أهل البلاد توجيها أوروبيا فرنسيا قد حول أذهان المفكرين المغربيين تحويلا أوروبيا حديثا وجعلهم يقفون فى نفس المستوى الذهنى الذى يقف فيه المفكرون الفرنسيون أنفسهم وسلك بهم طريقا هى أسلم من الطريق الشرقى الذى سار فيه أبناء عمومتهم من الناطقين بالعربية فى البلاد الإسلامية الأخرى .

وليس أبعد عن الصواب من هذه الدعوى ، لأن الفكر الإسلامى الحديث لا يكاد يعرف إنتاجاً أدبياً هو أتفه وأقل روحاً من إنتاج هذه الطبقة المختارة من أهل الفكر الجزائريين الذين يسمون أنفسهم « الفرانكو آراب » ومن حسن الحظ أننا نملك بين أيدينا بضعة أمثلة تصور لنا تفكير هذه « الأيليت » فى السياسة والفكر والأدب الخالص ، نملكها بالفرنسية ، كأنها

إنتاج أجانب عنا أغراب عن لغتنا وثقافتنا ، ومن غرائب العقلية الفرنسية أنها تبيح للجزائرى شيئاً من الحرية إذا كتب بالفرنسية ، والويل له إن قال نفس الكلام بالعربية ! وإليك بعض نماذج منها مترجمة :

« الممتازون » وراءهم فى استقلال بلادهم :

فهناك فى الجزائر طائفة من هؤلاء الجزائريين المتفرنسين يجتمعون فى هيئة تسمى « حزب الاستقلال » ، استقلال الجزائر طبعا ، وإليك كيف يتصور هؤلاء المفكرون استقلال بلادهم : أعلنت الحكومة الفرنسية خلال سنة ١٩٤٧ عما سمته « الاتحاد الفرنسى » وهو اتحاد يجمع فرنسا ومستعمراتها فى نظام قريب الشبه من اتحاد الكمنولث البريطانى ، أقول شبيها فقط ، لأن الاتحاد البريطانى يعطى أعضاءه نصيبا طيبا من الاستقلال . أما الاتحاد الفرنسى فغرضه تحويل الحمايات والمستعمرات إلى وحدات إدارية يحكمها حكام فرنسيون ويديرونها لمصلحة فرنسا وحدها ، مع منح أهاليها بعض الحريات الداخلية .

ومعظم هؤلاء الشبان الذين يعنيهم الفرنسيون « الممتازين » يقبلون لبلادهم هذا الوضع ، ولا يضيرهم أن تتخلى بلادهم عن شخصيتها الكريمة وتنسى ماضيها المجيد .

يقول باشى أغا بن شنوف نائب قسنطينية : « إن دخول الجزائر فى الاتحاد الفرنسى سيهيئ لها السلام والوئام والرخاء ، وهو يؤمن مصالح فرنسا الرئيسية ويضمن لها أكبر نصيب من الخير » .

ويقول قاضى عبد القادر ، وهو نائب آخر من نواب قسنطينية :

« إننى أدعو إلى المساواة فى الحقوق بين مواطنى الجزائر أجمعين من غير تفريق بين جنس وجنس أو دين ودين ، وأقترح أن يمثل الأوروبيين والجزائريين عدد متساو من النواب فى البرلمان الجزائرى وفى كل الجمعيات الانتخابية (يريد أن يقول أن يكون للجزائريين عدد مساو لما للأوروبيين ، وهو ينسى أن مواطنيه يعدلون الأوروبيين ١٦ مرة ، وأن مواطنيه أصحاب البلد والأوروبيين أجانب) وأنا أرى أن تكون الإدارة مسئولة أمام البرلمان الجزائرى فإذا حدث خلاف بينهما فصل فيه البرلمان الفرنسى » .

ويقول عمار إسماعيل أحد نواب الجزائر :

« إن المشكلة الأولى التى ينبغى حلها هى مشكلة اختلاف الأجناس ، لا بد أن نصل قبل كل شىء إلى الاتحاد . فإذا تم هذا الاتحاد استطعنا أن ننظر إلى المستقبل فى شىء من

الاطمئنان ، إننى أريد أن يتكون البرلمان الجزائرى من أعضاء يمثلون الحضارتين على قدم المساواة . نحن نريد أن تتم الإصلاحات المطلوبة على أسس فرنسية لكى يكون لها أثر، وينبغى أن يتساوى عنصرا السكان فى هذا الصدد (الفرنسيون والجزائريون) وأن يمثل البرلمان الجزائرى لدى برلمان باريس عدد أكبر من النواب . وإننى أرى أن يسمح للجزائريين بأن يكون لهم الحق فى شغل الوظائف التى يشغلها الأوروبيون ... »

هذا هو منتهى فهم هؤلاء الاستقلاليين الجزائريين لكرامة بلادهم وحقوقها .

بيد أن شباب المغرب لم يخل من نفر كريم فيهم نخوة وشجاعة . فهم يهاجمون السياسة الفرنسية هجوما صريحا غير هيابين لسخط الفرنسيين ، ولا يستطيع الإنسان أن يتصور قسوة الفرنسيين على الأحرار فى البلاد التى تبتلى باحتلالهم ، إلا إذا اتصل بالمجاهدين المغربيين خارج المغرب ، وعرف منهم مصارع إخوانهم فى هذه البلاد المسكينة ، فلم يجن شعب أوربى على قضية الحرية بقدر ما جنى الفرنسيون ، إن أعداد من قتلوهم وشردوهم لا تدخل تحت حصر ، ولا زالوا ماضين فى ذلك رغم تقدم الدنيا وإفلاس سياسة القهر والاستبداد .

إليك مقتطفات من كلام أحد هؤلاء الأحرار الجزائريين الأبطال ، وهو كلام قريب من روح الوطنية الصحيح . قال السيد مزرنة أحد نواب الجزائر ورئيس « جماعة انتصار الحريات الديمقراطية الجزائرية » :

« تعيش الجزائر منذ أكثر من قرن تحت نظام استعمارى . وهذا النظام يقوم على أساس الفتح الحربى والاستغلال الاقتصادى لصالح الأقلية الأوربية وحدها على حساب أهل البلاد ، وهو يعتمد على التفوق المعنوى والسياسى والاجتماعى لهذه الأقلية . وقد فشل هذا النظام رغم ذلك فشلا تاما فى القضاء على الشخصية الجزائرية كقومية قائمة بذاتها .

« وقد استطاعت هذه الشخصية أن تعبر عن نفسها دائما بقوة شعب عقد العزم على أن يحيا محترم التقاليد والعقيدة والحضارة ، وأن تحترم حياته السياسية ومصالحه العامة التاريخية .

« ثم إن إنكار الدول المتحدة الموقعة على ميثاق الاطلنطى للنظام الاستعمارى ، والتضحيات الجسيمة التى تحملها الشعب الجزائرى للدفاع عن الديمقراطية عامة ولتحرير فرنسا خاصة ، كل ذلك يعطى الشعب الجزائرى الحق الذى لا يمارى فيه فى أن يستمتع بالحريات الديمقراطية وأن يشرف بنفسه على مصائره .

« من ثم لا يعترف الشعب الجزائرى لغيره بالحق فى أن يُشَرِّع له ، ومن ثَمَّ فلابد من انتخاب هيئة تشريعية ذات سيادة ، ولابد أن تنتخب هذه الهيئة بالاقتراع العام من غير

تمييز بين جنس وجنس أو بين دين ودين ، وأن يتم ذلك فى جو من الحرية المطلقة لكى تكون الهيئة المنتخبة مرآة للآراء كلها ، ومن ثم تكون جديرة بأن تحل جميع المشاكل التى تشغل الأذهان فى الجزائر حلا عادلا » .

وهذا كلام حسن فيه صراحة وحق ، وإن كان لا ينحو نحو الاستقلال التام بحال . ولو قاله صاحبه بعيدا عن الإرهاب الفرنسى لكان أشمل وأكثر تفصيلا ، ولكنه خير على كل حال ، لأنه يقال للغاصب فى وجهه ، وهو خير من ألف حديث يقوله صاحبه وهو آمن فى ناحية لا تناله فيها يد الظالمين ، ولا تعظم منه لذلك فائدة المظلومين .

قضية الحرية فى المغرب :

وقضية الحرية فى المغرب العربى باب فى ذاته لو فتحناه لما فرغنا منه بحال[1] ، فإن العجب ليأخذ النفس حينما يجد شعبا كالشعب الفرنسى يتحدث عن الحرية هذا الحديث الطويل ، ومع هذا لا يأذن لمن تحت يده بأبسط نصيب منها ولا يتردد فى العسف بمن يقول كلمة «الحرية» عسفا لم يعرف من أبعد أمم الأرض عتواً وجهالة . ففى خلال هذا القرن الذى ابتلى فيه المغرب بالاحتلال الفرنسى قتل الفرنسيون من أحرار المغربيين أضعاف ما قتلت أمم الاستعمار جميعا من المستعمرين أجمعين وألقت فرنسا فى غيابات السجون ألوفا ممن كان الوطن الفرنسى يشرف بهم لو كانوا فرنسيين . وإن الإنسان لا يكاد يطالع أخبار مصاب الفكر والضمير الحى فى المغرب العربى على يد الفرنسيين حتى يفقد كل احترام للذهن الفرنسى كله ، وكيف تريد أن يصدق الإنسان أن الفرنسيين آمنوا بالحرية يوما إذا كان هذا موقفهم من الأحرار ؟

ولكن هذا كلام قد قيل وقيل حتى عرفه الناس أجمعون ، وما أقل جدوى شكوى الجريح حين يكون سامعه أحد اثنين : متألم لحاله عاجز عن إسعافه ، أو مستريح إلى شكاته لأنه الجانى عليه ، وهذه الشكاة هى — بعد كل شىء — غايته ومشتهاه ، كما تدوى صرخة القتيل فيطمئن لها فؤاد القاتل ، لأنه يطمئن بها إلى أنه أصاب المقتل واستراح .

***

---

(١) لا يتسع المقام هنا للكلام عن الحركات الوطنية فى المغرب ، لأننى حرصت هنا على أن أعرض الحالة الراهنة كما هى ، دون الكلام عن الحركات المعارضة ، وهى سجل حافل بالمجد للمغرب وأهله .

ماذا جنت فرنسا من وراء ذلك كله :

ولنا بعد ذلك أن نسأل : ماذا جنت فرنسا من هذا العسف والاستبداد ؟ وماذا عاد عليها من وراء هذا الاستغلال الذى ينافى كل فضيلة ، وهذه الخيانة الخسيسة لكل تراث للانسانية من الضمير الحى والفكر الحر والقلب الكريم ؟ إن الفرنسيين يفخرون بأنهم قد كسبوا من المغرب العربى كسبا ماديا خالصاً لا خسارة فيه ، فهم لم ينفقوا على المغرب العربى فرنكا واحداً من خزانتهم منذ فتحوه إلى اليوم ، لأنهم حرصوا على أن يستردوا من دم المغربيين ثمن كل رصاصة قتلوا بها مغربياً ، ولأنهم يرغمون المغربى الآمن ، مزارعا كان أو صانعا ، على إعالة المهاجرين ، ودفع نفقات الإدارة والاحتلال ، ولأنهم يفرضون على كل مغربى قادر الخدمة العسكرية إلى أجل غير محدود ، وقد استنزفوا بذلك دماء المغرب على نحو تقشعر منه الأبدان . فلم يظهر فى أية ناحية من نواحى المغرب شاب قادر على حمل السلاح إلا طوحوا به يحارب فى سبيلهم فى ألمانيا أو فى الهند الصينية أو فى مدغشقر ، ولقد حارب هؤلاء المغربيون دفاعا عن فرنسا حربا نبيلة كريمة لا تجد فرنسيا إلا ويقر بها دون شكر أو تقدير ، كأنها شىء مقرر مفروض على هؤلاء المغربيين .

ولكن فرنسا لم تجن من ذلك المال المنهوب وذلك الدم المسفوك شيئا على الإطلاق ، بل هى أقل شعوب الأرض إفادة من الرعايا والمحكومين .

فبعد عشرات السنين من السلب والاستصفاء لازالت فرنسا أفقر الدول التى كانت تريد أن تكون فى مستواها ، فهى مفلسة مدينة ، ولن تفرغ من ديونها إلا بعد عشرات وعشرات السنين ، ولن تصبح ذات يوم شعباً ذا مال وغناء .

وقد نقلت إلى المغرب من أبنائها نحو مليون ونصف ، هى اليوم فى أشد الحاجة إليهم فى بلادها ، لأن نسبة السكان فيها فى انهيار ، ولأنها تستخدم الملايين من العمال الأجانب ليعملوا فى أرضها وليسدوا هذا النقص المتزايد فى الجنس الفرنسى الأصيل .

وقد ضحت بألوف المغاربة للدفاع عن نفسها ، فلم تسلم من أن يخونها أبناؤها ويسلموها للعدو العنيد ، فذاقت بين سمع الدنيا وبصرها ذل الاستعباد وعرفت عار الخيانة ، وامتهنت كرامتها على نحو لم تعرفه قبل أن تكون لها امبراطورية أو مستعمرات ، وذلك فى ذاته من تقديرات العناية الإلهية الفياضة بالعبر ، لو كان الناس يعتبرون .

فهى لهذا لم تجن من وراء خيانة نفسها وخيانة من أوقعهم الله بين أيديها إلا مذلة

العار ، وذل الدين ووصمة خيانة المبادىء والأخلاق ، وقد أخذت فى الانحدار منذ بدأت تفعل فى المغرب هذه الأفاعيل ، ومضت أيام عزها مع أمس الدابر ، وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو أعدل العادلين .

وماذا خسر المغرب :

ثم ماذا خسر أهل المغرب من وراء ذلك كله ؟

لا زالت أم المغرب بخير ، ولا زالت أمماً إسلامية عربية تتوفر فى كيانها الحياة ، والمغربيون من غير شك اليوم خير منهم منذ مائة عام ، لم يمس المستعمر روحهم ، ولم ينل من قلوبهم منالا ، لقد جرد بلاد المغرب من أموالها ، واستصفى خيرات أرضها ، ولكنه يشعر الآن أنه لم يفعل شيئا ، لأن كتلة المغربيين لا زالت سليمة كريمة ، تستمسك بالإسلام وتتجه نحو العروبة ، وكأنما أحسن إليها المستعمر من حيث لم يحتسب ، لقد أغلق عليها الباب ومنع عنها النور ، فظلت كما هى حيث تركها ، وهى اليوم أحضر ما تكون وعياً وأسلم ما تكون جوهرا ، بل قد أنجبت من أبطال الحرية خلال هذا القرن المظلم عددا يحسدها عليه المستعمر نفسه ، وإذا ذكرت ما أوردته لك عن نظرة الفرنسيين الأول إلى الإسلام وإزدرائهم له ، واستهانتهم بالمغربيين ، فاقرأ الآن ما كتبه أحد أعلام الفرنسيين منذ عام فقط ، مسلما فيه بجلال الإسلام ومعترفا فيه بفضائل الجنس المغربى الكريم ، ومقررا فيه هزيمة أبناء جنسه فى كل ما رجوه من القضاء على المغرب وأهله وتحويله إلى بلد فرنسى كاثوليكى .

« فى مارس سنة ١٨٣٩ كتب الأمير عبد القادر إلى ملك فرنسا لوى فيليب يقول : لو أردت السلام حقا لاستطاع بلدانا أن يتحدا فلا يصبحان إلا بلدا واحدا ، ولعاش أقل رعاياك بين قبائلنا فى أمان تام ، ولأصبحت التجارة حرة فعلا .

« لو كنت تريد السلام حقاً لما كان من العسير أن يطرد امتزاج الشعبين يوما بعد يوم وبهذا تكون قد كتبت لنفسك سعادة إدخال الحضارة — التى يحمل النصارى مشعلها — إلى بلادنا دون أن تراق قطرة من الدماء .

« إن مشاكل الشمال الإفريقى الدائمة لا زالت على حالها منذ مائة وعشر من السنين ، ولم تزل كما هى منذ ثلاثة آلاف من السنين ، ولم تتغير إلا الظواهر ، وقد نشأت الفوضى التى تسود السياسة الفرنسية فى الجزائر عن تعلقنا بهذه الظواهر تعلقاً تاماً ... ولقد شهد تاريخ المغرب فى نواحيه الواسعة كثيراً من الإمبراطوريات الباهرة السريعة الزوال ،

طوتها جميعاً يد الحدثان ، ولقد صدق ا . ف جوتييه حينما قال : إن الدول فى المغرب أشبه ما تكون بعيش الغراب ، ينضج فى ليلة ويذبل فى ضحوة ، ولـكن رباطاً واحداً عَـبَر القرون وسما على الأحداث ، وهو يتوثق مع الزمان ويصبح عامل الاستمرار ، ذلك الرباط هو الإسلام ! وهو شىء أكثر من دين ، إنه عالم سياسى واجتماعى صقلته العقيدة صقلا . إن المسلم يجد نفسه فى وطنه ما دام فى بلد إسلامى أياً كان ، وإن نظامه الشخصى والدينى والاجتماعى يظل ثابتاً دون تغيير ما أقام فى دار الإسلام ، ومن هنا نتج أن معنى الوطنية عند المسلمين يخالف معناها عندنا نحن الغربيين ، وأن الحقائق الأرضية الجغرافية لا وجود لها عند الشعوب المستعربة .

وإنه لما يساعدنا على فهم الإسلام معرفة الرجال الذين خدموه ، لقد قدم الإسلام للعالم فلاسفة وأبطالا وأدباء وسياسيين . وحينما اتصلت فرنسا بشعوب الإسلام اتصالا وثيقاً وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام رجل ضم فى نفسه كل صفات الشعوب التى أخذت على نفسها مسئولية حكمها ، ذلك هو عبد القادر .

لقد ترك هذا الرجل طابعه الذى لا يمحى فى التاريخ الإفريقى للعلاقات بين أوروبا والعالم الإسلامى . . عن طريق هذا الرجل تستطيع أن تفهم معانى ذلك الإسلام الذى يعود إلى اليقظة بكل غرائزه وتقاليده وفلسفته ومطالبه[(١)] » .

ذلك اعتراف صريح بالهزيمة أمام أهل المغرب ممثلين فى شخصية بطلهم الخالد عبد القادر يحميهم ذلك الإسلام المجيد من كل ضير .

لم يخسر المغرب شيئاً ، وأمامه المستقبل الطويل المجيد .

***

ليبيا :

بقيت كلمتان عن ليبيا وبلاد الريف .

فأما ليبيا فقـد دهمها الاستعمار الإيطالى منذ ١٩١١ ، والإيطاليون أقل من الفرنسيين حضارة وأقل منهم خبرة فى مسائل الاستعمار وسياسة الشعوب ، ومن ثمَّ لم يتقيدوا فى سياستهم الطرابلسية بعرف ولا بخلق ولا بتقليد ، وضعوا يدهم على الأرض كلها بالغصب والقهر وأخذوا ينقلون أسرات إيطالية ويقيمونها فى الأراضى المغصوبة ، ويقدمون لهذه الأسر قروضاً

---

(١) نشر هذا الـكلام بتوقيع M.I كمقدمة لعدد مجـلة Le Monde illustre الخاص بالجزائر . ولم أستطع تعرف شخصيته الحقيقية .

تمكنهم من استغلال هذه الأراضى . ولما كان الإيطاليون شعباً معظمه من الصناع والزراع الفقراء فقد رحبوا بالفرصة وهاجروا آلافاً حتى كاد البلد يتحول إلى بلد إيطالى لو لم تتداركه رحمة الله بالحرب الأخيرة التى كسرت ظهر الإيطاليين وحالت بينهم وبين الإجهاز على شعب أعزل مسكين .

وإليك حقيقتان تجملان السياسة الإيطالية فى هذا القطر وهما تغنيان عن كل تعليق :

أصدرت الحكومة الإيطالية قانونين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٣ حرمت فيهما على الأهالى امتلاك الأراضى الزراعية ، ولم تُبِح لهم إلا امتلاك النخيل وأشجار الزيتون وحق استعمال أراضى المراعى .

واستقدمت المهاجرين بالآلاف حتى بلغ عددهم ٧٠٠٠ فى سنة ١٩٣٥ ووزعت عليهم أراضى الأهلين .

فى هذا كفاية ، وليقل الإيطاليون بعد ذلك إنهم أنشأوا المدن والطرقات والموانئ والمدارس والشركات ، ليقولوا ما يشاءون ، فهذه كلها لا تعنينا لأن شيئاً منها لم ينشأ لمصلحة أهل البلاد ، ولم يكن الغاصب ينوى إلا شيئاً واحداً وهو استئصال الليبيين . ولقد استأصل منهم بحد السيف بقدر ما سمحت به الظروف . إن مصير هذا البلد العزيز اليوم بيد المنتصرين ، وقد زعموا أنهم يستفتون أهله ، ولكننا لا نشك فى أنهم لن يأخذوا برأى الأهلين فى كثير أو قليل .

نبذة تاريخية عن مطامع اسبانيا فى مراكش :

كانت للإسبان فى المغرب خلال القرن السادس عشر آمال كبار ، فقد كانت دولتا بنى عبد الواد والحفصيين ضعيفتين فى أوائل هذا القرن ضعفاً شديداً ، واستقلت بلاد الساحل الهامة مثل تونس وبنزرته وبجاية والجزائر ووهران ، وسيطرت عليها جماعات من الملاحين صرفت همها إلى غزو السواحل الإسبانية لإنقاذ من تستطيع إنقاذه من المسلمين المعذبين فى إسبانيا وللفوز بما تستطيع اغتنامه من سواحل الإسبان وموانيهم وسفنهم . فنهض لهم ملوك الإسبان الكاثوليكيون يُحَرّضهم راهب شديد العصبية هو فرانتسكو خِيمِنس دثنيروس آلى على نفسه أن يحوّل المغرب إلى بلاد كاثوليكية ! وقاد الإسبان فى هذه الحرب الصليبية القائد « بِدرو فافارُو » . واستطاع الإسبان أن يحتلوا على الساحل المغربى مراكز فى موانئ المرسى الكبير ووهران وبجاية وفنانِس ودلّس وشرشل

ومستغانم ، بل احتلوا طرابلس نفسها سنة ١٥١٠ . ولو لم يتدارك الله المغرب بالإخوة الأتراك الأربعة عَرُوج وخير الدين وإسحاق وإلياس — الذين أنقذوا المغرب ببطولتهم وانتهوا بأن جعلوا الجزائر ولاية عثمانية — لطال أجل الإسبان فى المغرب . ثم اضطربت أحوال إسبانيا بعد ذلك اضطراباً أرغمها على ترك كل مراكزها على الساحل الإفريقى إلا سبتة ومليلة ، واجتهد سلاطين الدولة السعدية الشريفية فى مراكش فى القضاء على هذه البقية الباقية وتطهير بلادهم من الغزاة الدخلاء ، ولكنهم لم يستطيعوا استخلاص سبتة ومليلة من يد الإسبان .

وحينما ضعف أمر الدولة السعدية وأخذت عيون الأوروبيين تتجه نحو بلاد الإسلام من جديد ، كان الإسبان فى جملة الطامعين ، فتمكنوا من توسيع منطقة نفوذهم ، واستولوا على تطوان فى سنة ١٨٦٠ . ثم عقدت هدنة بينهم وبين السعديين تنازلوا فيها عن تطوان مقابل عشرين مليونا من الريالات الأسبانية .

مؤتمر الجزيرة الخضراء :

وبلغت أحوال أسبانيا خلال القرن التاسع عشر مبلغا من السوء جعل بلادها رمزاً للفوضى وموضعا لسخرية الأوروبيين أجمعين . ولكن فرنسا كانت طامعة فى مراكش ، ولم تكن لتجرؤ على مهاجمتها منفردة مخافة الإنجليز والألمان ، فلم تزل تغرى الأسبان حتى وقعوا معها معاهدة سرية فى مدريد قسمت مراكش بمقتضاها إلى مناطق ثلاث : فرنسية وإسبانية ودولية ، وأثار هذا الاتفاق مخاوف مولانا السلطان عبد العزيز سلطان مراكش إذ ذاك ، فدعا اثنتى عشرة دولة أوروبية إلى مؤتمر دولى فى الجزيرة الخضراء ظنا منه أن اجتماع الدول يؤدى إلى اختلافها وسلامة بلاده . ولكن المؤتمر لم يكد يجتمع فى السابع من إبريل سنة ١٩٠٧ حتى خيب ظنونه ، فقد قرر المؤتمرون ما يلى :

— احترام الدول الأوروبية لاستقلال مراكش ووحدة أراضيها

— فتح مراكش لتجارة الدول على السواء

— السماح لفرنسا وإسبانيا بتقديم مساعدات فنية ؛ لتنظيم الشرطة المراكشية فى بعض الموانئ .

وكان هذا البند الأخير هو الباب الذى نفذ منه كل البلاء .

فإن فرنسا ما زالت تتوسع فى استعمال هـذا الحق حتى انتهت إلى فتح مراكش وإلزام سلطانها مولانا السلطان عبد الحفيظ فى ٣ مايو سـنة ١٩١٢ بتوقيع معاهدة فاس ، وقد ورد فى هذه المعاهدة المشئومة بند يبيح للحكومة الفرنسية مفاوضة الحكومة الأسبانية فيما لها من مصالح جغرافية على شاطئ العدوة المراكشية . وتم الاتفاق بين فرنسا وإسبانيا فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٩١٣ . وعقد اتفاق بينهما فازت منه إسبانيا بالمنطقة التى تسمى الريف وهى شبه قوس يمتد من مجرى نهر مَـلَوية إلى حدود منطقة طنجة الدولية

أعطيت إسبانيا هـذه المنطقة لتنظمها ولتحضرها وتمشى بها إلى الأمام ، ولم يكن فى إسبانيا نفسها فى ذلك الحين نظام أو حضارة أو سير إلى الأمام ! ولـكن الدول الأوروبية اعترفت لأسبانيا بهذا الوضع . وذلك فى ذاته خيانة من الخيانات التى لا تنتهى ، والتى اقترفها هؤلاء الأوروبيون فى حق الحضارة والحرية والنظام .

بل كان أحرار الأسبان أنفسهم من أعداء فـكرة التوسع فى مراكش ، ولـكن أحرار الأسبان فى كل زمان ضحية الرجعيين ورجال الدين فى هـذا البلد ، وكانت هذه المنطقة معتبرة نظريا جزءاً من سلطنة مراكش ، وأعطى السلطان الحق فى تعيين خليفة له فى المنطقة الأسبانية .

ولم يكد الأسبان يضعون أيديهم على هذا الإقليم حتى أسدلوا عليه ستاراً من حديد ، فلم يعد أحد يعرف عن أهله شيئاً . وليس أدل على ذلك مما يقوله جوتييه أعظم جغرافيى الشمال الأفريقى والعارفين بشئونه ، فقد قال فى سنة ١٩٣٥ : « إن معرفتنا عن هذا الإقليم سيئة جداً ! » ولا تعرف بقية العالم عنه أكثر مما يعرف جوتييه .

فإن البلاد لم تدرس الدرس الـكافى ولم تنظم التنظيم المطلوب وتراجعت المنطقة على يد الأسبان إلى الوراء خطوات ، لأن الأسبان لا يملـكون فضلا من نظام أو حضارة يهبونه للناس .

ولو لم تتدخل فرنسا لحماية المصالح الأسبانية لإخماد ثورة الأمير عبد الـكريم فى سنة ١٩٢٤ لاستقلت هـذه المنطقة من ذلك الحين ولرفرف عليها علم الحرية منذ سنين ، لأن الحـكومة الأسبانية كانت قد فاوضت الأمير فى الصلح فعلا .

عادت إسبانيا إلى السيطرة على المنطقة منـذ منتصف سنة ١٩٢٦ وقررت أن تسير على أسلوب من العنف يقضى على مسلمى المنطقة قضاء ، وأحبت أن تقتدى فى ذلك بالفرنسيين .

ثم قامت الحرب الأهلية الإسبانية ، ومن غرائب المقادير أنها نشأت فى المنطقة الخليفية ، أعلن فرانكو ثورته فيها واستقل بها عن مدريد واحتاج إلى عون المراكشيين الأشداء فوعدهم بالخير إذا هم عاونوه ، وقد انتهز سمو خليفة المنطقة الخليفية هذه الفرصة وأعلن استقلال وزارتى العدل والأوقاف عن الإدارة الأسبانية وأرسل إلى مصر بعثة ثقافية ، لعلها أول بعثة علمية مغربية تصل بلداً شرقيا . وأسس فى القاهرة بيت المغرب ومكتبة التبادل الثقافى ، وهذه كلها مفاخر تذكر بالشكر الجزيل لهذا الأمير الكريم .

والإدارة الأسبانية فى هذه المنطقة لا تزال ينقصها الكثير من المرونة وحسن النظر حتى تستطيع أن تؤدى لأهلها خدمة طيبة .

بيد أن العزاء الوحيد عن ذلك كله هو أن الأسبان أنفسهم فى بلادهم فى مثل هذا الحال السيء من ضياع الحريات وضيق المعاملات » .

حسين مؤنس

سياسة أسبانيا فى المغرب العربى

للأستاذ محمد أحمد بن عبود

ظل الأسبان منذ زمن بعيد ينظرون إلى المغرب العربى — تونس والجزائر ومراكش — على أنه يؤلف مع أسبانيا وحدة جغرافية واقتصادية ولذلك بدأ اهتمامهم بالسيطرة عليه سياسيا قبل أية دولة أخرى ، ويتمثل ذلك فى محاولتهم النزول إلى تونس والجزائر ومراكش فى فترات مختلفة من التاريخ بعد سقوط الأندلس مباشرة .

ولقد بذلت أسبانيا أثناء القرن التاسع عشر جهوداً يائسة للاستيلاء بمفردها على مراكش ، ولكن فرنسا استطاعت أن تتغلب عليها بحكم احتلالها للجزائر . وتم الاتفاق بين الدولتين أولا على اقتسام البلاد بشكل يكاد يكون مناصفة . ولكن فرنسا فى آخر لحظة لم تسمح لها إلا بالاستيلاء على منطقة صغيرة فى الشمال مساحتها ٢٠ ألف كيلو مربع بينما تقارب مساحة البلاد ٦٠٠ ألف كيلو مربع .

فلما خضعت هذه المنطقة الصغيرة لنفوذ الأسبان بدأوا يحققون فيها هذه الفكرة واتخذوها فى نفس الوقت مركز ارتكاز يتحينون منها الفرص لتحقيق الوحدة السياسية مع المغرب العربى تحت سيطرتهم .

وتسير السياسة الإسبانية فى المنطقة التى تخضع للنفوذ الإسبانى شمال مراكش وفق خطة مرسومة وضعت منذ بضعة قرون ، وتتجه هذه السياسة إلى أهداف واضحة محددة ، وقد اجتازت هذه السياسة عدة مراحل ، وتلون تنفيذها بحسب الظروف والأحوال المتغيرة ، ولكن الأهداف والمبادىء الرئيسية لهذه السياسة لم تتأثر بالأحداث السياسية الداخلية فى إسبانيا ولا بالتطورات الكبيرة والانقلابات فى السياسة الدولية .

وقد اعتمدت إسبانيا على عدة عناصر قوية للقيام بتنفيذ خطتها المحكمة وزودتها بكل ما يلزمها من وسائل مادية ومعنوية ، ونستطيع بواسطة تحديد هذه العناصر وتحليل وسائلها وعرض أعمالها أن نصل بسهولة إلى لمس تلك الأهداف التى ظلت إسبانيا تسعى إلى تحقيقها ولا تزال تعمل بمختلف الوسائل للوصول إليها .

وقد كانت الكنيسة والامتيازات الاجنبية والجيش ثم الإدارة الأدوات الفعالة فى تنفيذ سياسة إسبانيا فى المغرب ، ولذلك نرى من المهم عرض الدور الذى لعبه كل منها فى هذا السبيل ، وبذلك نستطيع أن نتصور حقيقة السياسة التى تسير عليها إسبانيا فى شمال مراكش ، وندرك أهدافها بالنسبة للمغرب العربى كله . ويتضح من التطور التاريخى للعناصر المذكورة أن الكنيسة كانت أول من اضطلع بتلك المهمة ، ثم أضيف إليها عنصر الامتيازات الأجنبية ، ولما دخلت إسبانيا إلى شمال مراكش تضافرت جهود الجيش والإدارة مع الكنيسة على تحقيق غاية إسبانيا من تلك السياسة .

ويرجع تاريخ قيام الكنيسة الإسبانية بمهمتها فى المغرب العربى إلى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، وقد وقع الاختيار على جماعة الفرانسيسكان لما تمتاز به هذه الطائفة من الصبر ، وتحمل الآلام والمشاق ، بوحى من مبدئها الذى يقوم على الزهد والتقشف ، وكانت هذه الصفات لازمة لمن يريد أن يقوم بمهمة خطيرة فى ذلك الوقت ، داخل (أراضى الأعداء) وبناء على ذلك دعا القسيس سان فرانسيسكو دى آسيس مؤسس المذهب إلى مؤتمر عقد فى جبال البرانس فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى ، وحضره ٥٠٠٠ راهب ، وتقرر فيه وجوب القيام بمهمة تعليم (قانون الإنجيل للشعوب الكافرة) وحدد المؤتمر أهم منطقة لتلك الشعوب بالأراضى التى كان العرب يحتلونها يومئذ فى الأندلس ، وشمال أفريقيا . ولم تكن ظروف ذلك الوقت تسمح بإرسال بعثة كبيرة العدد ، ولذلك قرر المؤتمر الاكتفاء بإرسال بعثة مكونة من ستة من الفرانسيسكان . وقصدت البعثة فى بادئ الأمر أشبيلية وبدأت تقوم بمهمة التبشير فيها جهاراً ، حتى اضطر الحاكم العربى للمدينة إلى إبعاد أفرادها ، فهاجروا إلى مراكش فى نفس السنة ، وأقاموا فى العاصمة ، حيث جعلوا يقومون بمهمتهم علناً فى إنقاذ الأرواح ، وتعليم قانون الإنجيل (للشعوب الكافرة) كما كانوا يقولون ، فبلغ ذلك السلطان أبا يعقوب المستنصر بالله فطردهم من العاصمة ، فذهبوا إلى مدينة سبتة وبعد الإقامة فيها سنة واحدة رجعوا إلى العاصمة ، وأعادوا الكرة للقيام بمهمتهم ، فألقت الحكومة المراكشية القبض عليهم وأعدمتهم سنة ١٢١٢ ، وكان سبب الإعدام هو تجاوزهم حد اعتقادهم بدينهم والتعبد به وفق ما تسمح به المبادئ الإسلامية إلى محاولة التبشير به جهاراً والقيام بالدعاية لدولتهم . وقد رجعت الحكومة المراكشية فى سنة ١٢٢٥ ، وأذنت لطائفة أخرى من الرهبان بتأسيس خمسة معابد ليقيموا داخلها طقوسهم الدينية . وفى القرن الخامس عشر أنشأ جماعة الفرانسيسكان فروعاً أخرى فى طنجة والعرائش .

وكانت هذه الجماعة قد زارت ملك البرتغال الفونسو الثانى قبل أن تذهب إلى إشبيلية ثم إلى مراكش فى أوائل القرن الثالث عشر ، فرحب بأعضائها وأكرمهم وأمدهم بالمال للاستعانة به على أداء مهمتهم فى الأندلس وشمال أفريقيا . فلما بدأت الجيوش البرتغالية تحتل شواطئ مراكش بعد ذلك ، كانت جماعة الفرانسيسكان بمثابة ما يعرف اليوم باسم الطابور الخامس، كما قاموا بمثل هذا الدور أيام الحرب المراكشية الأسبانية سنة ١٨٥٩ ، وكان الاحتلال البرتغالى للمدن المراكشية على شاطئ البحرين الأبيض والأطلسى يفسح أمامهم المجال لإنشاء الكنائس والمؤسسات ، والقيام بمهمتهم فى نشر عقيدتهم . وظل نشاطهم مرتبطا بالجيش البرتغالى يضيق ويتسع بحسب تقدمه وتقهقره ، ثم انقرضت حركتهم بانقراض الاحتلال البرتغالى حتى انحصرت فى مدينة سبتة ، ثم عادت إلى الظهور فى القرن السابع عشر فى صورة جديدة حيث أن الحكومة الأسبانية بدأت ترسل منهم سفراءها إلى مراكش للمفاوضة فى شئون الأسرى ، إلى أن سمح لهم السلطان مولاى اسماعيل بإعادة مؤسساتهم فى تطوان وسلا والرباط . وفى القرن الثامن عشر أعطيت لهم بعض الحقوق المتعلقة بالإقامة ومباشرة العبادة . فى هذا الوقت جاء القسيس برتلومى خيروس سفيراً لأسبانيا فى مراكش ، فساعدتهم هذه الصفة الرسمية على تقوية نشاطهم ، وقد وقفت حركتهم تماما فى سنة ١٧٩٠ بمناسبة قيام الحرب بين مراكش وأسبانيا ، فلما انتهت بعد أربع سنوات عادوا إلى نشاطهم . وفى سنة ١٨١٦ أصدر السلطان مولاى سليمان العفو عن جميع الأسرى المعتقلين وأطلق سراحهم ، فقامت جماعة الفرانسيسكان بتنظيم شئونهم فى مراكش ، وقد عين فيها عدة قناصل لأسبانيا من الرهبان ، منهم مرتين دى أروساريو قنصلها فى طنجة ، وسمح لهم بإنشاء بعض الملاجئ الخيرية والمعاهد الدراسية فى بعض المدن الساحلية .

وعند ما فرضت الحماية على مراكش ، وقسمت إلى منطقة تحت الحماية الفرنسية ومنطقة النفوذ الأسبانى ، ومنطقة طنجة ، تلونت حركة الفرانسيسكان مع هذا الظرف وانقسمت إلى قسمين مستقلين ؛ اتخذ الأول مركزه فى الرباط واختص بمنطقة الحماية الفرنسية ، واتخذ الثانى مركزه فى طنجة واختص بمنطقة طنجة ومنطقة النفوذ الأسبانى . ويدل هذا التقسيم دلالة واضحة على أن مهمة جماعة الفرانسيسكان كانت سياسية أكثر منها دينية . فبينما بقى نشاط مركز الرباط يتابع أعماله فى دائرته السابقة نرى مركز طنجة قد نسق عمله مع السلطات الأسبانية فى المنطقة الخليفية فوسع نطاق أعماله ، وأنشأ فروعا فى جميع المدن والقرى وصار يشرف على كثير من الشئون الاجتماعية والإدارية مثل التعليم والطبع والنشر وعرض

الأفلام وإقامة المستشفيات ، وقد أمدته السلطات الأسبانية بنفوذ سياسى وعينت له مخصصات كبيرة من الميزانية المراكشية .

وقد كان نفوذ جماعة الفرانسيسكان وسيطرتهم على الشؤون الثقافية سببا فى تدهور التعليم بمنطقة مراكش الشمالية لأن مذهبهم — كما يقول الأب خوس لبيس — يقوم على تغليب الروح على الفكر ولذلك استحبوا الزهد على التعليم كما استحبوه على متاع الدنيا كلها .

وهكذا نستطيع بواسطة هذا العرض الموجز أن نتبين أهم الأهداف التى ترمى السياسة الأسبانية إلى تحقيقها فى المغرب العربى معتمدة على جهود الكنيسة فى أن تستغل جماعة الفرانسيسكان لاستعمار البلاد روحيا كما تعتمد على الجيش فى الاستعمار المادى .

* * *

كانت الامتيازات التى يتمتع بها الأسبان فى مراكش من أهم الوسائل التى استغلتها أسبانيا للسيطرة على المغرب ، ويرجع أساسها إلى المعاهدة التى أبرمت بين مراكش وأسبانيا فى مدينة مكناس سنة ١٧٩٩ ، ثم اتسع نطاقها فى معاهدة الصلح على أثر انهزام الجيش المراكشى فى موقعة تطوان سنة ١٨٦٠ ، وقد ساعد ضعف مركز الدولة المراكشية فى القرن التاسع عشر أسبانيا على التوسع فى التفسيرات وتحميل تلك النصوص ما لا تحتمل ، وبقدر ما كان يزداد ضعف مركز الدولة المراكشية كان يتسع نطاق تلك الامتيازات من غير اعتماد على اتفاق دولى أو تشريع مغربى ، وقد حاولت الحكومة المراكشية باحتجاجاتها أن تحد من طغيان هذه الامتيازات ولكن ظروفها لم تساعدها على ذلك .

وكانت الامتيازات تنقسم إلى عامة وخاصة ، وتتلخص العامة منها فى النقط الآتية :

١ — حق الإقامة والتنقل :

لما بدأت أسبانيا تعقد معاهدات الأمن والتجارة مع مراكش صار رعاياها من المستأمنين ، وأعطى لهم حق الإقامة والتنقل ، وصار دخولهم إلى مراكش والتنقل والإقامة فيها لا يحتاج إلى إذن خاص .

٢ — حرمة المساكن :

نص فى المعاهدة المبرمة بين أسبانيا ومراكش سنة ١٨٦٣ على أن (مساكن الأسبان ومتاجرهم موقرة ، ولا تفتش إلا بإذن القنصل الأسبانى فى مراكش) .

٣ — حق العبادة :

كذلك سجل فى تلك المعاهدة حق حرية العبادة للجالية الأسبانية ، ولكنهم أساءوا استعمال هذا الحق وجعلوا يبشرون بدينهم فى مراكش كما لو كانت هذه البلاد مجموعة من القبائل المتوحشة لا دين لها .

٤ — حق التجارة :

أعطى هذا الحق للرعايا الأسبان فى المعاهدات السابقة ولكنهم استغلوه فى خلق حماية السماسرة الذين استغلوهم فى التجارة والسياسة معا .

تلك هى الامتيازات العامة التى استغلتها أسبانيا للسيطرة على المغرب ، وانتهت آخر الأمر بأن صارت قيداً خطيرا على سيادة هذه البلاد قبل فرض الحماية . أما بعد ذلك فقد صارت القاعدة العامة هى أن يتمتع الأسبان فى مراكش بجميع الحقوق العامة التى يتمتعون بها داخل أسبانيا ، كحرية النشر والاجتماعات العامة وتأسيس الجمعيات ، وهذه الحقوق مضمونة لهم بتشريعات خاصة ، فإذا وردت قيود على بعضها فعلى سبيل الاستثناء ، أما بالنسبة للمراكشيين فإن القاعدة هى منعهم من تلك الحقوق ، وإذا سمح لهم بالتمتع ببعضها فعلى سبيل الاستثناء .

وتتلخص الامتيازات الخاصة فى النقط الآتية :

١ — الامتياز القضائى :

نص فى معاهدة سنة ١٨٦٣ على (أن الحكم فى المنازعات بين الأسبان أو الأجانب والأسبان يكون من اختصاص القنصل الأسبانى ، أما المنازعات بين الأسبان والمراكشيين فالمدعى يتبع المدعى عليه) . وكان القنصل الأسبانى زيادة على ذلك يختص بتحديد الحالة المدنية لرعاياه ، ويشرف على الشئون الدينية ويختص بإبعاد وإلقاء القبض على الفارين من الجندية من أسبانيا ، وكان يتدخل فى تقدير الضريبة المقررة على الرعايا الأسبان وجبايتها . وبعد ما خضعت المنطقة الخليفية للنفوذ الأسبانى أنشئت بها محكمة أسبانية على أساس هذه الامتيازات ، وقد طغى اختصاصها اليوم على جهات القضاء المراكشى .

٢ — الامتياز المالي :

كان الأسبان كغيرهم من الأجانب لا يدفعون الضرائب العقارية حيث لم يكن يباح لهم تملكها في مراكش ، إلى أن أعطى لهم هذا الحق في معاهدة مدريد سنة ١٨٨٠ ، وقد حاولت الحكومة المراكشية أن تفرض عليهم نفس الضرائب التي كانت مفروضة على المراكشيين في سنة ١٩٠٢ ، ولكنها لم تستطع بسبب ضعف مركزها في ذلك الوقت وقد استغلت إسبانيا هذا الامتياز ، بعد أن فرضت نفوذها على المنطقة الخليفية ، وذلك بإرهاق كاهل المراكشيين بالضرائب وإعفاء الإسبان منها .

٣ — حق التملك العقاري :

أحرز الأسبان هذا الحق بمقتضى معاهدة مدريد كما ذكرنا . وقد استغلت إسبانيا هذا الامتياز بعد دخولها إلى المنطقة الخليفية بشكل واسع النطاق ، واتخذت منه أساساً لنزع ملكية الأراضي من يد المراكشيين وتمليكها للإسبانيين الذين هاجروا لهذه الغاية .

***

سكان المنطقة الخليفية لا يتجاوز عددهم مليونا واحدا ، ومساحة المنطقة كلها ٢٠ ألف كيلو متر ، ومع ذلك يوجد فيها جيش إسباني قوامه ٨٠ ألفاً من الرجال ، ولذلك ليس من المعقول أن تكون مهمة هذا الجيش مجرد القيام بالمحافظة على الأمن ، بل لابد أن تكون له مهمة أخرى أكثر خطورة من ذلك ، وسنعرض هنا بعض التقسيمات وتوزيع الاختصاصات والمهمات التي يقوم بها جانب من هذا الجيش في المنطقة الخليفية ، لعل ذلك يكشف لنا عن مهمته الحقيقية .

تحكم المنطقة الخليفية حكما عسكريا والوظائف المدنية تابعة أو مساعدة للجيش ، ويعد المقيم العام الإسباني في تطوان الرئيس الأعلى للجيش والحاكم العسكري ، وتتفرع عن المقيمية شبكة من التقسيمات تسيطر سيطرة تامة على مختلف المرافق الإدارية ، وسنتحدث عن الإدارة فيما بعد ، ونقصر الحديث هنا على النواحي التي تكشف لنا عن الأهداف السياسية التي أعد هذا الجيش لتحقيقها .

يوجد في الجيش الأسباني بالمنطقة الخليفية قسم كبير مهمته الأعمال التي يقوم بها البوليس السياسي عادة ، وتدخل تحت هذا القسم عدة مكاتب يشرف الأول منها على شؤون

الهجرة الإسبانية إلى مراكش ، وجوازات السفر والدعاية ، ويقوم الثانى بمهمة الاستعلامات ومقاومة الشيوعية والماسونية والحركة الوطنية المراكشية ، ويختص المكتب الثالث بشئون الأجانب ويتبعه قسم البوليس الحربى السرى المتنقل ، ويشتمل المكتب الرابع على قوة مسلحة مهمتها الفتك بالأفراد والهيئات التى يقرر مكتب الاستعلامات وجوب التخلص منها ، وقسم الاستعلامات فى هذا الجيش هو أخطر أقسامه ، وقد نظمه الأسبان بمساعدة الخبراء الألمان الذين التجأوا إلى إسبانيا بعد الحرب الماضية ، ويتصل بالمقيم عن طريق أركان الحرب ، وهناك مراكز فى جميع مدن المنطقة تحتوى على جميع تلك الفروع ، لتكون على اتصال دائم بعضها ببعض ، وتمتد دائرة القسم ونشاطه خارج المنطقة الخليفية ، فهو يتتبع نشاط الحركة الوطنية فى أقطار المغرب العربى بصفة عامة ، ويهتم بالحركة الوطنيـة المراكشية فى المنطقة التى تخضع للحماية الفرنسية ، كما يتتبع السياسة فى بلدان الشرق العربى ، وعلى الخصوص النشاط الذى يقوم به المغاربة فيها .

يتضح من كل ذلك أن مهمة هذا الجيش لا تقف عند حدود المنطقة الخليفية ، بل تتعدى ذلك من غير شك ، وإذا انتبهنا إلى انتقال القوات الكبيرة من هذا الجيش إلى داخل إسبانيا كلما حدث اضطراب فيها أدركنا أن مهمته حماية نظام فرانكو الفاشيستى ، وإذا تذكرنا انقضاضه على منطقة طنجة لاحتلالها سـنة ١٩٤٠ فى نفس اليوم الذى سقطت فيه باريس أدركنا أيضاً أن من مهمة هذا الجيش تحين الفرص لاحتلال أقطار المغرب العربى ، وإخضاعها للاستعمار الإسبانى .

* * *

وجود إسبانيا فى المنطقة الخليفية لا يعتمد على اتفاق مباشر بين إسبانيا ومراكش ، وإنما يعتمد على اتفاقية سرية أبرمت بين فرنسا وإسبانيا فى سنة ١٩٠٤ ، ثم معاهدة أبرمت بينهما فى سنة ١٩١٣ ، وقد نص فى المادة الأولى منها أن (إسبانيا ستساعد الحكومة المراكشية على إدخال إصلاحات ضرورية فى الإدارة والاقتصاد والمالية والتشريع والعسكرية وغيرها) ومعنى النص واضح فى أن مهمة إسبانيا ستقتصر على المساعدة ، وأن إدارة البلاد ستبقى فى يد الحكومة المراكشية ، ولكن الذى حصل يخالف ذلك تماماً فى السياسة التى سارت عليها إسبانيا فى المنطقة الخليفية رامية إلى هدف معين ، وهو أن تصبح إدارة هذه البلاد تحت سيطرة الأسبان ، وأن يباشر العمل فيها موظفون اسبانيون ، وأن تسير على نفس المنهج الذى تسير عليه الإدارة داخل إسبانيا ، والوصول من كل ذلك إلى حكم هذه البلاد حكما مباشرا ، وقد تركت

السلطات الإسبانية الحكومة المراكشية جانبا كأداة عاطلة ، واستحوذت على عناصر السيادة ، ويكفى أن نذكر أن الإدارة الإسبانية تكلف الميزانية المراكشية عشرة أمثال ما تكلفه الحكومة المراكشية كلها .

وتتركز السلطة فى يد المقيم العام الإسبانى تساعده « النيابات » التى هى بمثابة وزارات ، كما ينوب عنه فى مباشرة السلطة التنفيذية مراقبون فى جميع المدن والقبائل .

وقد صدر مرسوم من إسبانيا فى ١٢ يوليو سنة ١٩٢٤ بشأن تنظيم اختصاصات المقيم العام الإسبانى فى المنطقة الخليفية ، تركزت بمقتضاه مباشرة السيادة الخارجية والداخلية للمنطقة الخليفية فى يد المقيم العام الإسبانى ، فجاء فيه أنه يختص بتمثيل إسبانيا فى مراكش ، وهو وحده الوسيط فى الاتصال بين الحكومة المراكشية فى المنطقة والدول الأجنبية ، وهو الذى يشرف على تحضير ميزانية المنطقة ، وعلى تنفيذها ، والمصادقة على ما يصدره سمو الخليفة من مراسيم ، وما يصدره رئيس الحكومة المراكشية من قرارات ، يضاف إلى ذلك حقه فى إصدار قرارات فى كل ما يتعلق بشئون الجالية الأسبانية ، وهو المرجع فيما يتعلق بالسياسة الداخلية العليا وبخاصة شئون الموظفين . وفى ٨ نوفمبر سنة ١٩٤١ صدر مرسوم آخر من إسبانيا أعيد بمقتضاه تنظيم اختصاص المقيم العام ، فأضيف إلى الاختصاصات السابقة اعتباره ممثلا لأسبانيا فى جميع مستعمراتها فى إفريقية ، كما نظم العلاقات بين المقيمية فى تطوان والحكومة الإسبانية فى مدريد ، وهذه الخطوة تدل دلالة واضحة على ما ترمى إليه السياسة الإسبانية من إلحاق هذه المنطقة بالمستعمرات ، ثم ضمها إلى إسبانيا فى النهاية ، وطريقة سياسة الحكم المباشر التى سارت عليها السياسة الإسبانية فى المنطقة الخليفية تؤكد ذلك كل التأكيد .

وتساعد المقيم العام خمس نيابات ؛ وهى نيابة الشئون الوطنية والثقافة والأشغال والاقتصاد والمالية .

وتختص نيابة الشؤون الوطنية بأعمال وزارة الداخلية ومراقبة الحكام المغاربة ، ولها فى كل قبيلة ومدينة مراقب بيده السلطة الفعلية وبجانبه حاكم مغربى كتابع له ، وتشرف هذه النيابة على البلديات والعدلية الإسلامية والأوقاف وأملاك الحكومة المغربية وشؤون الموظفين المراكشيين ، وبها قسم للاستعلامات يحتوى على جيش من الجواسيس يقومون بمراقبة كل فرد وكل عائلة فى المنطقـة ، وقلما نجا أحد من أذاهم ، ولا حصر للمآسى الإجرامية والأخلاقية التى سببوها للبلاد ، ولعل هذه هى المهمة الرئيسية لتلك النيابة .

وتشرف نيابة الأشغال على الناحية العمرانية والزراعية ، ولا دخل لأى موظف مراكشى فى هذه الشئون ، وتسير السياسة فى هذه الشئون بتوجيهها لصالح الجالية الإسبانية فى مراكش .

وتقوم نيابة المالية بالإشراف على ميزانية المنطقة الخليفية ، فتعمل على تحضيرها وعلى تنفيذها وعلى جباية الضرائب مساعدة للمقيم العام ، ولا دخل للحكومة المراكشية فى المسائل المالية حتى بصفة استشارية .

ونيابة الاقتصاد تهيمن على كل ما يتعلق بالإنتاج والتوزيع ، وتتبع سياسة الاقتصاد الموجه ، وبذلك استطاعت أن تهيئ الفرص للاسبانيين للحصول على ثروات واسعة على حساب إفقار المراكشيين ، وبالرغم من تزايد عدد الأسبان فى مراكش بالهجرة المستمرة لا تجد عاطلا منهم عن العمل ومن يشتكى من نزول مستوى حياته ، بينما يجد المراكشيون سبل العيش مقفلة فى وجوههم وقد مات مائة ألف من المراكشيين سنة ١٩٤٣ — ١٩٤٤ بسبب المجاعة فى منطقة الريف .

أما نيابة الثقافة والتعليم فهى المستحوذة على جميع شئون الفكر والثقافة والتعليم للمراكشيين والأسبان ، والسياسة التى تسير عليها هى تقوية الثقافة الأسبانية ومقاومة الثقافة العربية ، وتجد ازدياداً مطرداً فى عدد المدارس والمعلمين والتلامذة الأسبان فى الاحصاءات التى تذيعها كل سنة نيابة الثقافة ، بينما تجد عكس ذلك فيما يخص التعليم العربى وللدلالة على هذه السياسة ننقل هنا فقرة من مذكرة رسمية قدمها الأستاذ محمد داود مدير المعارف المراكشى إلى نائب الثقافة فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٦ وهذا نصها حرفياً :

(لا تتمتع إدارة المعارف المغربية فى وضعيتها الحاضرة بأية سلطة حقيقية فى التعليم المغربى ومهمتها محصورة فى تقديم المطالب والاقتراحات إلى « نيابة التربية والثقافة » والإجابة على المكاتبات أو الأسئلة التى تصلها منها ، ولنيابة التربية والثقافة مطلق الحرية فى أن تقبل أو ترفض من مطالب الإدارة المغربية ما تشاء ، وأن تضع من القوانين والأنظمة والميزانيات للتعليم المغربى ما تريد ، دون رجوع إلى الإدارة المغربية ، وبما أن نيابة التربية والثقافة هيئة أسبانية يتولى أمورها موظفون أسبانيون مهما تكن مكانتهم الإدارية والثقافية فهم أجانب عن التعليم المغربى ، وليس لهم من الاطلاع على مشاكله والشعور بحاجاته والغيرة عليه ما للمغاربة ، وليس لهم بطبيعة الحال من الاهتمام بالتعليم المغربى بقدر ما لهم من الاهتمام بالتعليم الأسبانى ، فقد وجهت نيابة الثقافة اهتمامها الأكبر إلى التعليم الأسبانى ، وأصبح التعليم المغربى نوعاً ثانوياً على هامش التعليم الأسبانى ، وهذه الوضعية الإدارية هى التى جعلت التعليم المغربى يصل إلى الحالة التى وصل إليها من الضعف والإهمال) .

ثم استمرت المذكرة فى تحليل السياسة التى تسير عليها النيابة فى محاربة الثقافة العربية والتقاليد الإسلامية فى مراكش ، مستدلة على ذلك بالإحصاءات والوقائع الرسمية .

تلك هى الأهداف التى ترمى إليها السياسة الإسبانية فى المغرب العربى وبعض الوسائل التى تعتمد عليها ، ويحسن بنا قبل أن نختم هذا الفصل أن نشير إلى أن سياسة التملق للعرب لم تكن مطلقا من الوسائل التى اصطنعتها إسبانيا داخل المغرب .

ومن الغريب أن الأسبان يميلون إلى اصطناع هذه السياسة فى بلدان الشرق العربى لاستغلال ما يدعى بعلاقات تاريخية ، وذلك لغرضين . أولهما استعطاف دول الجامعة العربية للاستفادة من مركزها فى العالم الدولى ، وعلى الخصوص فى هذه الظروف التى توجد فيها إسبانيا فى شبه عزلة دولية ، وثانيهما صرف نظر دول الجامعة العربية عن السياسة الاستعمارية التى تسير عليها إسبانيا فى المغرب العربى .

« محمد بن عبود »

الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى

للأستاذ علال الفاسى

لم يسجل التاريخ صفحة من صفحات الكفاح القومى أنصع ولا أقوى من كفاح شعوب المغرب العربى فى سبيل الدفاع عن حريتها واستقلالها ، ومقاومة الاعتداءات الاستعمارية التى دبرتها ضدها أمم لاتينية مدفوعة بتعصبها الدينى وشرهها للسيطرة واستعباد الغير .

ولئن كان المغرب العربى ما يزال حتى الآن يرزح تحت ثقل الاستعمار الأجنبى فليس ذلك إلا لأن هذه الأمم اللاتينية تعاند كل العناد فى الاعتراف بالحق ، وتأبى أن تتقهقر أمام القوات التحريرية ما دامت تجد من غفلة الإنسانية وتغاضى المتمدينين ما يفسح لها مجال الاتحاد المؤقت للثورات التى ظلت أفريقية الشمالية مسرحا لها منذ مائة وسبع عشرة سنة .

وإذا كان تغلغل الاستعمار الفرنسى فى الجزائر هو الذى مهد السبيل لتحقيق المطامع الأجنبية فى الشرق العربى فإنه لا يمكن أن يطمئن عرب المشرق على ديارهم وأمنهم ما دامت أمم المغرب العربى خاضعة للمستعمرين ، وما دامت ديارهم قنطرة يمكن أن يجتازها الفاتحون ليصلوا إلى أهدافهم فى هذا السد الإسلامى الذى حكم أسلافنا العرب فى مصير العالم كله .

لذلك تعتبر الحركات الاستقلالية المغربية ذات أهمية عظيمة لا للمغاربة وحدهم بل لسائر العالم العربى الذى ينشد الاستقرار والطمأنينة والعدل والحرية . ويحق للعرب فى سائر الدنيا أن يعنوا بهذه الحركات ويؤيدوها عنايتهم بالحركات المشرقية ، خصوصا وأن القائمين بها معرضون أكثر من غيرهم لعجرفة الأجنبى وغطرسته ولدسائسه ومكره لاسيما بعد ما جربه المستعمرون من دهاء العرب وحسن تدبيرهم فى الأقطار العربية التى حصلت على قسط لا يستهان به من الاستقلال .

***

اعتدت فرنسا على الجزائر فى وقت كانت السيادة فيها للدولة العثمانية التى لم تستطع من المقاومة إلا قليلا ، ولكن ما استسلم الولاة الأتراك فى الجزائر حتى بدأت المقاومة العربية التى افتتحها وصول الجيش المراكشى فى أكتوبر سنة ١٨٣٠ لمدينة تلمسان ، حيث استطاع

نائب سلطان المغرب القائد أبو الحسن أن يؤلب قبائل الناحية من حوله ويسير بهم لمقاومة الفتح الفرنسى والاستسلام التركى ، ثم انضم إليهم الأمير محيى الدين عبد القادر البطل الجزائرى الشهير ، فكان له فضل تأسيس المملكة الجزائرية العربية المستقلة .

استمر الأمير الجزائرى يدافع عن استقلال مملكته الفتية المستقلة ستة عشر عاما كاملة انتهت بانتصار القوة الغاشمة على الحق . وكانت السلطة الفرنسية تغرس خلالها نفوذها فى داخل البلاد ، ولكن لتزرع فى نفوس الأهالى روح الثورة الدائمة التى ظل الضغط يخمدها أحياناً ، ولكن الطموح للتحرر يبعثها لتعلن حكم الشعب الجزائرى الذى لا يرضى بغير الاستقلال بديلا .

وقد رمت سياسة نابليون إلى التوفيق بين مطمح الأهلين ومصالح فرنسا وذلك باعلان المساواة التامة بين العرب وبين الفرنسيين ، ولكن ذلك هاج هؤلاء الأخيرين الذين قاوموا كل عدل وانصاف للعرب . وما سقطت الإمبراطورية سنة ١٨٧٠ حتى تقدم « غامبتا » رب الجمهورية الثالثة باعلان قانون (الأنديجينا) وتأسيس مبدأ الاستثناءات التشريعية .

ويعتبر هذا التحول فى السياسة الجزائرية فاتحة عهد الاستعباد الغاشم والاضطهاد الماكر فى الجزائر ، أى فى شمال أفريقيا كلها ، لأن الجزائر كانت المدرسة التى أخرجت أساتذة الغطرسة الاستعمارية الفرنسية .

وإزاء هذه التدابير الظالمة التى تبعتها سلسة من الاضطهاد الدينى والعنصرى ثارت الجزائر مرة أخرى ثورة اندلع لهيبها فى بلاد زواوة ومقاطعة قسنطينة وعمالة الجزائر . وكان يتزعم الثورة الباش أغا الحاج محمد المقرانى والشيخ محمد الحداد شيخ الطريقة الرحمانية الدرقاوية .

واستمرت هذه الثورة الاستقلالية ستة أشهر كاملة كلفت عرب الجزائر ما لا يقل عن ستين ألف شهيد وكلفت الفرنسيين عشرين ألف قتيل ، ولم تخمد إلا بعد أن أطلق بسمارك سراح الجيش الفرنسى الذى كان معتقلا فى ألمانيا (بعد حرب السبعين) .

وبعد أن نجح الجيش الفرنسى فى إخماد هذه الثورة حكم على ستة آلاف من رجالها بالإعدام ، وأقصى من زعمائها أبا مزراق والشيخ الحداد وابنيه عزيزاً ومحمداً ومعهم خمسمائة من أعيان الثوار إلى جزيرة كاليدونيا الجديدة فى المحيط الهادى ، واستمروا فى هذا المنفى القصى إلى أن ماتوا جميعا . وحكم على الجزائر نفسها بغرامة قدرها ستة وثلاثون مليونا من فرنك ذلك الوقت ، ولما عجزت القبائل عن دفعها قررت الحكومة مصادرة أملاكهم وإجلاءهم عنها وإحلال مهاجرى الألزاس واللورين فيها .

ولـكن أثر هذه كان عظيما فى تقوية الوعى القومى فى نفوس الجزائريين ولم تلبث إلا قليلا حتى أعقبتها ثورة استقلالية كبيرة فى عمالة وهران بزعامة الباش أغا سليمان بن حمزة قائد (أولاد سيدى الشيخ) واستمرت هذه الثورة خمس سنوات كاملة بدون انقطاع .

وفى سنة ١٨٨٢ قامت ثورة القبائل الوهرانية بزعامة الشيخ أبى عمامة المراكشى ، واستمرت إلى سنة ١٨٨٥ .

وإلى جانب هذه الثورات المسلحة كان العمل السياسى يقوم بدعاية واسعة النطاق داخل الجزائر وخارجها ، ولـكن الأقلام الجزائرية لم تتحرك بصفة منتظمة إلا منذ سـنة ١٩١٠ ، حيث تكون الرعيل الأول من المثقفين العصريين وتأسست لجنة وطنية بزعامة أبى دربة أول محام جزائرى (تخرج بعد مضى ٧٥ سنة على الحكم الفرنسى فى الجزائر) ومساعدة الصحاف السيد صادق دندان والنائب المالى الحاج عمار ، وكانت غاية اللجنة العمل على تحقيق الجامعة الاسلامية ولذلك ارتبطت بالحركات التحريرية القائمة فى الممالك العثمانية إذ ذاك .

وقامت أثناء الحرب الـكبرى حركات ترمى لمنع الجيش من المحاربة إلى جانب فرنسا ، ففر من الجندية آلاف ، والتجأ من الشباب القادر على القتال بشواهق البلاد الجزائرية زهاء المائة والعشرين ألفا ، وقامت مظاهرات عديدة تطالب بالانفصال عن فرنسا ، وفر لجانب الدولة العثمانية التى أعلنت الجهاد المقدس فرقة الضابط الحاج محمد بوكاية برمتها ، فاضطر المسيو بريان إلى إعلان ضرورة القيام باصلاحات عملية فى الجزائر .

ولما انتهت الحرب الـكبرى تكون وفد جزائرى برئاسة الأمير خالد ، وقدم للرئيس ولسن مذكرة يطالب فيها بتطبيق المبادىء الولسنية على الجزائر وتكونت حول الأمير خالد أثناء مقامه بفرنسا حركة مغربية أدت إلى عقد مؤتمر مغربى فى أواخر سنة ١٩٢٤ قرر العمل على تحرير الشمال الأفريقى ، وبعث برقيات تضامن لمصر والشام ومراكش تحيى الحركات التحريرية القائمة إذ ذاك ، وتدعو لضرورة تنسيق العمل وتوحيد الصفوف العربية للـكفاح من أجل التحرر والوحدة .

ثم اصطبغت هذه الحركة بصبغة مجهود إسعافى نقابى فى دائرة جمعية النجم الأفريقى التى ترأسها صديقنا مصالى الحاج وكان لها فضل حشد الطبقة العاملة من أبناء المغرب العربى فى فرنسا . وقد تطورت هذه الجمعية إلى حزب يطالب بحرية الجزائر ويكافح من أجل استقلالها .

وبينما كانت هـذه الجمعية تقوم بعملها السياسى المنتظم كانت جمعية العلماء المسلمين

برئاسة الشيخ ابن باديس تعمل على تثقيف الشعب وتنويره وبعث الروح العربى الإسلامى فى نفوس أبنائه .

والتقى المجهودان معا بعد أن أعلن الشعب الجزائرى رفضه لسياسة جبهة المؤتمر التى كانت ترى تجنيس الجزائر بالجنسية الفرنسية كوسيلة لاستقلالها . فقد أعلن ابن باديس فى مجلة الشهاب لسان حال جمعية العلماء أن الجزائر بلاد غير فرنسا ولا يمكن أن تصبح هى فرنسا . بينما أسس مصالى الحاج حزب الشعب الجزائرى الذى حشد الشعب كله للمطالبة باستقلال المغرب الأوسط وانفصاله عن فرنسا .

ويمتاز زعيم حزب الشعب بكونه من أبناء الشعب ، فقد نبغ من بين العمال الجزائريين وأحس بآلامهم وتجرع غصص المعاملة السيئة التى يعامل بها الفرنسيون إخوانه الجزائريين ، لمسها فى نفسه كما أحسها فى إخوانه ، فكان له فضل الدعوة لتجمع القوة الجزائرية التى لم تضعف والانتباه إلى أن خير وسيلة لخلاص الجزائر هى فى توحيد صفوفها مع إخوانها المغاربة والعرب لتحرير المغرب العربى من السيطرة الأجنبية . وسوف يأتى اليوم الذى يعترف فيه التاريخ بالقيمة الحقيقية لهذا البطل الذى بعث الشعب من مرقده ، وقلب وجهته للطريق المستقيمة التى كان بعض البله يحولون بينه وبين السير فيها .

أما مطالب الشعب الجزائرى فهى مطالب التونسيين والمغاربة : الاستقلال التام والانضمام إلى الجامعة العربية ، والبعث الروحى والاجتماعى للشعب المغربى . وأما التضحيات التى تكبدها حزب الشعب ورجاله فتفوق ما تكبده غيرهم من المجاهدين الجزائريين ومع ذلك فإن شجاعتهم وثباتهم وصمودهم أمام المستعمر لايجازيه إلا أن نعمل جميعاً لتحقيق أمانيهم فى تحرير الجزائر العربية .

***

وطبعى أن تطمح فرنسا لبسط نفوذها على تونس ومراكش بعد أن تم لها فصلهما عن بعضهما باحتلال الجزائر . وقد قاومت تونس مقاومة دبلوماسية استمرت خمسين سنة ثم هاجمتها القوات الفرنسية فاستبسل أبناؤها فى الدفاع عن بلادهم ، ولما احتل الجيش الفرنسى سائر مناطق القطر التونسى ، التجأ فريق من الشعب إلى طرابلس ، حيث استمر فى تنظيم حرب عصابات بالجنوب التونسى حتى سنة ١٨٨٨ ، أى بعد أن تنازلت تركيا عن حقوقها فى تونس ولكن ذلك لم يجعل التونسيين يقبلون الحماية أو ينسون الاستقلال . وابتدأ عهد تكوين الحركات السياسية بمحاولات عديدة ، أهمها جماعة الحاضرة التى تأسست سنة ١٩٠٥ من الطلبة الذين

سبق أن أوفدتهم الحكومة التونسية قبل الحماية للدراسة فى أوربا ورجعوا إلى البلاد بعد إعلان الحماية عليها .

قامت هذه الكتلة بزعامة رئيسها السيد على أبى شوشة صاحب جريدة الحاضرة بحركة قومية ودينية كانت تتغذى بالروح الواردة عليها من مصر كصدى للدعاية التى قام بها جمال الدين ومحمد عبده وتقتدى بالحركة الوطنية التى أوقد لهيبها الزعيم الشاب مصطفى كامل . وكان لهذه الجماعة اتصال وثيق بالحركة الدستورية المراكشية التى كانت تنشر مقالات ضافية فى جريدة الحاضرة بعد الاتفاق الودى الفرنسى الانجليزى سنة ١٩٠٤ .

وأعقبت هذه الحركة حركة أقوى وأكثر تنظيما هى حركة تونس الفتاة التى كان يتزعمها على باش حمبه والتى كانت تحذو حذو تركيا الفتاة .

استمر هـذا الحزب يعمل لتأليب الرأى العام التونسى ضد الفرنسيين واتصل بسائر الحركات القائمة فى العالم الإسلامى وكانت له يد كبرى فى توطيد النفوذ العثمانى المعنوى فى تونس والجزائر ، ولم يزل كفاحه يعلو وينخفض حتى وقعت كارثة الجلاز سنة ١٩١١ حيث أضرب عمال الترام أمداً طويلا ووقع صدام عنيف بين التونسيين والجالية الإيطالية كبد الطرفين عديداً من القتلى والجرحى فاغتنم المقيم العام الفرنسى مسيو أ . لابوتيت الذى كان من أمهر المستعمرين الفرنسيين هذه الفرصة واعتقل زعماء الوطنيين على باش حمبه وأخاه محمدا وعبد العزيز الثعالبى وعبد الجليل الزاوش والبشير الصفر وحل حزب تونس الفتاة .

وقد أبعد على باش حمبه والثعالبى للخارج فسافر الثانى للشرق ثم عاد إلى تونس . وأما الأول فالتجأ إلى الإستانة حيث تولى رئاسة التشكيلات مدة الحرب الكبرى وكانت له يد طولى فى الدعاية للعثمانيين وتنسيق حركات المؤتمر الإسلامى الذى تجول رجاله فى أوروبا المحايدة يطالبون بتحرير الشمال الأفريقى والقضاء على مبدأ الاستعمار من أصله .

ويعتبر على باش حمبه أنبغ شخصية أنجبتها تونس فى تاريخها الحديث .

ولما انتهت الحرب الكبرى تشكل وفد برئاسة الثعالبى فسافر لفرنسا وقدم مذكرة للرئيس ولسن يطالب فيها باستقلال تونس ، وأثناء مقامه بفرنسا أصدر كتابه تونس الشهيدة الذى كان له صدى كبير فى الأوساط اليسارية فى فرنسا والخارج .

أما فى داخل تونس فقد اتصل أنصار الثعالبى بسمو الباى وطلبوا منه منح البلاد نظاما دستوريا فوعدهم سموه بتحقيق رغبتهم ، وإزاء هذا الوعد الصريح قرروا تأسيس حزب جديد

أطلقوا عليه اسم الحزب الحر الدستورى التونسى ، وقد عبروا عن غايتهم من تأسيس هذا الحزب فى البيان الذى أذاعوه على الشعب والذى جاء فيه : « الغاية من تأسيس هذا الحزب هى تبليغ الوطن رشده وتحريره من الاستعباد ، كى يصبح الشعب التونسى حراً متمتعا بكامل الحقوق التى تتمتع بها الشعوب الحرة . وهو يريد أن يصل لهذه الغاية عن طريق التحقيق العاجل لنظام دستورى يسمح لهذا الشعب بحكم نفسه بنفسه وفاقا للأسس التى يسير عليها كل العالم المتمدين » .

وقد ترأس الثعالبى هذا الحزب بعد رجوعه ، وقام بنشر دعوته وتشكيل شعبه وهيئاته فى سائر القطر فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إحداث تغيير موقت فى سياستها وذلك بإعفاء المقيم فلاندان وتعيين مسيو لوسيان سان خلفا عنه .

وما وصل المقيم الجديد يوم ٦ يونية سنة ١٩٢١ حتى تقدم لمقابلته وفد عرف بعد بوفد الأربعين ، فأكد له المقيم العام عدم استعداده للتفاهم مع الوطنيين على غير ما يرجع للاصلاحات الداخلية لأن تغيير النظام التونسى من اختصاص الحكومة الفرنسية نفسها ، ثم توجه الوفد لمقابلة سمو الباى الناصر الذى أعلن تضامن العرش مع الشعب فى مطالبه واستعداد جلالته فيما يخصه للمصادقة على تكوين حكومة دستورية . وقد وقعت مشادة كبيرة بين الناصر باى وبين الإقامة العامة لم تنفرج إلا بعد موت الناصر فى ظروف مشبوهة ؛ حينئذ سافر الثعالبى سنة ١٩٢٣ للشرق حيث قام بتمثيل بلاده أصدق تمثيل وشارك فى كثير من المؤتمرات الإسلامية والعربية بمصر والشام والعراق وفلسطين والهند ، ولم يرجع إلى وطنه إلا سنة ١٩٣٦ . واستمرت الحركة بعده تحت إشراف اللجنة التنفيذية التى واصلت كفاحها وفق ما كانت تسمح به ظروف الضغط والإرهاق ، وكان من أهم ما أشرفت عليه إعداد الشباب التونسى الذى تقدم للميدان للخطو بالحركة الدستورية خطوة واسعة إلى الأمام .

وقد اشتركت الأجيال التونسية كلها فى مقاومة المحاولات التى بذلها الفرنسيون لفرنسة تونس عن طريق التمسيح أو طريق التجنيس .

وفى مؤتمر قصر الهلال ولد يوم ٢ مارس ١٩٣٤ حزب الدستور التونسى الجديد برئاسة الدكتور الماطرى وانتخب السيد الحبيب أبو رقيبة أمينا عاما للديوان السياسى الذى لم يكن يختلف فى مبادئه واتجاهاته عن اللجنة التنفيذية التى استمرت تمثل الدستور القديم بزعامة السيد الطاهر الصافى والصالح فرحات ومحيي الدين القليبي .

واستمر الكفاح الدستورى متواصلا منذ سنة ١٩٣٨ إلى أثناء الحرب حيث اعتقل زعماؤه مراراً وسجن أنصاره وحكم بالإعدام على الكثير من أفراده .

ولما ارتقى محمد المنصف بن الناصر عرش أسلافه الكرام فى أغسطس سنة ١٩٤٢ . نشط الحركة التونسية وقرب إليه رجالها وطالب الحكومة الفرنسية بتحقيق آمال الشعب التونسى ولكن موقفه وكفاحه هالا الفرنسيين ، فتولى الجنرال جيرو بمجرد ما نزل الحلفاء بتونس أقصاءه عن العرش وإبعاده إلى منفى بو بفرنسا حيث ما نزال يعانى إرهاق الفرنسيين وسوء معاملتهم له .

وفى أثناء الحرب الأخيرة تكونت حول الديوان السياسى الموقت الذى كان يترأسه الدكتور الحبيب ثامر حركة فدائية مهمة ، وقد حكم بالإعدام على الدكتور ثامر وثلة من رفقائه ونفذ الحكم فى بعضهم بينما نجح الآخرون فى الالتجاء إلى مصر والشام حيث التحقوا بالزعيم أبى رقيبة لمواصلة العمل فى ظل الجامعة العربية .

ولما ألقت الحرب الأخيرة أوزارها عقد المكافحون التونسيون مؤتمراً عاما شاركت فيه اللجنة التنفيذية باسم الدستور القديم والديوان السياسى باسم الدستور الجديد والاتحاد النقابى التونسى العام ، وأساتذة جامع الزيتونة واتحاد الموظفين التونسيين ، وشخصيات تونسية مستقلة وبعد أن استعرض المؤتمر الحالة ودرس الاعتبارات القائمة صرح :

١ — « بأن الحماية نظام سياسى واقتصادى يتناقض مطلقاً مع حقوق السيادة ومع مصالح الشعب التونسى الضرورية فى الوقت الذى لم يقم فيه بأية مهمة تمدينية كما يدعى » .

٢ — « وأكد أنه تبين بعد تجربة سبع وستين سنة فشل هذا النظام بما قام عليه من استغلال الإنسان لأخيه الإنسان » .

٣ — « وأعلن أن الاستقلال العاجل الكامل من غير قيد ولا شرط هو النظام الوحيد الذى يمكن أن يصلح غلطات الماضى ويحمى مصير شعب رشيد » .

٤ — « كما أعلن حق الشعب التونسى الذى لا يزول فى أن يستعيد استقلاله وحريته .

***

وظلت مراكش تقاوم التهافت الاستعمارى عليها منذ احتلال الجزائر إلى سنة ١٩١٢ ، حيث فرض عليها عقد الحماية الذى أدى إلى تقسيمها إلى ست مناطق :

١ — منطقة موريطانيا أو أقصى الجنوب المراكشى التى اقتطعت من البلاد تماما وألحقت بأفريقيا الغربية الفرنسية .

٢ — ومنطقة الحماية الإسبانية .

٣ — ومنطقة الحماية الفرنسية .

٤ — ومنطقة طنجة الدولية .

٥ — ومنطقة موريطانيا الاسبانية .

٦ — ومنطقة المقتطعات التى ألحقتها السلطة الفرنسية بالجزائر .

حينئذ دخلت المقاومة المراكشية فى طور الدفاع المسلح عن وحدة التراب المغربى واستقلاله ، ولم يستول الفرنسيون والأسبان على أهم المدن المراكشية إلا بعد قتال عنيف استمر ثلاثة أعوام كاملة ثم أعلنت الحرب الكبرى ، والمغرب كله — باستثناء بعض الشواطىء — فى ثورة عنيفة على الأجنبى ، وكانت مناطق الثورة منقسمة إلى أربعة أقسام :

(١) جهالة والريف .

(٢) مركز الأطلس المتوسط .

(٣) الأطلس الكبير بجنوب المغرب .

(٤) تافيلالت وآيت عطا بالجنوب المغربى أيضا .

وقد استمر الكفاح فى هذه المناطق كلها ثلث قرن كامل من غير انقطاع ، وضرب المراكشيون فى الدفاع عن استقلالهم من أنواع البطولة والشجاعة ما شهد به الجميع ، وظلت الحرب الريفية مثالا يحتذى فى البلاد العربية وغيرها . وظل اسم الأبطال المغاربة وفى مقدمتهم أسد الريف محمد بن عبد الكريم الخطابى رمزا للمقاومة القومية المستميتة التى يتأسى بها المنكوبون فى كل جهات الأرض .

وقد كان لهذه المقاومة المسلحة فضل فى توحيد البلاد المغربية معنويا ، والقضاء على روح القبلية التى عمل الأجانب على بعثها من مرقدها وتشجيعها بما سنوه من سياسة القواد الكبار وما أسسوه من نظام الإقطاعية الجديدة الذى لم تعرفه مراكش من قبل .

وكان للحرب الريفية بصفة خاصة فضل بعث ثقة الأمة بنفسها ، إذ ما كان المغاربة يعتقدون أن لهم من القوة الروحية مايستطيعون به هزم دولتين عظيمتين فى عدة مواقع كبيرة ، وبذلك فإن نهاية حرب الريف وضياع النصر العسكرى لم يفت فى عضد المراكشيين ولم يبعث فى نفوسهم اليأس الذى كان ينتظره خصمهم .

وإذا كان العهد الذى يفصل بين ١٩١٢ و ١٩٣٠ يمتاز بالمقاومة العسكرية ، فإن الحركة السياسية ظلت موازية للعمل العسكرى تؤيده وتعضده خصوصا أثناء الحرب الكبرى ، حيث التجأ عديد من المغاربة من بينهم السيد أحمد العتابى للأستانة ، وانضموا للمؤتمر الاسلامى الذى كان يجمع كثيرا من المجاهدين أمثال الأمير شكيب أرسلان ومحمد فريد وعلى باش حمبة . وقد بذلوا جهدا كبيرا لإقناع الدول المحايدة كالسويد والنرويج وغيرهما بالاعتراف باستقلال المغرب وتأييد رجاله . كما كانت الحركة السلفية فى الأوساط الجامعية تعمل عملها لتنوير الأذهان ، ومقاومة بعض المتصوفة الذين انضموا للأجنبى يؤيدونه باسم الدين ، والدين من أعمالهم براء .

وما كاد عهد المقاومة المسلحة ينتهى حتى برزت الحركة الوطنية السائدة اليوم فى شكل الاحتجاج على السياسة البربرية التى كان ظهير ١٦ مايو سنه ١٩٣٠ أكبر مظاهرها .

كان لقيام هذه الحركة المفاجئ اندهاش عظيم فى الأوساط الاستعمارية الفرنسية خصوصا وقد استطاعت أن تلف من حولها بسرعة فائقة الشعب كله فى سائر المناطق المراكشية ، وقد أظهر فيها الشعب المجاهد من التضحية والفداء ما لا يقل عما عرف عنه فى أوقات الكفاح العسكرى ، وكان لهذه الحركة صداها فى العالم الاسلامى كله حيث قدم المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها احتجاجاتهم على سلوكها أزاء الإسلام فى المغرب ، وتأسست فى مصر وسوريا والعراق والهند وأندونسيا لجان للمحافظة على إسلام البربر ، وتأكدت بذلك وبالمجهودات التى بذلها الحاج الحسن أبو عياد بمصر روابط الحركة المغربية بالحركات العربية والاسلامية فى المشرق . وتأسست منذ ذلك العهد كتلة العمل الوطنى التى تعتبر أول حزب سياسى بالمعنى الحديث أسس فى مراكش بعد الحماية .

وفى سنة ١٩٣٣ وضعت الكتلة برنامج الاصلاحات المغربية ، وهو عبارة عن كراسة تحتوى على سائر ما يتوقف عليه المغرب من إصلاحات لينهض ، وقد قدم للحكومة الفرنسية ولجلالة الملك وأيده الشعب بمظاهرات عديدة انتهت بالاعتقال المتكرر للزعماء وأنصارهم .

وفى سنة ١٩٣٦ عقدت الكتلة مؤتمرا فوق العادة قررت فيه قائمة المطالب المستعجلة التى يجب على إدارة الحماية تنفيذها حالا ، وكلها راجعة للحريات الديمقراطية والاصلاح الاقتصادى والاجتماعى وضمان حقوق الفرد والجماعة ، وتحسين حالة الفلاح والصانع والعامل . وقد وقع اصطدام عنيف بين الكتلة والحماية أدى لاعتقال علال الفاسى ومحمد اليزيدى ومحمد الوزانى ، فأعلنت البلاد كلها تضامنها مع رجال الكتلة وقامت مظاهرات عديدة بفاس

ومراكش والرباط والبيضاء ذهب ضحيتها كثير من القتلى والجرحى كما اعتقل أثناءها آلاف من الوطنيين المراكشيين .

وحينما قامت الثورة الأسبانية بزعامة فرانكو بالمنطقة الخليفية ، وسدت الحدود بين شمال البلاد وجنوبها ، تقرر أن تنقلب كتلة الشمال التى توفى زعيمها الحاج عبد السلام بنونة إلى حزب يعمل حسب الخطة التى تقتضيها ظروف المنطقة الخليفية إذ ذاك ، فتأسس حزب الاصلاح الوطنى برئاسة الأستاذ عبد الخالق الطريس . وفى الوقت نفسه نظمت كتلة العمل فى المنطقة السلطانية نفسها ، وفتحت مراكزها العام برئاسة علال الفاسى ، ولكن إقبال المنخرطين على الكتلة هاج السلطات الفرنسية ، فأقفلت دارها واعتقلت كثيرا من أنصارها غير أن ذلك لم يفت فى عضدنا ، ولم يمض شهر كامل حتى كنا قد أعددنا فتح المركز العام والتشكيلات التابعة له باسم الحزب الوطنى . سار الحزب الوطنى يبذل الجهود الجبارة لخدمة القضية المغربية ، وتنظيم الجمهور المراكشى ، ولكن اضطهاد السلطة لأنصاره وبطشها برجاله أدى به إلى عقد مؤتمر عام انتهى باعلان الميثاق الوطنى الذى يقضى بالمعارضة الكاملة للاقامة العامة وعدم التعاون مع الحكومة مادام النظام الاستعمارى قائما .

وعلى أثر إعلان هذا الميثاق اعتقل رئيس الحزب الوطنى علال الفاسى ونفى للجابون بأفريقيا الاستوائية الفرنسية ، كما نفى عمر عبد الجليل ومحمد اليزيدى وأحمد مكوار ومحمد الوزانى لمختلف مراكز الصحراء المراكشية .

وقد ثار الشعب ثورة عنيفة استمرت شهرا كاملا واستعمل لقمعها الجيش الفرنسى حريته فى ضرب العزل من السلاح وتقتيلهم واضطهاد المعتقلين منهم .

واستمرت الحركة سائرة سيرها الطبيعى متعاضدة مع حزب الاصلاح ، ومؤيدة بحركة الوحدة المغربية التى أسسها الأستاذ المكى الناصرى .

وفى يناير سنة ١٩٤٤ قرر الحزب الوطنى أن يدعو لمؤتمر عام تشترك فيه سائر الهيئات القومية فى البلاد ، فانعقد المؤتمر وقرر تأسيس حزب الاستقلال من الحزب الوطنى وغيره من الهيئات والشخصيات المعروفة فى المنطقة السلطانية .

وفى ١١ يناير سنة ١٩٤٤ قدم الحزب الجديد ميثاق الاستقلال لجلالة الملك وممثلى الدول الأجنبية فى المغرب ويشتمل الميثاق على :

١ — اعلان الاستقلال والوحدة الترابية لجميع مناطق مراكش .

٢ — المطالبة بتكوين نظام ديمقراطى شبيه بالأنظمة التى اتبعتها مختلف الحكومات الإسلامية.

وقد أبلغ جلالة الملك الميثاق رسمياً للحكومة الفرنسية بعد ما عقد مؤتمراً عاماً لممثلى السلطة المغربية فأقروه ، وأعطاه مولانا الملك بتأييده قوة الحق الذى لا شك فيه . ثم أخذت وفود الشعب المغربى من النساء والرجال تنهال على القصر الملكى (طيلة أسبوع التضامن) معلنة تأييدها لجلالة الملك ولميثاق الاستقلال ، وأعقب ذلك قمع عنيف لم يتقدم له مثيل فى البلاد .

وكان لإطلاق الزعماء المبعدين سنة ١٩٤٦ أثر فعال فى تغذية الحركة الاستقلالية التى خطت خطى فسيحة إلى الأمام وقد التف الزعماء كلهم حول جلالة الملك الذى ما انفك يوالى جهوده لإنقاذ البلاد وتحريرها .

وفى أثناء الزيارة الملكية لمدينة طنجة فى شهر أبريل سنة ١٩٤٧ أعلن الملك أمام ممثلى الأحزاب المغربية وجمهور الشعب أن مطالب مراكش هى نفس المطالب العربية ، وأن مصير المغرب العربى مرتبط بمصير المشرق العربى وفوز الجامعة العربية .

***

أما الكفاح الذى يبذله رجال الحركات الاستقلالية فى المغرب العربى فينقسم إلى نوعين :

١ — مقاومة المحتل الفرنسى والأسبانى والعمل على تحرير المغرب من احتلالهما البغيض وتمتعه بالاستقلال التام فى دائرة الجامعة العربية .

٢ — القيام بمجهودات جبارة لتحسين حالة المغاربة والنهوض بهم .

وفى كل من الجبهتين تقوم الأحزاب المغربية بأعمال جليلة توشك أن تؤتى ثمرها بإذن الله .

ومن مزايا الحركات الاستقلالية المغربية أنها شعرت بضرورة التضامن بينها مع تعدد أقاليمها فبذلت مختلف الوسائل لتنسيق أعمالها وتوحيد اتجاهاتها وانتهت إلى عقد مؤتمر المغرب العربى بالقاهرة فى فبراير سنة ١٩٤٧ ، وقد قرر هذا المؤتمر توحيد المكاتب المغربية فى الشرق ضمن مكتب المغرب العربى وتأسيس لجنة تنسيق عليا لحركات الشمال الأفريقى .

ولما التجأ سمو الأمير محمد بن عبد الكريم إلى حمى الفاروق المعظم واستقر بالقاهرة كان أول عمل قام به هو دعوة الزعماء المغاربة للالتفاف من حوله ، وقد تحقق بفضله ما أمله المؤتمر فتأسست لجنة تحرير المغرب العربى برئاسته الدائمة .

ويتضمن ميثاق اللجنة المبادئ التالية :

(ا) المغرب العربى للاسلام كان وللاسلام عاش وعلى الإسلام سيسير فى حياته المستقبلة

(ب) المغرب جزء لا يتجزأ من بلاد العروبة وتعاونه فى دائرة الجامعة العربية على قدم المساواة مع بقية الأقطار العربية أمر طبعى ولازم .

(ح) الاستقلال اللازم للمغرب العربى هو الاستقلال التام لكافة أقطاره الثلاثة تونس والجزائر ومراكش .

(ى) لا غاية يسعى إليها قبل الاستقلال .

(ه) لا مفاوضة مع المستعمر فى الجزئيات ضمن النظام الحاضر .

(و) لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال .

(ز) للأحزاب الأعضاء فى لجنة تحرير المغرب العربى أن تدخل فى مخابرات مع ممثلى الحكومة الفرنسية والأسبانية ، على شرط أن تطلع اللجنة على سير مراحل هذه المخابرات أولا بأول .

(ع) حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط عن اللجنة واجبها فى مواصلة الكفاح لتحرير البقية .

وعلى ضوء هذه المبادئ تسير لجنة التحرير فى توجيه الحركات الاستقلالية المغربية مستمدة قوتها من الأحزاب الممثلة فيها ومن شخصية رئيسها بطل الريف العظيم .

وإن فى وجود هذه اللجنة بالقاهرة التى هى عاصمة الجامعة العربية أكبر دليل على ما يعلقه المغاربة من آمال على هذه الجامعة الخطيرة وما يحملونه بين جوانحهم من تمسك بمبادئ الوحدة العربية وتضامن بين شعوب العرب . ولقد ظهر التضامن عظيما بين جناحى النسر العربى فى قضية الحرب التحريرية التى دخلتها الجامعة العربية لإنقاذ فلسطين المقدسة . ونحن لا نشك فى أن هذا التضامن سيستمر كل يوم فى ازدياد حتى يتم تحرير العالم العربى برمته ويسير العرب إخوانا متحدين للعمل على خير الإنسانية وإسعاد الناس .

علال الفاسى

الأمين العام للجنة تحرير المغرب العربى

ماذا ينبغي أن يكون موقف العالم العربي
إزاء الفلسفة العربية والفلسفة الغربية

للدكتور جميل صليبا

١ — لمحة تاريخية

لما اتسع سلطان العرب فى عهد العباسيين ، وانتشرت فى الدولة الإسلامية ديانات ومذاهب مختلفة تحاول أن تبث دعوتها ، اضطر الخلفاء إلى التنكيل بالملحدين ، وحث العلماء على وضع الكتب فى الرد على المجوس والدهرية . وكان من أثر هذه السياسة أن تشوق العلماء إلى الإطلاع على العلوم الفلسفية التى كانت نافقة الأسواق فى بلاد الروم ، فبدأوا بترجمة كتب الحكمة فى عهد أبى جعفر المنصور ، ثم جاء المأمون بعد ذلك ، وكانت له فى هذه العلوم رغبة شديدة ، فأوفد الرسل إلى بلاد الروم لاستخراج علوم اليونانيين ، ثم حمل المترجمين على نقلها إلى اللغة العربية ، فنقلوا كتب (أفلاطون) و (أرسطو) و (تيوفرسطس) و (جالينوس) و (فرفوريوس) وشروح الاسكندر الأفروديسى ، وبعض كتب (أمونيوس) و (ثامسطيوس) و (أفلوطين) وغيرها ، كما ترجموا أيضاً بعض الكتب عن السريانية والفارسية والهندية . ويكفى أن ينظر المرء فى فهارس الكتب القديمة كفهرست ابن النديم أو كشف الظنون للحاج خليفة ليقف على حقيقة هذه الحركة العلمية الواسعة النطاق . فقد بدأت الترجمة بكتاب فى الكيمياء أمر بنقله إلى العربية خالد بن يزيد بن معاوية ، وبلغت فى عهد المأمون درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد . ولم يمض على نقل العلوم الفلسفية إلى اللغة العربية إلا القليل حتى عكف العرب على شرح معانيها والنسج على منوالها ، فابدعوا لأنفسهم فلسفة خاصة مقيدة بعقائدهم الدينية وحاجاتهم الاجتماعية والسياسية ، ثم نقلت هذه الفلسفة إلى الغرب وسيطرت على التفكير الأوروبى حتى نهاية القرن الخامس عشر . وهكذا مرّ العرب فى تاريخ حضارتهم الفكرية بدورين هما دور النقل والإتباع ، ودور الإنتاج والإبداع .

ولم يكن موقف العرب إزاء الفلسفة اليونانية موقف القابل الذى ينقل ما يصل إليه من

العلوم دون إعمال الروية فيه ، بل كان موقفهم إزاءها موقف الناقد الذى ينتقى من العلوم ما يفهمه ويحتاج إليه فى تفكيره . لذلك نقلوا عن اليونانيين كتب الهندسة والطب والمنطق والطبيعيات والفلسفة وأعرضوا عن أدب اليونان وأشعارهم وأساطيرهم .

وليس أدل على اختيارهم هذا من موقفهم إزاء فلسفة أفلاطون وأرسطو . فقد كان نصيب المعلم الأول من النقل أعظم من حظ أفلاطون ، لا لأن كتبه كانت أعظم انتشاراً وأقرب متناولاً فحسب ، بل لأن العرب وجدوا فيها ما يوافق ميولهم ونزعاتهم من الفنون العقلية والقواعد المنطقية . فأخذوا بها أولا كما هى ، ثم زادوا عليها وعملوا على التوفيق بينها وبين العقائد الدينية ، ونفقت العلوم الفلسفية فى العالم العربى على عهد الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد . إلا أن الدولة العربية لما غلبت على أمرها وتسلط عليها الأتراك والبرابرة ركدت بها ريح العمران ، واضمحلت منها حرية الفكر ، واتهم الفلاسفة فى صدق إيمانهم وصحة عقيدتهم وحاربتهم الخاصة والعامة . فالغزالى هدم فلسفة ابن سينا واتهم صاحبها بالكفر والزندقة ، وابن رشد نكب فى المغرب وأحرقت كتبه ، حتى قال الحاج أبو الحسين بن جبير فيه وفى نكبته .

نفذ القضاء بأخذ كل مموه متفلسف فى دينه متزندق

بالمنطق اشتغلوا فقيل حقيقة إن البلاء موكل بالمنطق

ولا يزال الناس فى أيامنا هذه يطلقون كلمة « فلسفة » على الزندقة والتمويه ، أو على الثرثرة والكلام الفارغ . وربما كان فى قول أبى نواس منذ أوائل العصر العباسى :

فقل لمن يدعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

إشارة إلى إبطال الفلسفة واحتقار منتحلها .

نعم إن الفلسفة العربية لم تكن مقصورة على الفلاسفة المشائين ، وإن هنالك طائفة من المتكلمين كالمعتزلة وغيرهم ضربوا فى الفلسفة بسهم وافر . ولكن هذه الفرق لم تثبت قواعد الإنتاج الفكرى الحر ، ولا وطدت أساسه وأحكمت عقدته إلا برهة وجيزة من الزمان ، فاتبعت طريق الفلسفة المشائية فى النمو والاضمحلال . فحينما كانت بضاعة الفلسفة موفورة ، كان علم الكلام ثابت الوطائد مشيد الأركان ، ولكن حينما وهت أركان الفلسفة وتضعضعت دعائمها انقلبت مباحث علم الكلام إلى اتباع آلى واصطلاحات مدرسية جامدة . ويكفى أن تنظر فى كتاب المواقف لعضد الدين الإيجى وتقارن بينه وبين كتب الغزالى وابن سينا لتحكم

على تطور الفلسفة العربية . ففى كتاب المواقف علم مقيد واصطلاحات فنية جامدة وقواعد وأحكام ثابتة تريد أن تظهر بمظهر العلم المطلق ، وتتصف بصفة الحقائق الخالدة . وفى كتب الغزالى إلى جانب الضبط والإحكام لطف وروعة يفوح منهما عبير الحرية وشذا العاطفة والإبداع . ومن أراد الاطلاع على الفلسفة العربية الحقيقية ، فليطلبها من كتب ابن سينا والغزالى وابن رشد لا من كتاب المواقف .

إن هذه اللمحة التاريخية السريعة توضح لنا الطريق الذى يجب علينا سلوكه فى تحديد موقفنا من الفلسفة العربية والفلسفة الغربية .

٢ — موقفنا إزاء الفلسفة العربية

ماذا ينبغى أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة العربيــة القديمة . هل يجب علينا الأخذ بها كما هى ، أم ينبغى لنا الإعراض عنها والاتجاه نحو الفلسفة الغربية الحديثة ؟

لا شك أن الإعراض عن الفلسفة العربية ليس فى مقدورنا . لأن هــذه الفلسفة قد داخلت نفوسنا وصبغت أفكارنا وعواطفنا . وهى فلسفة عقلية — توحيدية — روحانية معاً . ومن مبادئها الأساسية أن الحقيقة الدينية لا تختلف عن الحقيقية الفلسفية ، وأن الحــكمة هى صاحبة الشريعة والأخت الرضيعة ، ومن نظر فى آراء فلاسفة العرب من الفارابى إلى ابن سينا ومن ابن سينا إلى ابن رشد وجد أن التوفيق بين الحــكمة والشريعة كان همهم الأول ، حتى أن المتأخرين من علمائنا كالأستاذ الإمام محمد عبده لم يخرجوا عن هذا المبدأ فى تفسير آيات القرآن الــكريم . وجميع ما جاء فى الشريعة متفق عندهم مع ما يكشف عنه النظر العقلى : المنقول المطابق للمعقول ، ولا فرق بين حقيقة وأخرى .

ولا شك أيضاً فى أن الأخذ بالفلسفة العربية كما هى لا يتفق مع ما بلغه العلم الحديث من الرقى والــكمال . ففى الفلسفة العربية أمور كثيرة لا تصلح لتوجيه سلوكنا فى المجتمع الحديث : انظر إلى نظرية الفيض التى تخيلها فلاسفة العرب للتوفيق بين الدين والفلسفة . إن هــذه النظرية مستندة إلى اعتقادهم أن الأرض هى مركز العالم ، وأن الأفلاك طبقات مختلفة تحيط بالأرض كما تحيط القشرة بالبيضة . ثم انظر إلى نظرية النفس أو نظرية العقل أو نظرية الطبيعة ، إنها مبنية على آراء لا يؤيدها العلم الحديث . إذن لا ينبغى لنا الأخذ بالفلسفة العربية كما هى ، وإنما يجب علينا أن نتناولها بالبحث كما تدرس سائر الاتجاهات الفكرية القــديمة

لا للاعتماد عليها في توجيه سلوكنا ولكن لاستكمال ثقافتنا الفكرية واطلاعنا على ماضينا وتعرفنا أنفسنا .

فإذا شئنا أن تكون لنا فلسفة عربية حديثة تأتلف وميولنا وحاجاتنا الحاضرة ، وجب علينا أولا دراسة الفلسفة العربية القديمة التي فقدت آثارها دراسة علمية توطد الارتباط بين اتجاهاتنا الفكرية الحديثة وعبقريتنا القديمة . إن الحاضر كما قال (لينين) مثقل بالماضي ومتلىء من المستقبل . والأمم التي ليس لها ماض ليس لها شخصية كاملة ، ومن أعرض عن دراسة الماضي حرم الاطلاع على أجمل آثار الفكر التي خلفها الأجداد . على أن هذا الالتفات إلى الماضي يجب أن يكون باعثاً على الحركة دون الوقوف ، وعلى التقدم دون الركود . إن كثيرين من الشيوخ الذين يعيشون في الماضي يعجزون عن تفهم الحاضر ومجاراة تطوره ، حتى أن إعجابهم بماضيهم ليلهيهم عن كل مكرمة ويحول بينهم وبين فتح طريق المستقبل . لذلك كله ينبغي أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة العربية موقفاً علمياً محضاً . ونعني بهذا الموقف العلمي أن تاريخ الأفكار يجب أن يطلب لذاته لا لعبره وكنوزه . ومتى طلب التاريخ لذاته انكشف هو نفسه عن كثير من العناصر التي توحي إلينا بالأفكار الجديدة ، وتكشف لنا عن كثير من الحلول التي نروم الوصول إليها .

هناك أمران يحددان لنا الموقف العلمي ، الأول : هو التعريف بالفلسفة العربية ، والثاني : هو نقدها وتحليلها .

١ — فالعرب لا يزالون حتى الآن جاهلين بكثير من مسائل الفلسفة العربية . وربما كان بعض المستشرقين أحسن إحاطة بهذه المسائل من بعض علمائنا المعاصرين . إن فلسفة الكندي والفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد لا تزال محاطة بكثير من الغموض ، كما أن فلسفة علماء الكلام من المعتزلة وغيرهم لا تزال مستورة عنا بحجاب كثيف ، والسبب في ذلك يرجع إلى أن كثيراً من الكتب الفلسفية القديمة لم تصل إلينا حتى أصبحنا لا نعرف منها إلا أسماءها ، كما أن كثيراً من المخطوطات لا تزال محفوظة في خزائن الكتب الخاصة لم يطلع عليها إلا القليل من الناس . وليس من مصلحتنا الفكرية أن تبقى هذه الكتب مخزونة في الصناديق في وقت نحن أحوج الأمم فيه إلى التعريف بماضينا . فينبغي لنا إذن إحصاء المخطوطات الفلسفية العربية الموجودة في بلدان الشرق والغرب ، والعمل على تحقيقها ونشرها ، ثم إعادة طبع الكتب الفلسفية المنشورة سابقاً لاشتمالها على كثير من الأغلاط . فبعضها لم يطبع حتى الآن إلا على الحجر ، وبعضها الآخر طبع للتجارة لا للعلم والتحقيق . وبدهي أن

إحياء النصوص الفلسفية يجب أن يشمل كتب الفلسفة أولا ، ثم كتب العقائد والنصوص ثانياً ، فنى كتب العقائد كثير من الفلسفة ، كما أن فى كتب التصوف والأخلاق نزعات فلسفية أصلية لا يليق بنا إهمالها .

٢ — والأمر الثانى الذى يحدد لنا هذا الموقف العلمى هو وضع دراسات تحليلية عن فلاسفة العرب نشرح فيها فلسفتهم وننتقدها ، ثم نبين منابعها ومدى تأثيرها فى الحضارة الشرقية والحضارة الغربية . ولا نغالى إذا قلنا إن هذه الدراسات هى الوسيلة الوحيدة لتعريف العرب بحضارة العرب . وكما يتقدم التحليل على التركيب فى ارتقاء العلوم الوضعية ، فلذلك يجب أن تتقدم الدراسات التحليلية الخاصة على النظرات التركيبية العامة فى تاريخ الفكر . إن مؤرخى الأفكار الذين يبدءون بالتركيب قبل التحليل يشبهون الروائيين الذين يؤلفون الوقائع الخيالية من مواد أولية وهمية . فقد يبعدهم هذا البناء الوهمى عن معرفة الحقائق وقد يقلب التاريخ إلى أسطورة كاذبة . فإذا أردنا أن نطلع على حقيقة الفلسفة العربية وجب علينا أولا تقديم التحليل على التركيب . وفى تاريخ العلوم آيات ناطقة تدل كلها على أن العلماء لا يصلون إلى المرحلة الوضعية إلا بعد عكوفهم على تحليل العناصر وإعراضهم عن حل المسائل الكبرى حلا تركيبياً سريعاً . فالرياضى والفلكى والفيزيائى والكيميائى وعلماء الحياة والنفس والتاريخ يحددون فى مرحلة التحليل هذه دائرة بحثهم ، وينصرف كل واحد منهم إلى موضوع خاص أو إلى ناحية واحدة من موضوع خاص ، ثم إنهم إذا تم لهم هذا التحليل انتقلوا إلى مرحلة التركيب وكشفوا عن الخطوط العامة المشتملة على تعليل العناصر وتوضيحها ، لذلك كان من الصعب جداً على الباحثين فى تاريخ الفلسفة العربية وضع تاريخ جامع لتطور الفكر العربى قبل القيام بدراسة النصوص وتحليل العناصر وتحديد الاتجاهات الفكرية الخاصة ، التى تميز بها كل فيلسوف من غيره . وأنى لنا أن نضع هذا التاريخ الجامع إذا نحن لم نبدأ بتحليل العناصر ، ولم نكشف عن الاتجاهات الفكرية المختلفة ، ولم نؤلف منها منظومات عامة تقرب بين الأفكار المتشابهة وتجمعها كلها فى تيار واحد .

وقصارى القول أن موقفنا من الفلسفة العربية القديمة يجب أن يكون موقفاً علمياً محضاً غايته التعريف بها ونقدها وتحليلها ، لا الأخذ بها كما هى والنسج على منوالها ، فإن لكل زمان فلسفة موافقة لبنيته الاجتماعية وحالته العلمية وتطوره الفكرى . ومن أراد أن تكون له فى القرن العشرين فلسفة القرون الوسطى كان كمن يمشى إلى الأمام مشية القهقرى .

٣ — موقفنا إزاء الفلسفة الغربية

إن هذه الملاحظات السريعة كافية لتحديد موقفنا إزاء الفلسفة الغربية أيضاً . فكما أن تجديد الفلسفة العربية القديمة لا يغنينا عن الأخذ بأسباب الفلسفة الحديثة ، كذلك الأخذ بالفلسفة الغربية كما هى لا يهدينا سبيل الرشاد فى مجتمع حائر بين روحانية العقل ومادية العلم ، فإذا شئنا أن نهتدى فى ظلمات الفلسفة الحديثة وجب علينا أولا التعريف بها ، ثم نقدها وتحليلها .

١ — ينبغى لنا أولا ترجمة الكتب الأساسية من الفلسفة اليونانية القديمة كفلسفة أفلاطون وأرسطو . فإن الكتب العربية القديمة المترجمة عن اليونانية مبهمة كثيرة التعقيد ، لا يتوصل القارئ إلى ما فيها من المعانى العميقة إلا بعد قراءتها عدة مرات . فقد حكى عن الفارابى أنه قرأ كتاب النفس لأرسطو مائتى مرة ، وذكر ابن سينا عن نفسه أنه قرأ كتاب ما بعد الطبيعة أربعين مرة من غير أن يفهم ما فيه . ومن نظر إلى كتاب (فاطيفورياس) الذى ترجمه حنين بن إسحق وجد فيه من الغموض وركاكة الأسلوب ما يدعوه إلى قراءته عشرات المرات . كل ذلك يهيب بنا إلى ترجمة هذه الكتب من لغتها الأصلية بأسلوب عربى واضح لا كما فعل بعض المعاصرين الذين نقلوا كتب أرسطو عن اللغة الفرنسية ، وليس فى تجديد هذه الترجمة مضيعة للوقت ، إذ أن أكثرها قد فقد ، والموجود منها يكتنفه الغموض والالتباس . ومن تذكر أن التفكير الأوروبى فى أواخر القرن الخامس عشر قد استند إلى الفلسفة اليونانية فى نهضته الحديثة أدرك مالتعريب كتب اليونانيين من عميق الأثر فى إحياء فلسفتنا العربية القديمة من جهة ، وفى تفهم الفلسفة الغربية من جهة أخرى . فالفسفة اليونانية لاتزال حتى اليوم معجزة المعجزات ، تجد فيها أصولا لجميع المذاهب من (لينين) إلى (نيتشه) ومن (ديكارت) إلى (كانت) . ومن أراد أن يكون له فى الفلسفة أقل أثر فما عليه أولا إلا أن يرتوى من معين الفلسفة اليونانية .

٢ — وينبغى لنا ثانياً أن نترجم أمهات الكتب الفلسفية من اللغات الأوروبية الحديثة ككتب (لوك) و (ديكارت) و (لينين) ، و (اسبنيوزا) ، و (هيوم) و (كانت) ، و (هيجل) ، و (شوبنهاور) ، و (سبنسر) ، و (نيتشه) ، و (برغسون) ، وغيرهم . والترجمة ضرورية لنا فى أوائل الأمر أكثر من الدراسات التحليلية التى يقوم بها بعضهم ، إذ أن فائدة هذه الدراسات مقصورة على التعريف بالفلاسفة الغربيين ، وهى لا تطلعك على

أفكارهم إلا من وراء حجاب ، وإذا فهمت ما كتبه أصحابها لم تجد فى آرائهم ما يرفعك إلى فضاء الفكر . ويوحى إليك بالمعانى الجديدة والآفاق الواسعة . ومن شروط هذه الترجمة أن تنقل الكتب عن اللغة الأصلية التى كتبت بها ، لأنها إذا نقلت عن لغة ثانية كان ذلك باعثاً على غموض الأفكار وابتعادها عن الضبط . دع أن المترجمين لا يحسنون الاختيار دائما ، فيترجمون ما يصل إليهم من الكتب على غير هدى ، من غير أن يكون لها قيمة حقيقية . مثال ذلك أن بعض قراء العربية كانوا إلى عهد قريب يظنون أن (غوستاف لوبون) هو أعظم فلاسفة الغرب . والسبب فى ذلك يرجع إلى أن بعض الأساتذة نقل كتبه إلى اللغة العربية . لاشك فى أن (غوستاف لوبون) قد شارك فى علوم كثيرة ، إلا أنه لم يتعمق فى أى علم من العلوم تعمق رجال الاختصاص . فهو قد كتب فى علم الاجتماع ، ولكنه لم يكن عالما اجتماعياً كدوركهايم ولفى برل ، وقد كتب فى نظريات الفيزياء ، ولكنه لم يكن عالما فيزيائيا كجان بران ، وطومسون ، وكتب فى التربية والأخلاق ، ولكنه لم يبلغ فى ذلك ما بلغه (جيمس) و (دوى) و (كلاباريد) . فمن الضرورى إذن أن يوضع برنامج خاص لترجمة أمهات الكتب خلال مدة محدودة من الزمان ، تتولى اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية الإشراف عليه ، ثم توزع العمل على الاختصاصيين فى مختلف الدول العربية لتنفيذه وإنجازه .

وينبغى لنا فى الوقت نفسه العمل على وضع دراسات علمية عن اتجاهات الفكر الغربى ، وتحليل آراء الفلاسفة الغربيين ونقدها ، ثم المقارنة بينها وبين بعض الآراء التى نجدها عند فلاسفتنا القدماء .

وقد يقال إن فى العالم الغربى أنواعاً من الفلسفة لا تأتلف وعبقرية الأمة العربية ، وإن نقل هذه المذاهب إلى لغتنا قد يؤدى إلى استهواء الكثير من الناس ، وإدخال الفوضى على العقائد الموروثة ، فنقول رداً على ذلك إن نقل هذه المذاهب لا يؤدى بالضرورة إلى اتباعها . ففى الفلسفة الغربية مذاهب روحانية ومذاهب مادية ، كما أن فيها مذاهب خيالية ومذاهب وجودية . وهى تتهافت ويهدم بعضها بعضا ، كما تتساند وتتعاون . فإذا ترجمت كلها معاً استطاع القارئ العربى أن يقارن بينها ، وأن يكون لنفسه بعد ذلك رأياً شخصياً . وربما كان لنقل هذه المذاهب المختلفة أثر عميق فى تربية حرية الفكر . لقد تعود مفكرونا أن يقيدوا آراءهم الفلسفية بالعقائد الموروثة والتقاليد الاجتماعية المعروفة ، وإذا خرجوا على هذه التقاليد أثاروا حولهم موجة من السخط والاستنكار ، إن الإبداع الفلسفى شبيه بالإبداع الفنى . لا ينمو إلا حيث تزداد حرية الفكر . ومتى خضع للقيود الاجتماعية والسياسية انقلب إلى

تقليد محض واتباع آلى . أضف إلى ذلك أن الفلسفة الغربية ليست مضادة لعبقريتنا ، فهى قد تولدت من الفلسفة اليونانية كفلسفتنا القديمة ، كما أن فلسفتنا القديمة قد أثرت فى التفكير الغربى نفسه . إن القديس (توما الأما كوينى) و (روجيه با كون) و (غيوم دوفرينى) قد أخذوا كثيرا عن ابن سينا وابن رشد ، حتى إن إعجاب (غيوم دوفرين) بهما كان لا يقل عن إعجابه بأرسطو . فليس بيننا وبين الغربيين فى هـذه الناحية إلا فرق واحد ، وهو أن الفلسفة الغربية قد اضمحلت من العالم العربى إلا قليلا من رسومها تجدها فى تفاريق من الناس وتحت رقبة من علماء الدين ، أما الغرب فقد عرف الفلسفة اليونانيـة أولا عن طريق الفلسفة العربية ، ثم عرفها ثانيا بصورة مباشرة ، وبقيت الفلسفة هنـاك نافقة الأسواق متجددة الرسوم حتى وصلت إلى ما هى عليه الآن من الإبداع والـكمال . فليس فى الفلسفة الأوربية إذن ما يخالف عبقرية الشعب العربى وميوله . بل إن تكامل الفـكر العربى يقتضى اقتباس الفلسفة الأوربية وربطها بالأصول اليونانية القديمة التى حفظناها . ومتى تم لنا هذا الاقتباس استطعنا أن نجدد تفكيرنا وأن نبدع لأنفسنا فلسفة عربية حديثة .

وقصارى القول أنه ينبغى أن يكون موقفنا إزاء الفلسفة الغربية ، كما كان موقف أجدادنا إزاء الفلسفة اليونانية . وهو موقف إيجابى يدعو إلى ترجمة الفلسفة الغربية ونقلها والأخذ بكثير من مسائلها ، ثم تأليف عناصرها فى قوالب عربية ، مستوحاة من ماضى الأمة وحاضرها .

٤ — موقفنا إزاء الفلسفة بصورة عامة

لابد أن نشير فى آخر هذا المقال إلى أنه ينبغى لنا فى كل ذلك أن نتجنب التقليد المحض . إن مجلاتنا الشهرية طافحة بالمقالات الفلسفية ، كما أن دور النشر تصدر فى كل شهر كتابا فلسفياً موضوعا أو مترجما . إلا أن هذه الزيادة فى الإنتاج لا تدل على إنتاج حقيقى وإنما هى زيادة وهمية مبنية على التقليد المحض . لقد أصبح البحث فى الأمور الفلسفية عندنا زياً من الأزياء لا أكثر ولا أقل . وقلما وجدت كاتبا لم يكن له فى هذا الحقل باب واسع . وهـذه الظاهرة تدل على أن القارئ العربى يرغب اليوم فى مطالعة المواضيع الفلسفية بالرغم من اضمحلال الفلسفة العربية وزوال رسومها من ربوعنا . ولـكن معالجة هـذه المواضيع لا تتعدى الآن طور التقليد الأعمى . إننا نقلد الغربيين فى كل شىء ، نقلدهم فى الأزياء كما نقلدهم فى الأفكار والعواطف . نعم قد يكون التقليد ضروريا فى المرحلة الأولى من حياة

الفكر . إلا أنه إذا طال أفقد الفكر روعته وعبقريته . فإذا شئنا أن تكون لنا فلسفة عربية مستمدة من الفلسفة العربية القديمة والفلسفة الغربية الحديثة معاً وجب علينا أولا أن نتجنب التقليد الأعمى ، وأن نسمو إلى يفاع الاستبصار والإبداع ، وهذا لا يمنع من أن يكون فى العالم العربى فلاسفة مقلدون يذهبون إلى ما ذهب إليه ابن رشد فى وحدة العقل ، أو يقولون بما قال به ابن خلدون من إبطال علم مابعد الطبيعة ، أو يعتنقون مذهب (كانت) أو (أغوست كومت) أو (سبنسر) فى نظرية المعرفة ، إلا أنه ينبغى أن يوجد إلى جانب هؤلاء التابعين فلاسفة آخرون مبدعون يقتبسون العناصر من هنا وهناك ويصوغونها فى قوالب جديدة . والشرط اللازم لهذا الابداع هو فى نظرنا فك الفلسفة من عقالها وإطلاق حريتها وتجريدها من القيود التقليدية والضغط الاجتماعى . وليس فى حرية التفلسف أى خطر على الدين ، لأن الإيمان أقوى من أن يتصدع بمعاول العقل . لا بل قد يكون فى هفوات العقل تأييد له ورجوع إليه . وما الفلاسفة إلا شعراء يصوغون مادة العلم فى قوالب العقل ، كما ينسج الشعراء من صور الطبيعة رموزاً ومجازات ، فاذا نظرنا إلى الفلسفة هذه النظرة الفنية ، أمكننا أن نحلها دار الأمان ، وأن نتغاضى عن المتفلسفين كما نتغاضى اليوم عن الشعراء .

جميل صليبا

هل يمكن وضع خطة مشتركة للعالم العربي

في ترجمة أمهات الكتب الغربية في العلوم والآداب ؟

للدكتور جواد علي

أنا من الداعين إلى ضرورة تنسيق الجهود في مختلف نواحي النشاط الإنساني في هذا العالم العربي ، في الأهداف السياسية وفي المشاكل والقضايا الاجتماعية والاقتصادية والصناعية ، والتعليمية والزراعية وفي كل حقل آخر . فالعالم مقبل الآن نحو تكوين المجتمعات والكتل الكبرى ، وفي العالم اليوم مجموعات من الكتل مثل الكتل السلافية والأنكلوأمريكية واللاتينية ، فحري بالعالم العربي أن يوسع مجال تعاونه فلا يقصره على الأقطار الداخلة في نطاق جامعة الدول العربية ، بل يدخل في ذلك كل الأقطار التي تتكلم باللغة العربية ، ويسعى لتوحيد جهودها ومعالجة مشاكلها في نطاق المصالح العربية الخالصة البحتة ، ضمن الهدف القومي فقط .

والناحية الثقافية من أهم النواحي التي يجب توجيه عناية خاصة لها ، لأنها تمس أهم شيء في الإنسان وهو « العقل » وتحت تأثير هذه الثقافة يمكن ضبط العواطف وتقريب الاتجاهات وكبح الدسائس الأجنبية ، التي تحاول التفريق بين أبناء العالم العربي وأقطاره .

ولا بد للأقطار العربية اليوم من تغيير مجرى تفكيرها القديم ، وتوجيهه توجيها يتلاءم ومقتضيات الزمان الحديث ، والانقلاب الذي طرأ على الإنسان والذي سيطرأ عليه في المستقبل ، فيكيف نفسه وفق هذه المقتضيات ، ويلائم بين حاجياته وحاجيات الزمان القادم . وحيث أن ذلك يتعذر على القطر العربي الواحد القيام به ، فلا بد للأقطار العربية من تنسيق جهودها مشتركة وتوجيهها اتجاهاً تشد أزره كل الأقطار .

ولما كان لابد للأقطار العربية من الاطلاع على مجاري التفكير العالمي والإنتاجات الفكرية في الأقطار الراقية ، فإن من الضروري لنا نقل أمهات الكتب إلى العربية ، للوقوف على أحدث ما أنتجه العقل وما أبدعه الفكر البشري في كل مكان .

هنالك مؤلفات أتيح للمثقفين ثقافة حديثة الوقوف عليها بلغاتها الأصلية مثل الإنكليزية التى وجدت لها قراءاً فى الأقطار العربية التى كان ولا يزال لها اتصال سياسى وثقافى مباشر بإنكلترة وأمريكا ، مثل مصر والعراق وفلسطين ولبنان وسوريا . والفرنسية التى وجدت لها رواجاً بفضل العوامل السياسية ، أو العوامل الثقافية مثل المدارس الفرنسية والبعثات الفرنسية فى قسم من الأقطار العربية ، وعلى الأخص سوريا ولبنان ومصر ، والألمانية عند المثقفين الذين درسوا فى المدارس الألمانية أو فى ألمانية نفسها ولا سيما فى الطب والكيمياء والصناعة والاستشراق

أما الذين كانت ثقافتهم دون الثقافة العالية أو كانت ثقافتهم اللغوية ضعيفة أو دون الوسط ، أو اقتصرت ثقافتهم على الثقافة القديمة ، فقد حرموا من لذة الاطلاع على الثقافات الأجنبية ، وحرموا من الاستمتاع بها . وهذا طبعاً نقص كبير جداً يجب على البلاد العربيه تلافيه .

وهنالك مؤلفات لم يتح حتى لأغلب المثقفين ثقافة حديثة عالية الاطلاع عليها بلغاتها الأصلية ، وذلك لكون اللغة التى كتبت بها من اللغات التى لم يكتب لها الرواج ، ولكنها مع ذلك من اللغات التى كتبت بها مؤلفات قيمة وثمينة فى مختلف نواحى النشاط الإنسانى . مثل الروسية ، والهولندية والسويدية والنرويجية ، والدانماركية والإيطالية والأسبانية والبرتغالية ، وغيرها . وقد أتيح لقسم منها الترجمة إلى اللغات الرائجة ، مثل الإنكليزية أو الفرنسية ، فاطلع عليها من يحسن هاتين اللغتين ، وحرم من لم ينل الثقافة الحديثة حتى من هذه التراجم ، خلا مترجمات معدودة ظهرت فى اللغة العربية عن هذه الترجمات فى الأكثر ، وعن اللغات الأصلية بوساطة أشخاص ساعدتهم الظروف على التثقف بهذه اللغات وهذا فى القليل ، وهم أشخاص يمكن عدهم فى كل العالم العربى . وينقص الكثير منهم التمكن من اللغة العربية وصعوبة التعبير عن أفكارهم بلغة فصيحة سليمة ، وبسبب تشتت هؤلاء فى الأقطار العربية وعدم وجود المشجعات لهم على الترجمة ، ومن أهمها المال اللازم ، ولصعوبة قيام كل قطر بمفرده بتقديم المعونة اللازمة ، وجب على البلاد العربية مشتركة وضع خطة موحدة منسقة فى ترجمة أمهات الكتب الغربية فى العلوم والآداب .

لقد انصرف عدد لا يستهان به من المترجمين إلى ترجمة الكتب « الرخيصة » الكتب السهلة العامة ، والكتب التى تعالج القضايا التى يهتم بها الشباب فى أدوار المراهقة ، أو الجمهور بعد حدوث مشاكل طارئة ، تحمل طابع التهريج فى الغالب ، وهى كتب أطلق عليها اسم « الكتب الدورية » أو « الكتب الموسمية » وذلك لرواجها ولإقبال المتوسطين والجمهور

العام على قراءتها ، وضمان الربح منها أو الحصول على نفقة ما صرف عليها على الأقل .

أما كتب التخصص وكتب الدراسات العالية ونحن فى حاجة شديدة إليها — هى فى نظرى أشد من كتب التاريخ أو الأدب — فلقلة أصحابها ولصعوبة فهمها على المتوسطين ومن هم دون المتوسطين . ولكونها من مواضع التخصص التى تحتاج إلى دراسات عالية . فقد أصبح نصيبها الإهمال ، ولم يقدم الناشرون على طبعها فى النادر إلا وهم على علم تام بأنها صفقة خاسرة ، أو عمل متعب غير مفيد من الوجهة التجارية ، وهى كذلك فى بلاد الغرب ، غير أن مما يتغلب على هذه الحوائل هناك كثرة عدد طلاب الجامعات والمدارس العالية ، وأصحاب التخصص وميلهم إلى زيادة ثقافتهم التخصصية ، حتى بعد تركهم مراحل الدراسة والجامعات بسنين طويلة ، من جهة ، ومساهمة الحكومات والجمعيات العلمية والجهات الخيرية فى طبع هذه المؤلفات العميقة المركزة التى لا يطلبها فى الغالب إلا ذوى التخصص والبحوث ، وتقديم المساعدات وكل وسائل التشجيع للمؤلفين والناشرين لنشر تلك البحوث من جهة أخرى .

ولنأخذ مثلا على ذلك كتب المستشرقين فهى من الكتب التى لا يمكن أن تعود على المؤلف أو الناشر فى الغرب بربح مادى ولا بمكاسب تعوض عن تلك الأتعاب . ولولا مساعدات الحكومات لأغراض سياسية ، ولولا مساعدات الجمعيات التى أنشئت لأغراض تبشيرية ، أو الجمعيات الاستشراقية العلمية ، والمؤسسات الخيرية ، لتوقفت حركة الاستشراق . فهذه المنشئات هى التى تقوم بسد نفقات النشر وحقوق التأليف ، وكذلك تفعل الحكومات والجمعيات فى تشجيع الفروع العلمية الأخرى التى لا يمكن أن يشتريها إلا ذوو التخصص والأبحاث .

والعالم العربى اليوم فى حاجة شديدة إلى نقل أمثال هذه الكتب إلى اللغة العربية لرفع كفاءة المتخصصين ، ولزيادة ثقافتهم الفنية والمسلكية ، لأننا على أبواب نهضة ، والنهضة لابد أن تبدأ بالترجمة ، ثم تأتى بعد هذه المرحلة مرحلة التأليف ، وهى مرحلة لم نصل إليها حتى الآن . والأقطار العربية بمفردها عاجزة عن القيام بهذه المهمة الشاقة ، فلا المترجمون الاختصاصيون متوفرون فى كل قطر ، بعدد كاف وبعدد كافية ، ولا الناشرون يقدمون أو يستطيعون تقديم المال اللازم للطبع أو تعويض المترجمين تعويضا عادلا يتناسب والجهود التى تبذل لترجمة الكتب الدقيقة والأمهات ترجمة علمية فنية ، ولا الحكومات العربية تستطيع كل بمفردها ترجمة ما تحتاج إليه من الكتب فى مختلف العلوم بصورة منتظمة ومستمرة

فى كل عام . أضف إلى كل ذلك الخطر الذى ينجم عن تكرر ترجمة كتاب واحد وفى عدة أقطار عربية ، فتذهب جهود المترجمين سدى .

وترجمة أمهات الكتب ترجمة أمينة دقيقة بأسلوب رصين ، وإعادة سبك المعانى التى صبها المؤلف فى قوالب غاية فى الجمال وحسن الذوق ، وسمو الفن ، ليست من الأمور السهلة ، لأنها تستلزم فنا يكون موازيا لفن مؤلفها الأصلى ، وعلما باللغتين وتخصصا فى الفن الذى وضع فيه المؤلف مؤلفه ، وأسلوبا بليغا فى اللغة التى سيترجم إليها المؤلف الكتاب ، حتى لا يفقد المصنف الأصيل روعته وبلاغته وتأثيره فى النفوس . ومثل هذا العمل يحتاج إلى جهد عقلى كبير ومدة طويلة من الزمن ، إلى أن تأخذ الترجمة شكلها النهائى المرضى ، وهو عمل قد لا يشجع ظروف المترجمين المالية أو ظروف الناشرين وميلهم إلى استغلال أتعاب المترجم — على ترجمة « الأمهات » والكتب الخالدات ، وكتب البحث والتخصص .

فلأجل تغذية العالم العربى بغذاء روحى دسم ، ولأجل تعريفه خلاصة عقليات الأمم الأخرى ، وتقريب عقليات تلك الأمم من العقلية العربية والعقلية العربية من تلك الأمم ، ولرفع مستوى الأمة العربية الثقافى ، ولتخفيف الصعوبات التى تقف أمام المترجمين والناشرين فى سبيل ترجمة أو نشر الكتب العلمية أو الفنية البحتة أو كتب الأدب الرفيعة ، ولتعويد الناس قراءة هذه الكتب ، وتشويقهم إلى قراءتها وإخراجها بصورة علمية فنية دقيقة ، لكل هذه الأسباب ؛ وجب وضع خطة مشتركة للعالم العربى فى ترجمة أمهات الكتب العلمية والأدبية والصناعية والفنية إلى اللغة العربية . كأن تقوم اللجنة الثقافية فى جامعة الدول العربية وهى أعلى مؤسسة ثقافية رسمية للدول العربية ، بتنظيم حركة الترجمة وتوجيهها توجيها يتفق مع حاجيات العالم العربى الثقافية والعلمية وأهمية المواضيع .

وفى دائرة منظمة « يونسكو » شعبة خاصة مهمتها تشجيع « الترجمة » وتقديم كل المعونات الممكنة إلى المترجمين ، ولها نشرات تصدرها وقوائم ترسلها إلى الدول الأعضاء ، وإلى من يطلبها ، فيها معلومات عن الكتب القيمة والمصنفات المفيدة التى تعد من الكتب الخالدة بالنسبة للتراث الإنسانى والقومى فى آن واحد . فحرى بجامعة الدول العربية أن تنشأ بها شعبة خاصة تتولى مهمة تيسير ترجمة أمهات الكتب ترجمة دقيقة صحيحة بحيث تكون صورة صادقة للأصل ، على أن نستعين بآراء الخبراء وبالخبرة الفنية التى حصلت عليها المؤسسات العلمية العالمية التى تعنى بأمر الترجمة والتأليف وبما يتعلق بهما منذ نحو قرن .

ويمكن تحقيق هذا التعاون فى نظرى بتوزيع العمل بين هيئتين :

١ — هيئة اللجنة الثقافية نفسها .

٢ — الدول العربية دولة دولة .

فتقوم اللجنة الثقافية بجامعة الدول العربية بقسط من الترجمة ، وتقوم كل دولة بقسط آخر يوزع عليها حسب رغبتها وحسب الاختيار فى ترجمة الكتب التى ترغب فيها . كأن تستشير اللجنة الثقافية الدول العربية ، قبل ابتداء العام المالى للجامعة ، لبيان رأيها فى الكتب التى يستحسن نقلها من اللغات الأجنبية المختلفة ، وفى شتى المواضيع التى تحتاج إليها اللغة العربية . وبعد وصول ردود الدول إلى هذه اللجنة ، توحد وتصنف وتوزع حسب الأهمية والمنزلة ، ثم يضاف إلى هذه القائمة ما وصل إليها من ردود العلماء وذوى الاختصاص والتبحر فى البلاد العربية ، بعد أن تكون قد وجهت إليهم دعوات خاصة تحثهم فيها على المساهمة فى تقديم مشورة بالكتب التى تصلح للترجمة ، وبعد تصنيفها يضاف إليها ما لم يرد فى قائمة الدول العربية إلى القائمة ، بعد اقتناع اللجنة الثقافية بأهمية تلك الكتب وفائدتها ، ثم توحد وتعرض على مجلس جامعة الدول العربية للنظر فيها نهائيا مشفوعة بتقرير اللجنة الثقافية عنها .

وبعد الموافقة عليها توزع على الدول العربية لاختيار كل حكومة ما ترغب فى ترجمته من هذه الكتب ، وبعد وصول ردود الدول تنشر أسماء الكتب التى ستقوم كل حكومة بترجمتها إلى اللغة العربية فى نشرات الجامعة ، وفى الصحف ، وتخطر دور النشر بذلك حتى تكون على علم بالموضوع ، فلا تتكرر الترجمات أو يفاجأ مترجم يوشك على الانتهاء من عمله بظهور ترجمة فتذهب أتعابه سدى .

وتقوم الجامعة نفسها بقسط آخر من الترجمة فتختار هى لنفسها عدداً من الكتب من هذه القائمة المختارة لتترجمها على حساب ميزانيتها الخاصة ، بعد أن تنشر أسماءها وتخطر الدول العربية ودور النشر بأنها ستعتزم ترجمتها ، وبعد معرفه إذا كان هنالك من قام بترجمتها للاتصال به والوثوق من صحة قوله ودرجة ترجمته ، فإذا ما تأكدت من ذلك فى خلال مدة معينة أخذت اللجنة الثقافية فى مباشرة العمل .

وأرى أن تنوع الجامعة الكتب التى تصلح للترجمة فلا تقتصر على لون واحد وتترك سائر الألوان الأخرى ، ثم تنظر فى توزيع تلك الكتب على من يصلح للقيام بعمل الترجمة من المتخصصين فى هذا الفن فى كل البلاد العربية .

وهنالك مشكلة أعاقت حركة الترجمة ، وهى أن أكثر المثقفين الذين ثقفوا ثقافة حديثة والذين يتقنون لغة أجنبية إتقانا جيداً عن اختصاص ، لا يحسنون وضع الكتب التى يريدون

ترجمتها بلغة عربية سليمة وبأسلوب تعبيرى قوى يعطى الترجمة روعة وبلاغة ، لذلك فهم ينفرون فى الغالب من الترجمة ، ولا يقدمون عليها ، ولا سيما الكتب العلمية التى تحتاج إلى مصطلحات ومسميات ، وإذا أقدموا كانت ترجمتهم ركيكة غامضة غير مفهومة لا تؤدى الغاية التى من أجلها ترجم ذلك الكتاب ، وقد تسيء إلى قيمة المؤلف العلمية ولغته الأصلية التى ألف بها .

وبوضع خطة موحدة مشتركة يمكن للعالم العربى الحصول على ترجمات علمية متقنة بلغة متينة ، وبأسلوب بليغ رصين ، ويمكن الحصول على مثل هذه الترجمات بتكليف لجنة من كبار المتخصصين فى الموضوع بترجمة الكتاب مشتركة أو بتوزيع العمل على الأعضاء باتفاقهم ، بأن يقوم كل واحد منهم بترجمة الفصل الذى يرغب فيه ، وفى كلتا الحالتين لا بد من التشاور والتداول فى الترجمة وعرض كل واحد منهم ما ترجمه على الآخرين لتدارك ما قد يحدث فيه من سهو أو هنات فى التعبير أو ركة فى الجمل .

ومن الممكن وهو الأفضل فى نظرى إشراك جماعة من الأقوياء فى اللغة العربية ومن المعروفين بالكتابة وحسن الإنشاء وقوة التعبير ، فى صياغة المعانى التى يشرحها أصحاب الاختصاص لهؤلاء بعبارات عربية متينة فيها بلاغة ودقة ترضى أصحاب الاختصاص ، ولا تثبت إلا بعد اقتناعهم نهائيا من أنها منطبقة على مقصود المؤلف الأصلى تمام الانطباق ، وأنها لا تقل بلاغة وسبكا عن اللغة الأصلية التى كان بها الكتاب .

ولنا فى هذه الطريقة سابقة فقد استطاع المرحوم المنفلوطى على قدر إلمامه بالفرنسية وتصرفه أو تصرف من كان يترجم له عن الأفرنسية ، أو عدم تمكن من كان يقرأ له من اللغة الفرنسية ، من أحياء ما ترجم ومن تخليده بالعربية ، ومن تشويق الناس إلى المطالعة وإقبالهم عليها ، كأنهم يقرءون قطعا أدبية رائعة كتبت بالعربية لا بلغة أخرى . فالترجمة نفسها يجب أن تكون آية من آيات البلاغة إن كانت من قطع الأدب مثلا ، وغاية فى السهولة والقوة ورصانة التعبير العلمى إن كانت من الكتب الأخرى .

وهنالك مشكلة أخرى تدعو إلى وضع هذه الخطة المشتركة ، وهى مشكلة الكتب التى يجب أن تكون تحت متناول اليد فى الكليات والجامعات والمدارس العالية ، والمراجع الأساسية التى يستعين بها الطالب فى الدراسة العالية ، وكل البلاد العربية تتذمر اليوم من هذا الوضع وتستعين بالمصادر الأجنبية فى هذه المرحلة من الدراسة ، وتتعرض للنقد من جانب الغيارى على لغتهم ، وثقافتهم القومية ، وما دامت الأقطار العربية توّاقة إلى التقارب

فى السياسة التعليمية والاتجاهات فى التربية وفى التعليم ، وتهدف إلى توحيد أو تقريب النظم الجامعية وبعثها على أسس متقاربة ، فإن من الممكن التغلب على هذه الصعوبة عن طريق اللجنة الثقافية ، بأن تتعاون الأقطار العربية على وضع مخصصات كافية فى ميزانية الجامعة العربية ، لكى تتمكن لجنة الترجمة الدائمة المفروض تشكيلها من أصحاب الاختصاص العلمى والأدبى ، ومن أصحاب الدراسات الجامعية ، والدراسات العالية فى الجامعة العربية ، من الاتصال بوزارات المعارف ، والكليات والجامعات لاختيار الكتب العلمية المستعملة فى الجامعات الغربية والأمريكية ، فتختار أحسن الكتب وأتقنها ، من التى وضعها جماعة من الأساتذة المتخصصين ثم تعهد إلى ذوى التخصص من أساتذة الجامعات فى مصر وفى الأقطار العربية بترجمتها ولا بأس فى نظرى من إشراك الأساتذة الأجانب ، ولا سيما أصحاب التأليف فى عملية النقل .

وبذلك نخفف مشكلة المصادر والنصوص التى يستعان بها فى الدراسات العالية فى البلاد العربية ، ونكون قد عملنا نفس الوقت على تكوين ثروة علمية فى البلاد العربية لا تقدر بثمن تكون أساساً لبناء الصرح العلمى و « التخصص » فى العالم العربى . ويصعب فى الوقت الحاضر على الأقطار العربية التغلب على هذه المشكلة منفردة لقلة المتخصصين واختلاف المصطلحات العلمية فى هذه الأقطار ، وتنوع الدراسات واختلاف المستوى العلمى للاساتذة أنفسهم ، وصعوبة إيجاد المال اللازم لترجمة الكتب العلمية التى لا يقبل على قراءتها بالطبع إلا أصحاب التخصص وأصحاب الدراسات العالية . ولذلك وجب تدخل الجامعة .

فإذا ظهرت مثل هذه الترجمات العلمية المتقنة ساعدت على تقريب مناهج الدراسات والبحوث العالية فى البلاد العربية ، وتوحيد المصلحات العلمية وتقريب الاتجاهات والأهداف العلمية والثقافية ، وخففت من حدة الاختلاف الموجود فى مستوى طلاب البلاد العربية العلمى والثقافى فى المدارس العالية ، وأمكن ضمان الفائدة من زيارة أساتذة المدارس العالية والطلاب فى كليات البلاد العربية وجامعاتها على نحو ما يحدث فى الجامعات والمعاهد العالية فى البلاد الأوروبية والأمريكية . ومما يلاحظ أنه حتى فى انجلترة وأمريكا تستعين الجامعات الإنكليزية والأمريكية فى الدراسات العلمية والعالية بالمؤلفات الألمانية المركزة المشهورة ، فى مثل الكيمياء العضوية أو النبات أو الفيزياء وبعض فروع الطب والفلسفة ، ولا ترى فى ترجمتها بأساً ولا غضاضة ما دامت الغاية علمية عالية . وما دامت هذه المؤلفات مركزة عميقة ، يندر وجود أمثالها فى اللغة الإنكليزية ، ويفعل الألمان والفرنسيون نفس ما يفعله الإنكليز ، لذا فإن من اللازم لنا ترجمة أمثال هذه الكتب عن لغاتها الأصلية إلى لغتنا العربية ، على أن يراعى فى

الاختيار كما قلت التركيز العلمى والتعمق فى البحث وشهرة المؤلفات فى أوربا وأمريكا ، فنقدم على ترجمتها من لغاتها الأصلية التى كتبت بها ، وبذلك نكون قد حصلنا فى مدة مناسبة على كتب علمية عميقة جداً ، هى نتائج تجارب وأبحاث مئات من السنين ، وخلاصة عقليات البشر . وتساعد هذه بالطبع المتخصصين الذين لا يحسنون الألمانية أو الفرنسية أو الإنكليزية على الوقوف على مواضع التخصص ، كما أنها ستكون مقدمة لهؤلاء ، وعاملا مساعداً على التأليف .

ولا بأس من وضع جوائز مشوقة لحث أصحاب القابليات على الاستفادة من قابلياتهم وتشويقهم إلى الاستفادة من كفاءاتهم ، وتشويقهم للاقدام على الترجمة ، كأن تكون هنالك جوائز عربية عامة وجوائز محلية لتشجيع المترجين فى كل قطر على الترجمة .

وأرى وجوب تعاون «لجنة الترجمة» فى جامعة الدول العربية ، مع دور النشر والمترجين وكبار الأساتذة فى البلاد العربية ، أو الناشئين الذين تأنس فيهم الميل إلى الترجمة ، وإرشادهم إلى الكتب النافعة التى تصلح للنقل ، وتقديم المساعدات المادية والمعنوية اللازمة لدور النشر والمترجين ، للتغلب على الصعاب ، ولإخراج تلك المترجمات فى أجمل حلة فنية مع المحافظة على الطابع الأصلى للكتاب المترجم بصوره وخرائطه وجداوله ، إن كانت به صور أو خرائط أو رموز ، حتى يكون مطابقاً للأصل تمام المطابقة ، وقد تقف أمام الترجمة بالشكل الذى أريده بعض الصعوبات المادية ، مثل ارتفاع سعر النسخ وبطء التوزيع ، وأعتقد أن من الممكن التغلب على ذلك ببيع المترجمات بسعر التكاليف أو أقل من سعر التكاليف ، باشتراك الجامعة والدول العربية بدفع الفرق وتحمل الضرر ، لأن الغاية من نشرها هى غايات ثقافية وليست تجارية ، حتى نفكر فى الربح المادى قبل كل شىء .

ومن المستحسن فى نظرى عقد اجتماعات أومؤتمرات دورية تحت إشراف الجامعة العربية ، للمداولة فى شئون الترجمة والتأليف والنشر ، يشترك فيها المؤلفون والمترجمون والناشرون لمعالجة المشاكل التى تخص هذه المواضيع فى البلاد العربية من جميع أوجهها النظرية والعملية ، والاتفاق على المصطلحات العلمية والأدبية التى يجب أن يستعملها المترجمون والمؤلفون فى البلاد العربية فتنشر على الملأ للاطلاع ، وبعد أن وافقت الجامعة العربية على قانون حماية حق المؤلف والمترجم والناشر ، اعتقد أنه لابد من وضع تشريعات أخرى لتنظيم التأليف والترجمة والنشر ، وكيفية توزيعها فى البلاد بصورة عادلة متقابلة ، وحماية المترجين والمؤلفين من الفقر والأمراض ، بالضمانات الاجتماعية على نحو ما يحدث فى الغرب .

جواد على

المصطلحات العلمية

والخطة التى ينبغى أن يسير عليها العالم العربى فى تعريبها

الدكتور داود الجلبى

العلم عند العرب قبل الإسلام :

لم يكن للعرب فى جاهليتهم علوم راقية مدونة ، بل كان لهم معلومات يتناقلونها شفهياً . كان لهم معرفة لا بأس بها بحركات القمر والنجوم وحساب المواسم والأعياد والأنواء ومهاب الرياح ، وبالاهتداء بالنجوم فى أسفارهم . وكان لهم معرفة أيضا بالريافة وهى معرفة استنباط الماء من الأرض . وعرفوا الحيوانات التى فى جزيرتهم بأنواعها وأشكالها وطبائعها ، الداجنة منها والوحشية . وعرفوا كذلك النباتات التى وقع نظرهم عليها وسموها وعلموا خواصها ، وما ينفع منها الماشية ومالا ينفع وما فيها من الخواص الدوائية وغيرها . وغرسوا النخيل والأعناب والتين والزيتون والرمان وزرعوا الحبوب . وعرفوا بعض الأدواء فى الإنسان والماشية وعالجوها بالأعشاب والكى . وكانت الرياضة راقية فى اليمن خاصة . وكانوا يقرظون الشعر ولهم عناية خاصة بعلم الأنساب والقيافة وتربية الخيل واستعمال السلاح إلى غير ذلك من المعارف التى لم تبلغ من الرقى والنضوج درجة يمكن معها تسميتها بالعلوم .

اشتغالهم ببعض العلوم بعد الإسلام :

أكثر ما اشتغل به العرب بعد بزوغ شمس الإسلام الحروب وفتح البلدان وهداية الناس إلى دينهم . وفى الوقت ذاته كان أناس منهم يعنون باستنباط أحكام الفقه من القرآن والحديث ، ثم كثر اشتغالهم بنقل الحديث وبالتفسير وسيرة الرسول والفقه وعلم القرآن وعلوم اللغة من صرف ونحو وبيان وبديع وعروض ومفردات اللغة ودونوا الشعر ، ثم اشتغلوا بالعقائد وألفوا فى جميع هذه العلوم وأكثروا . وكان الدين هو الحافز الأصلى للاشتغال بهذه العلوم . وكان أكثرهم فى البدء عرباً خلصا ، فلم يجدوا بفطرتهم صعوبة فى أخذ ما احتاجوا إليه من المصطلحات فى هذه العلوم من لغتهم ذاتها مباشرة .

نقل الكتب اليونانية والفارسية وغيرها :

ثم إن العرب انتبهوا إلى وجود علوم راقية كالطب والفلسفة والمنطق والرياضيات والهندسة والكيمياء وغيرها عند أمم أخرى أشهرها وأرقاها إذ ذاك اليونان ، فأحبوا الاطلاع عليها . وكان فريق من النصارى قد سبق لهم أن تعلموا لغة اليونان لاحتكاكهم بهم ودرسوا على علمائهم ونقلوا كثيراً من كتبهم إلى السريانية . فلما شعروا برغبة العرب فى الاطلاع على هذه العلوم ، صاروا ينقلون للخلفاء والوزراء والعظماء كتب اليونان إلى العربية إما من ترجمتها السريانية أو من اليونانية رأساً . وكان النقل فى بادئ الأمر من السريانية إلى العربية أسهل لتشابه اللغتين الأختين واشتراكهما فى التعبير وفى كثير من الألفاظ . حدث أول نقل فى زمن الأمويين لخالد بن يزيد بن معاوية . نقل له القس هارون الاسكندرى شيئاً من كتب الكيمياء والنجوم والطب . ولكن جل النقلة كانوا على عهد العباسيين . نُقل لهارون الرشيد شىء قليل ، ثم كثر النقل فى زمن المأمون وبعده . فإن هذا الخليفة المحب للعلم هو الذى رغب النقلة وقربهم وأغدق عليهم العطاء ، فحصلت عند العرب تلك النهضة العلمية المعروفة فى التاريخ . وكان النقلة كثيرين ، أشهرهم حنين بن إسحاق العبادى رئيس النقلة فى بيت الحكمة الذى أنشأه المأمون . ومن مشاهير النقلة من الفارسية عبد الله بن المقفع ونقلت كتب قليلة من الهندية أيضا .

هل صعب النقل الى العربية على الناقلين :

لا أظنه صعب عليهم كثيراً ولو أن لكل نقل أو ترجمة من لغة إلى أخرى صعوبة ما لاختلاف فى التعبير والتركيب ومغايرة خصائص اللغتين المنقول منها والمترجم إليها واستعمال المجاز والاستعارة ، وبخاصة إذا لم يكن فى اللغة المنقول إليها مصطلحات تؤدى معنى مصطلحات اللغة المنقول منها ، وقد وفقوا فى نقلهم بفضل مرونة اللغة العربية وسهولة الاشتقاق فيها . إلا أنهم تركوا قليلا من المصطلحات بألفاظها اليونانية لأنهم لم يستطيعوا يومئذ إيجاد مقابل لها بالعربية مثال ذلك : أنالوطيقا وسوفسطيقا وقاطاغورياس وارطماطيقا وابيذيميا . ثم أتى بعد ذلك من قابلها على الترتيب بالتحليل والمغالطة والمقولات العشر والرياضيات والوافدة . وعربوا ألفاظاً لم يجدوا مندوحة من تعريبها حتى ظنها بعض المعرب لاحقة بالعربية كأنها منها . فإن كثيراً من علماء اللغة العربية لم يشعروا بعد استعمالها زماناً بأنها معربة ، بل

ظنوها عربية الأصل ، كـكلمة جنس مثلا المعربة من Genus . وتركوا الأسماء اليونانية للنباتات التى لا تنبت فى البلاد العربية على حالهـا . وهذا ضرورى ، تعمل به جميع الأمم ، إلا إذا احتالوا لوضع اسم له فى لغتهم . ولما تكاملت وتهذبت المصطلحات العربية فى القرنين الثالث والرابع ، وكثرت التآليف عند العرب وازدهرت العلوم ، صارت اللغة العربية لغة علم وفن فضلا عن أنها لغة أدب ودين . وأمست الأقوام التى دانت بالإسـلام من غير العرب لا تستطيع التأليف فى العلوم إلا بالعربيـة ، وهكذا كان شأن الفارابى والرازى وابن سينا وأضرابهم . وأخيراً لما تغلبت النعرات القومية على الوحدة الدينية ، صاروا يكتبون بلغاتهم العبارات العادية ، لـكنهم يضطرون إلى استعمال المصطلحات العلمية العربية .

توقف سير العلوم عند العرب :

دام هذا الرقى عند العرب حتى كانوا طيلة بضعة قرون أعلم سكان الدنيا ، ومن مناهلهم كانت تغترف العطاشى إلى العلم . لـكنهم بقدر ما ارتقوا علماً انحطوا سياسة وتفرق شمل وحدتهم السياسية التى كانت لهم فى الدولة الأموية ، وأفقدهم الترف القدرة على معاناة الحروب والمغامرات فتسلط عليهم الأجانب وفقـدوا استقلالهم . وكانت الطامة الـكبرى استيلاء المغول على البلاد الشرقية وتغلب الأسبان على عرب أندلس وإخراجهم منه ، فعقمت أدمغتهم . غير أن شيئاً غير قليـل من الحركة الفكرية كان قد بقى عندهم بقوة الاستمرار فى الدولتين السلجوقية والألخانية . لـكن هذه القوة كانت تضعف شيئاً فشيئاً حتى انطفأت أو كادت فى الدولة العثمانية . حدث ذلك بعد أن تعلم الأوروبيون من العرب فى أسبانيا وصقلية وصاروا ينقلون كتبهم إلى اللاتينية ويتدارسونها . وأصبحنا الآن نتطفل على موائد علومهم .

دورنا الحاضر :

لما صحونا مما ألم بنا من صدمة استيلاء الأجانب على بلادنا ، وجدنا قافلة العلوم والفنون والصنايع قد سارت وتركتنا وراءها بعيدين . فرجعنا نتعلم من الذين كنا علمناهم ، واحتجنا إلى نقل كتبهم وتعلم علومهم ، كما احتجنا إلى نقل علوم اليونان من قبل . ورأينا ما كنا وضعناه من المصطلحات لم يعد يكفى لمـا وضعه الفرنج من المصطلحات التى تعد بعشرات الألوف . فماذا عملنا لتلافى هذا النقص ؟ سارت مصر سيراً حسناً بفضل الخديوى محمد على باشا

العظيم الذى أسس المدارس وجلب لها معلمين من الفرنج منهم كلوت بك الشهير ، وأنشأ جيلا متعلماً يحسن العربية والفرنسية ، فأمرهم هو ومن أتى بعـده بنقل وتأليف كتب العلم وأوقفت مدرسة أبى زعبل الطبية ، ووُضعت مصطلحات جيدة كان الافتقار إليها عظيما . وأنشئت ببيروت الـكلية الأمريكية ، وعلمت باللغة العربية وخدم رئيسها الدكتور فان ديك العربية خدمة جلى بتآليفه ، فكان الأمل بمصر وبيروت عظيماً . ولـكن يا للأسف ، استولى الانكليز على مصر فجعلوا لسان التدريس فى مدرسـة الطب وغيرها الإنكليزية ، وصارت الـكلية الأمريكية ببيروت تعلم بالإنكليزية أيضا ، بحجة عدم وجود أساتذة متخصصين يحسنون العربية . وهكذا أصيب لساننا العلمى بنكسة كبيرة . فلو بقى التدريس بالعربية لاغتنى لساننا بالمصطلحات العلمية لأن الحاجة أم الإيجاد . والآن ، لما كان شبابنا يتعلمون العلوم بغير لسان أمهاتهم ، لا يكادون يفكرون فى البحث عما ينقص العربية من المصطلحات ، لا بل يشيحون بوجوههم عما يجدونه منها . والإنسان عدو ما جهل . ترى الأطباء عندما يجتمعون لمباحثة طبية لا يسمع من أفواههم سـوى رطانة أجنبية يخالطها كلمات عربية عادية . وكلما ازداد عدد المتعلمين بلسان غير عربى ، كثرت هـذه الرطانة وأهملت العربية . فإذا لم تعالج الحالة معالجة أساسية ، ازدادت سـوءاً . وما المعالجة الأساسية إلا جعل التعليم فى المدارس العالية باللسان العربى . عندها يحس بالنقص الموجود فيسعى ذوو الاختصاص إلى تلافيه . نعم لدينا مجامع لغوية علمية تنفق عليها الحـكومات العربيـة بسخاء وهى تضع ، ولو ببطء ، مصطلحات لشتى الفنون . ولـكن لمن تضع هـذه المصطلحات إذا لم توجد مدارس تعلم بالعربية فتستعملها ؟ لذا يحق لنا أن نقول إن جامعة دمشق أحسنت صنعاً بجعلها التعليم باللغة العربية .

وقد خطت خطى لا بأس بها بإيجاد مصطلحات صالحة . فإن لم تصل إلى درجة الـكمال بعد أو كان قليل من مصطلحاتها غير واف بالمرام فإن الزمان كفيل بتدرجها إلى الـكمال ، وكل من سار على الدرب وصل .

فلذلك ألح بتوصية سائر الجامعات والـكليات العربية أن تعمل كما عملت دمشق ، وإلا فلا نجاح للعربية .

قد كان بعض العذر فى التدريس بالانكليزية أو الفرنسية لعدم وجود أساتذة عرب أكفاء للقيام بالتدريس ، والآن قد زال هـذا العذر بوجود مدرسين عرب قادرين على التدريس . وأما قول من يزعم بأن العربية لا تصلح لتدريس العلوم العالية لنقص المصطلحات

فيها ، فهو قول هراء يراد به الخداع والمغالطة . نعم يوجد نقص فى المصطلحات العربية ولكن هذا لا يمنع التدريس بالعربية ، لأن المصطلح الذى لا مقابل له بالعربية الآن ، يمكن ذكره بلسان أجنبي وقتياً إلى أن يوجد له مقابل . فنكون بذلك قد عملنا ما عمله أسلافنا فى نقلهم من اليونانية ، فإنهم تركوا أولاً ما لم يستطيعوا إيجاد مقابل عربى له كما هو باليونانية ، ثم وجدوا له ما لم يجدوه أولاً ، كالأمثلة التى أوردناها آنفاً وهو قولهم أنالوطيقا ثم قولهم التحليل ... الخ .

هل العربية عاجزة عن أن تكون لسان علم :

ليست العربية بذاتها قاصرة عن أن تكون لسان علم ولكن التقصير من أبنائها الذين أهملوها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد من أقوى أسباب بقائها متأخرة عن بعض لغات الفرنج ظلم أعدائها لها ومحاربتها فى عقر دارها ، أعنى تسلط الدول الأجنبية على معظم الأقطار العربية وطردها لغتنا من المدارس العالية . أما الدليل على قدرتها فالرقى العلمى والتآليف الفاخرة فى الدولة العباسية ، وكونها المنهل العلمى الوحيد فى الدنيا فى تلك العصور . ودليل آخر نجاح التعليم بالعربية فى مدارس الطب وغيره بمصر على عهد محمد على وبعده إلى أن أقامت الدولة المتسلطة اللغة الانكليزية مكانها . ودليل آخر تدريس الترك العلوم فى مدارسهم العالية بمصطلحات عربية . وآخر دليل نجاح التدريس بها فى الجامعة السورية .

المقارنة بين العربية واللغات الفرنجية :

العربية من اللغات السامية ، واللغات الفرنجية الراقية هى من اللغات الآرية . ولكل منها خصائصها . فمن مزايا اللغات الأوروبية وجود أدوات كثيرة فيها ، منها ما يلحق بأوائل الكلمات (اللواحق préfixes) ومنها ما يلحق بأواخرها (الكواسع suffixes) فينقل معنى الكلمة إلى معنى آخر يختلف قليلاً أو كثيراً عن معنى الكلمة الأصلية حسب المقصود . ومن مزاياها أيضاً إلصاق كلمتين أو أكثر وجعلها كلمة واحدة تفيد معنى جديداً . وقد أحرزت اللغة الألمانية هاتين المزيتين أكثر من سائر اللغات بحيث لا يصعب فيها تسمية اختراع جديد أو أداء معنى مراد أو وضع اصطلاح حديث وذلك دون استعانة كبيرة باليونانية واللاتينية . يقابل مزية كثرة اللواحق والكواسع فى لغات أوروبا مزية الاشتقاق بالعربية ، فإنها مزية عظيمة لا يضاهيها شىء فى سائر اللغات . وأما الكلمات المركبة من

كلمتين أو أكثر تركيباً مزجياً فى لغات أوروبا فيمكن التعبير عنها فى العربية بالتركيبين الإضافى والوصفى .

كيف يمكن أن يكون لدينا مصطلحات علمية كافية ؟

يجب أن تقوم بهذا منظمة مركزية لها مخصصات كافية لهذا الغرض كمجمع اللغة العربية لفؤاد الأول أو لجنة الثقافة فى جامعة الدول العربية أو غيرها . تطلب هذه المنظمة وضع مصطلحات كل علم على حدة من ثلاثة علماء تختارهم من المتخصصين بذلك العلم على أن يكونوا ذوى اطلاع واسع على العربية وعلى لغة أوروبية ، وتحدد لهم زماناً كافيا عند انتهائه يقدمون ما وضعوه من المصطلحات ، فتدرسه المنظمة وتقابل بين ما وضعه الثلاثة وتختار ما يرجح عندها ، ولا تكتفى بإعلانه فى المجلات والجرايد ، بل ترسل نسخاً منه خصيصاً للذين لهم اشتغال بتلك المواضيع ليبدوا آراءهم فيها . ثم تجمع آراء هؤلاء وتمحصها وتقابلها مع ما كانت أعلنته وتثبت أو تبدل أو تعدل حسب ما يبدو لها ويكون هذا قرارها الأخير فتنشره بصورة نهائية وتطلب من المدرسين والمؤلفين استعماله . وعلى هؤلاء أن يتركوا العناد وألا يستعملوا كلمات غيرها حسب أهوائهم . تطبق هذه القاعدة على علم علم ، وفى العلوم الواسعة كعلم الطب على شعبه .

وعلى من يطلب إليهم وضع مصطلحات فى علم ما أن يطالعوا كل ما كتب بالعربية فى ذلك العلم قديماً وحديثاً منذ النهضة العباسية ، ويلتقطوا مايرونه صالحاً ويقيدوه ثم يأخذوا بمطالعة معجم كبير كتاج العروس مثلا من أوله إلى آخره وينقلوا منه كل ما يرونه مفيداً فى وضع مصطلحات لذلك العلم . وبعد الانتهاء من المعجم يراجعون ما سجلوه ويختارون منه الأصلح ، وهكذا يكونون قد أكملوا شغلهم . وهذا شغل ليس بالهين ، بل هو عمل شاق متعب يستلزم صبراً ومثابرة ، فيجب مكافأة القائمين به بسخاء .

انتقاء المصطلحات :

(١) يجب قبل كل شىء ترجيح مصطلحات الكتب القديمة الواصلة إلينا من الدور العباسى فما بعده كيلا تنقطع الصلة بين ماضينا وحاضرنا ولأن تلك المصطلحات حاضرة مهيأة وهى رصينة متقنة قد رسخت وملأت كتبنا ، فيجب ألا ننبذ منها إلا ما كان فيه قصور ظاهر .

(٢) يختار من الألفاظ ما ليس بغريب إن أمكن ، ولكن إذا وجدت لفظة عربية أو معربة تطابق المعنى المطلوب تماماً إلا أنها غريبة غير مأنوسة ، يجب ألا نتردد فى أخذها

سواء استعملت قبلاً أم لم تستعمل . لأن ما كان غير مأنوس يصبح مأنوساً بالاستعمال ، وأكل الخبز (الخشكار) عند فقد الحُوّارى خير من الاستجداء .

(٣) يجب ترجيح الكلمة العربية على المعربة إن وجدت ، وإلا فيجب عدم التردد فى قبول المعرب قديماً .

(٤) يجب عدم التعريب حديثاً إلا فى الضرورة القصوى وبعد انقطاع الرجاء من وجود كلمة عربية تؤدى المعنى المطلوب ، وبشرط مراعاة قواعد التعريب .

(٥) يجب ترجيح الكلمة الواحدة على الكلمتين والكلمتين على الثلاث فى الاصطلاح . ولكن بشرط أن تؤدى الكلمة الواحدة المعنى المطلوب تماماً ، وإلا يرجح عليها الكلمتان . فانى وجدت الإفراط فى ترجيح الكلمة الواحدة قد أدى عند بعض المعاصرين إلى اختيار مصطلحات بعيدة كل البعد عن إفادة المعنى المطلوب . مثال ذلك استعمال المعهد الطبى العربى (التناذر) لما تسميه الفرنج syndrome عوض أن يقولوا (مجموعة أعراض) فإن تناذر القوم تناذراً أى أنذر بعضهم بعضاً لا تؤدى المعنى المطلوب من كلمة سندروم

(٦) يجب تجنب المترادفات . فإن الإتيان بكلمتين مترادفتين أو أكثر لمصطلح واحد إنما يدل على تردد الآتى بها وجهله أيها أفضل ، ويوقع المراجع فى حيرة لا يدرى أيها يجب أن يختار فى استعماله ، ويكثر عدد المصطلحات بلا فائدة .

(٧) لا يستعمل النحت إلا نادراً جداً عند الضرورة القصوى وبشرط ألا يحذف من الكلمتين المنحوت منهما حروف كثيرة بحيث لا يعلم أصلهما بل يجب أن يكون ما يبقى من حروفهما أكثر مما يحذف .

(٨) الذوق العربى كثيراً ما يرجح التركيب الإضافى بخلاف الذوق الغربى فإنه يرجح التركيب الوصفى . فيجب عدم متابعة الفرنج فى أذواقهم دائما .

كلام فى اصطلاحات بعض العلوم :

العلوم كثيرة ليس من شأننا هنا أن نعددها ، ونتكلم عما يجب أن تكون مصطلحات كل واحد منها . لكنا نجتزئ بذكر بعضها فنقول :

الفلسفة :

كتب أحد المتفلسفين وزعم أن مصطلحات الفلسفة تأبى أن يكون لها مقابل بالعربية ، لأن كثيراً ما يكون المصطلح الواحد عند فيلسوف معناه كذا وكذا ، وعند فيلسوف آخر

يختلف معناه عن المعنى الذى أراده الفيلسوف الأول ، وربما استعمل ثلاثة فلاسفة كلمة واحدة بمعان مختلفة . أقول ما أسهل العمل فى هذه الحال ! نكون واقعيين ونعمل كما عملوا . فنترجم المصطلح ذا المعانى الكثيرة بكلمة واحدة كما هو عندهم ونقول ، عند الاقتضاء ، إن المقصود منه عند فلان كذا وكذا كما يقولون هم أنفسهم .

علم الحقوق :

مصطلحات الفقه عندنا تامة . لا يحتاج دارس الحقوق إلا إلى ترجمة مصطلحات خاصة بالحقوق عند الرومان والفرنج على ما أظن .

علم النبات :

لأكثر النباتات اسمان ، اسم لغوى فى مختلف اللغات ، واسم علمى وضعه علماء النبات . فعند ترجمة الاسم اللغوى يجب ذكر أشهر اسم له عند العرب ، وإتباعه بسائر الأسماء فى مختلف البلدان العربية ليعرف . أما الاسم العلمى فهو مكون فى الغالب من كلمتين لاتينيتين أو يونانيتين . فمن علمائنا من يقول بلزوم استعمال الاسم العلمى للنبات كما هو ، كما نسمى الرجل باسمه الذى سماه به والداه . لكنا إذا فعلنا ذلك نكون قد ملأنا كتبنا بألفاظ لاتينية غريبة عن لغتنا . إنى أرى أن نترجم اسم النبات العلمى ترجمة كلما اقتضى فنقول مثلا للسوس (السوس الأجرد Gbycyrrhysa glabra) ، وللبيروح (اليبروح المخزنى mandragora officinarum) ، وللأنبة (الأنبة الهندية mangifera indica) ، والسوسن الاسمانجوتى (السوسن الجرمنى Iris germanica) ، ولنبات المغاث (لسانى الأسدية لبروغياد Glossosteman Bruguisra) ، وبروغياد اسم رجل ، وللجنطيانا (الجنطيانا الصفراء Geostiana lutsa . ويعمل عين العمل بأسماء الحيوانات .

الكيمياء :

لا مفر من استعمال اللواحق والكواسع المعروفة فى الكيمياء . ونركب الاسم كتركيب الفرنسيين فنقول خلورور الكلسيوم chorure de calcium ، أما عند الانجليز فيختلف ، فإنهم يقولون calcium chlorid بتقديم وتأخير .

علم المعادن :

ليس لنا بالعربية إلا قليل من الأسماء لمختلف الحجارة ، فيجب أن نترجم الكلمة الأصلية ونستعمل كلمة حجر مكان ite . أمثلة ذلك : calcite حجر الكلس ، ferroplumbite حجر الحديد والرصاص ، magnétite حجر المغنطيس ، chalcanthite حجر زهرة النحاس . أما الجواهر أى الحجارة الكريمة فقد سبق لى ذكرها بأسمائها العربية والفرنسية فى جدول ألحقته بمقالة لى عنوانها (ملاحظات على نخب الذخاير فى أحوال الجواهر) نشرت فى مجلة المجمع العلمى العربى سنة ١٩٤٤ فى جزئها الخامس والسادس المزدوج من مجلدها التاسع عشر والجزء الذى يليه ص ٢٤٥ و ٣٤٣ .

الطب :

كنت حاضرت فى مصطلحات الطب فى المؤتمر الطبى المنعقد ببغداد سنة ١٩٣٨ ونشرت محاضرتى المجلة الطبية المصرية فى ينابر ١٩٣٩ فى عددها الأول من سنتها الثانية والعشرين ص ٧٢ ، نلخصها كما يأتى : لا تعرب كلمة فرنجية تزيد مقاطعها على الخمسة ، ولا الكلمات المنتهية بـ ture, ment, tion وما شابهها بل تترجم ترجمة لأنها منافية فى صيغتها للعربية كل المنافاة ، ولأن العربية غنية بأسماء الأفعال — تقابل ite و itis بكلمة التهاب مضافة إلى العضو الملتهب : gastrite التهاب المعدة — تقابل isme أو ismus بكلمة حالة إذا كانت دالة على حالة مرضية méningisme حالة سحائية . وإذا دلت على تسمم فتستعمل كلمة تسمم alcoolisme تسمم بالغول . وإذا كانت للدلالة على علم أو مذهب ، فتقابل غالبا بأداة جمع المؤنث السالم بعد ياء النسبة spiritisme روحيات أو روحانيات أو بكلمة مذهب أو فلسفة matérialisme مذهب الماديين أو الفلسفة المادية — تقابل tomie بشق و ectomie بقطع : néphrotsmie شق الكلية néphrectsmie قطع الكلية — تترجم logie بعلم إذا كان المقصود علما قائما بذاته ، وبمبحث إذا كان فرعا من علم أو فصلا فى كتاب pathologie علم الأمراض ، toxicologie مبحث السموم — تقابل ique بياء النسبة بعدها أداة جمع المؤنث السالم physique طبيعيات (أو قل فيزياء) ، وإذا أفادت ique الإصابة بمرض فتقابل بكلمة مصاب asthmatique المصاب بالربو ، ويمكن استعمال صاحب عوضا عن مصاب فيقال صاحب الربو . وتأتى بالعربية صيغة المفعول مشتقة من اسم العضو

المصاب للدلالة على الشخص المصاب : cystique ممثون ، néphrétoque مكلو ، hépatique مكبود ، ومثلها مفئود ، وممعود . وتأتى أحياناً مشتقة من اسم المرض : apoplectique مسكوت paralitique مفلوج ، ويؤدى وزن أفعل عين المعنى أحياناً . ophtal-mique أرمد ، acromégalique افتخ . ومثل ique فى النسبة إلى المرض الأداة eux lépreux مجذوم ، cancéreux مسرطن تترجم ose أو osis بداء trichinosse داء التريشين actinomicose داء الفطر الشعاعى ، ويستعمل وزن فعال بضم الفاء كلما أمكن . cyanose زراق idipose douloureuse شحام موجع — a أو an النافية تترجم حسب المعنى المطلوب بلا وعدم وعديم وانقطاع وقطع ونقصان واحتباس وفقد وزوال وإزالة وبطلان وإبطال astigmatisme لا بؤرية ، asymétrie عدم التناظر amorphe ، عديم الشكل ، acholie انقطاع الصفراء amnésie نقصان الذكر ، aménorrhée احتباس الطمث ، agraphie فقد الكتابة ، achrsmatisation إزالة اللون ، analgésie بطلان الألم ، anesthésic إبطال الحس — تترجم able و ible يقابل أو يقبل أو بالفعل المضارع من نفس الكلمة : acidifiable قابل للتحميض ، réductible يقبل الرد ، guérissable يشفى — تترجم pathie بمرض و dynie بوجع و algie بألم و dys بعسر ome بورم و mégalie بضخامة و phobie بخوف أو نفور و thérapie بعلاج و mètre بمقياس و métrie بقياس : névropathie مرض عصبى ، pleurodynie وجع الجنب ، ondontalgie ألم السن ، dyspepsie عسر الهضم ، carcinome ورم سلطانى ، oplénamégalie ضخامة الطحال hydrophobie خوف الماء radiothérapie علاج بالأشعة thermomètre مقياس الحرارة alcoolométrie قياس الفول .

التعاون الأثرى بين البلاد العربية

للدكتور زكى محمد حسن

من نافلة القول أن نعرض هنا لوجوب التعاون بين البلاد العربية وأن نسرد الوسائل التى تؤدى إليه ، فهذه كلها أمور مفروغ منها ، وقد وفاها حقها المؤتمر الذى عقدته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية بدمشق فى شهر سبتمر من العام الماضى .

ولا ريب فى أن من أهم مقررات المؤتمر « أن تعمل جامعة الدول العربية على تأليف هيئة من المؤسسات العلمية الأثرية فى الدول العربية لتقوم بأعمال التنقيب ، وأن تعمل الجامعة على أن تحصل على إذن جلالتى ملك اليمن وملك المملكة العربية السعودية بأن تبدأ هذه الهيئة عملها بدراسة الآثار فى هاتين المملكتين ، واقتراح ما يلزم للقيام بأعمال التنقيب فيهما نظراً لأهمية تاريخ اليمن والبلاد السعودية فى تاريخ الأمة العربية » . وتأليف هذه الهيئة هو الوسيلة المثلى لتعاون العرب فى كشف آثار شبه الجزيرة تعاونا يحقق النفع العلمى ، ويحد من أطماع الهيئات العلمية الأجنبية فى القيام بأعمال التنقيب عن الآثار فى هاتين المملكتين العربيتين ، ويرد ما تكيله هذه الهيئات من تهم للملكتين بشأن انصرافهما عن التعاون بفتح أبوابهما للبحث العلمى .

وفى رأينا أن جامعة الدول العربية مسئولة عن السعى لتنفيذ هذا المشروع . وإذا كانت بعض العقبات السياسية فى هذه الأيام قد تؤخر هذا التنفيذ فلا أقل من تأليف الهيئة المطلوبة ودرس المنهج الذى يجب أن تسير عليه والأهداف التى تعمل لها . ومن المضى فى إتمام البحوث التمهيدية لعملها ، حتى يكون ذلك كله معداً حين تتم موافقة المملكتين العربيتين . بل إن هذا الإعداد قد يساعد فى الحصول على موافقتهما على هذا المشروع العلمى الجليل .

وكان من مقررات مؤتمر الآثار « أن تعمل سلطات الآثار فى بلاد الجامعة العربية على تبادل التحف التى يمكن الاستغناء عنها ، وذلك لإمكان تمثيل مختلف الطرز الفنية فى متاحف تلك الدول » . ولا ريب أن هذا من أول وسائل التعاون التى ننشدها فإن كل بلد من البلاد

العربية غنى بأنواع معينة من الآثار ، ولـكن متاحفه فقيرة جداً فى التحف التى تمثل الطرز الفنية التى ازدهرت فى البلاد العربية الأخرى . فمتاحف لبنان وسوريا والعراق خالية من الآثار الفرعونية التى تفخر بها متاحف الدول الأوربية والأمريكية المختلفة . وفى مخازن مصلحة الآثار المصرية ومراكز الحفائر المختلفة فى مصر كميات وافرة من الآثار الفرعونية المكررة يمكن أن تقدم إلى متاحف هذه البلاد العربية الشقيقة لتمثل فيها الحضارة التى قامت على ضفاف النيل فى العصور القديمة . كما أن حفائر الفسطاط قد أسفرت عن ألوف التحف التى تمثل تطور الصناعات والفنون المختلفة فى مصر الإسلامية . وهى عظيمة الشأن فى تسجيل هذا التطور ، على الرغم من أن معظمها قطع مكسورة وغير كاملة . وفى استطاعة دار الآثار العربية أن تقدم مجموعات كبيرة من مخازنها فى حفائر الفسطاط لتعرض فى متاحف الأقطار الشقيقة فتسد فراغا ملحوظا فى مجموعات هذه المتاحف . والمعروف أن المتاحف المصرية فقيرة جداً فى التحف التى تمثل الحضارة التى ازدهرت فى العصور القديمة فى بلاد النهرين ، بل أنها فقيرة أيضاً فى التحف التى تمثل الطرازين العباسى والسلجوقى من الطرز الفنية الإسلامية التى ازدهرت فى تلك البلاد . ولا شك فى أن دائرة الآثار القديمة فى العراق تستطيع أن تقدم إلى مصر وسائر الأقطار العربيـة ما يسد بعض النقص . ومتحف لبنان غنى بالتحف التى تمثل الحضارة الفينيقية ، كما أن الحفائر التى تقوم بها مصلحة الآثار اللبنانية تسفر عن كشف كثير من هذه التحف . ومن الخير أن تكون هذه الحضارة ممثلة فى متاحف سائر الدول العربية ، ولا ريب فى أن لبنان يستطيع أن يسهم فى سد النقص الموجود فى هـذا الميدان . وسوريا غنية فى التحف التى تمثل الحضارات القديمة فى الشام ، كما أنها غنية أيضاً بالزخارف المعمارية التى تمثل الطراز الأموى من الفنون الإسلامية . وطبيعى أنها تستطيع مثلا أن تقدم إلى الدول العربية الأخرى بعض التحف المـكررة فى متحفى دمشق وحلب ، أو بعض نماذج الزخارف المعمارية من قصر الحير ، فى سبيل الحصول على تحف تمثل سائر الحضارات والطرز الفنية التى ازدهرت فى الشرق الأدنى .

كل ذلك حسن جداً . وواضح كل الوضوح ؛ ولـكن الإبطاء فى تنفيذه هو الذى يستحق أن ندهش له . وفى رأينا أن وزارات المعارف ودوائر الآثار فى البلاد العربية المختلفة يجب أن تبادر بتأليف لجنة من رجال المتاحف وعلماء الآثار فى كل منها لبحث الموضوع بحثا وافيا ، وإعداد بيان بأنواع التحف التى يمكن النظر فى إهدائها إلى سائر البلاد العربية . على أن تتبادل وزارات المعارف ودوائر الآثار هذه البيانات ، لتكون أساسا لاتصال وتفاهم

يعقبهما تبادل الآثار بين البلاد العربية المختلفة . ولكن ثمة مسألة يجب إثارتها فى هذا الصدد . وهى أن قوانين الآثار فى معظم البلاد العربية تحرّم إخراج التحف المسجلة من المتاحف ولو كانت مكررة . وربما أدّى ذلك إلى أن تكون التحف التى يمكن تبادلها بين البلاد العربية من الآثار الضئيلة الشأن .

والحق أننا لا نرمى إلى أن تكون تلك التحف مما لا يمكن المتاحف الاستغناء عنه . وقد يكون بين التحف غير المسجلة فى المتاحف وبين ما تكشف عنه الحفائر ما يكفى لتمثيل مختلف الحضارات والطرز الفنية فى متاحف البلاد العربية المختلفة تمثيلا يمكن الاطمئنان إليه . ومع ذلك كله فإن طرفا من هذه المسألة يجب أن يكون موضع البحث والدراسة العلمية والقانونية فى دوائر الآثار المختلفة . ذلك أن بين التحف المسجلة والعظيمة الشأن فى بعض المتاحف طائفة من نوع واحد ، ومن الخير أن تنظر هذه المتاحف فى إمكان مبادلة بعضها بتحف أخرى . ولعل خير الأمثلة على ذلك ما فى دار الآثار العربية بالقاهرة من مشكايات من الزجاج المموّه بالمينا . فإن فى هذه الدار من المشكايات أكثر مما فى سائر متاحف العالم ومجموعاته الفنية مجتمعة . ويقدّر ثمن المشكاة بألوف الجنيهات ، ولكن دار الآثار العربية فى حاجة ماسة إلى كثير من التحف الغالية التى تمثل سائر ميادين الفنون الإسلامية . فهى لا تزال فقيرة فى السجاد وفى فنون الكتاب وفى التحف التى تمثل الطرز الفنية الإسلامية التى ازدهرت خارج وادى النيل . ولا شك عندنا فى أنها تتمنى أن تستطيع الحصول على بعض هذه التحف الغالية التى تنقصها ، حتى ولو كان السبيل إلى ذلك التنازل عن عدد من تلك المشكايات المكررة . ولكن اللوائح والقوانين لا تسمح ببيع التحف المسجلة فى الدار ولا تجيز مبادلتها . بيد أن هذا كله لا يمنع من درس المسألة للوصول إلى حلٍّ سليم فقد يمكن أن يُعدّل القانون فى هذا الشأن . وقد ينظر فى إعارة مثل هذه التحف المكررة إلى متاحف الدول العربية الشقيقة إعارة طويلة أو دائمة . وقد يهتدى أولو الأمر إلى حلول أخرى . فلا بد إذن من أن تبادر الهيئات المختصة إلى وضع المسألة كلها على بساط البحث ، ولا سيما أن من بين التوصيات التى انتهى إليها مؤتمر الآثار فى البلاد العربية « أن يوضع فى قانون كل دولة ما يبيح تبادل بعض الآثار المكررة ، أو إهداءها تسهيلا لتبادل الآثار بين المتاحف .

ومن الأمور التى يجب أن يتجلى فيها التعاون بين البلاد العربية ، تبادل المطبوعات فى الآثار والصور ونماذج التحف بين تلك البلاد . والحق أننا نود أن يكون فى معهد الآثار بجامعة

فؤاد الأول سجلا مصوراً بجمع رسوم الآثار والتحف فى البلاد العربية كلها ، ليرجع إليه الاختصاصيون فيما يكتبونه عن العمائر والفنون الإسلامية . وليس مثل هذا « الأرشيف » بدعة أو أمراً صعب التنفيذ . وفوائده العلمية تبرر ما يتكلفه من نفقات يمكن توزيعها على عدد من السنين ، بحيث يتهيأ لنا بعد فترة من الزمن السجل الجامع الذى نطلبه والذى يمكن أن يصبح مرجعا للاختصاصيين فى الآثار من البلاد العربية كلها ، فضلا عن الاختصاصيين فى آثار الشرق الأدنى من العلماء غير العرب . ولا ريب أن مثل هذا السجل المصور الجامع سيكون خير عون للأساتذة فى شرح محاضراتهم عن تلك الآثار . بل إن معهد الآثار قد يستطيع بفضله أن يخص بالعناية الآثار القديمة فى البلاد العربية الشقيقة كالآثار السومرية والبابلية والأشورية والفينيقية . وهى الآثار التى لا تحظى الآن بالعناية اللازمة فى هذا المعهد .

ولن تستطيع دول الجامعة أن تحقق التعاون الأثرى بينها ، إلا إذا زاد الاتصال بين الاختصاصيين فى الآثار بها . على أن يكون هذا الاتصال متشعب الوجوه . كأن يقضى بعض الاختصاصيين فى مصلحة الآثار أو المتاحف فى إحدى الدول العربية فترة من الزمن يعملون فيها بدوائر الآثار فى دولة عربية أخرى . وكأن يدعى الاختصاصيون والقائمون بأعمال الحفر فى إحدى الدول العربية لإلقاء محاضرات فى معاهد الآثار والمتاحف بالدول العربية الأخرى ، يعرضون فيها نتائج بحوثهم ، ويطلعون الزملاء على ما يوفقون إليه من كشوف . بل إن من الخير أن يزور المشتغلون بالحفر الأثرى فى أى بلد من البلاد العربية مناطق الحفر فى سائر الأقطار الشقيقة للاطلاع على وسائلهم العلمية ، وتبادل الآراء الفنية التى تؤدى إلى تقدم هذه الناحية من علوم الآثار حتى يتهيأ للقائمين بالحفر من الاختصاصيين العرب أن يصلوا إلى ما وصل إليه زملاؤهم الغربيون من توفيق فى هذا الميدان .

وفضلا عن هذا فإن الدول العربية كلها تسعى إلى أن يكون من أبنائها من تستطيع أن تعهد إليهم بأعمال الحفر الأثرى فيها ، وذلك للحد من مطامع البعثات الأجنبية فى آثار البلاد العربية . ومن الطبيعى أن تؤثر كل دولة عربية الاختصاصيين من أبناء سائر البلاد العربية فى القيام بالحفائر الأثرية ، إذا لم يتهيأ لها من أبنائها من يستطيعون أن يأخذوا على عاتقهم هذه المهمة بغير عون خارجى .

ولا ريب فى أن القائمين على الآثار فى البلاد العربية يحسنون صنعا إذا عملوا على أن يكون بينهم اتصال وثيق لتنسيق كثير من الأمور المشتركة ، مثل قوانين حماية الآثار والتجارة فى التحف ، ومنح امتياز القيام بالحفائر ، ومثل تنظيم المتاحف والكتابة عن معروضاتها .

وترميم العمائر وتدريس الآثار والاتفاق على المصطلحات الفنية فى علوم الآثار . فطبيعى أن اتحادهم فى هـذا الميدان قوة لا يستهان بها ، وأن كلا منهم يستطيع الإفادة من تجارب زملائه ، وأنهم يستطيعون — بعد هذا التنسيق فى أعمالهم — أن يتقدموا جبهة واحدة فى أى منظمة أو مؤتمر من المنظمات أو المؤتمرات الدولية فى شؤون المتاحف والآثار . ومما يؤسف له أن الاختصاصين فى الآثار من أبناء البلاد العربية ليس بينهم من الاتصال والتعاون فى الوقت الحاضر ما يمكن أن يحقق النفع العلمى المطلوب ، فإن كلا منهم يعمل على حدة ولا يكاد يتصل إلا بطائفة من الاختصاصيين فى الغرب ، حتى أن القليل الذى نعرفه معشر العرب من رجال الآثار ، عن الـكشوف الأثرية فى البلاد العربية ، لا نكاد نأخذه إلا عن الغربيين . أما ما نعرفه عن أصوله فى ديار العرب وعن زملائنا فى الأقطار الشقيقة ، فلا يزال ضئيلا ، ولا يناسب الجهود التى يبذلها كل منا فى ميدان اختصاصه . وإذا كان الاتصال فى الإنتاج الأدبى وثيقا بين البلاد العربية فلأن عماده القراءة وانتشار المؤلفات . أما فى الآثار فإن القراءة وانتشار المؤلفات العربية لا يكفيان . فلا بد من الاتصال الشخصى والدراسة فى المتاحف ، وزيارة العمائر ومناطق الحفر وتبادل الآراء فى مختلف الأمور .

اليمن وآثارها

للدكتور أحمد فخرى

---

١ – مقدمة :

إذا جاء ذكر الحضارة العربية أو أثر جزيرة العرب فى التقدم الإنسانى ، ينصرف ذهن أكثر الناس إلى الوقت الذى ظهر فيه نور الإسلام فملأ قلوب العرب ، ووحد بينهم ، فخرجوا يفتحون الأمصار ، وأنشأوا امبراطوريتهم العظيمة .

ولكن قبل أن يولد النبى العربى صلى الله عليه وسلم بأكثر من ١٥٠٠ عام كانت هناك فى بلاد العرب حضارة عظيمة ، لا تقل عن حضارات بلاد الشرق الأخرى ، وما زالت بقايا هذه الحضارة قائمة فى بعض جهات اليمن ؛ فمعابد المعينيين وآثارهم الأخرى التى بنيت فى القرن الثامن قبل الميلاد ما زالت تطاول السماء بأسوارها الضخمة ، وأعمدتها المرتفعة ، كما نقش سكان اليمن القدماء على جدران بعض معابدهم وعلى لوحات من الحجر والنحاس بعض أخبارهم ، فأصبحنا نعرف الكثير عنهم . وليس القرن الثامن قبل ميلاد المسيح عليه السلام هو مبدأ ظهور الحضارة فى اليمن ، ولكنه تاريخ محدد معروف ، ولا شك فى أن بدء ازدهار الحضارة فى تلك البلاد يعود إلى عصر أقدم من هذا العصر ببضع مئات من السنين ، أو أكثر من ذلك ، كما أن صلة اليمن بالبلاد المجاورة لها تعود إلى آلاف السنين ، ولا يخالجنا شك فى أن دراسة آثار اليمن بعد حفر مناطقها الأثرية ، سيلقى كثيراً من الضوء ، ليس على تاريخ الجزيرة العربية أو الجنس السامى فحسب ، بل ستوضح لنا الكثير عن صلة الحضارات القديمة بعضها ببعض ، والدور الذى لعبه قدماء اليمنيين فى تاريخ حضارة الشرق .

٢ – أقدم الصلات بين اليمن وغيرها من البلاد :

نعرف من الآثار المصرية أن المصريين القدماء كانوا يقومون منذ فجر تاريخهم برحلات بحرية فى البحر الأحمر لإحضار البخور وبعض أشياء أخرى من بلاد بونت ، وهى البلاد الواقعة حول بوغاز باب المندب ، على الشاطئين الأسيوى والأفريقى ، أى بلاد الصومال وجنوبى اليمن وحضرموت .

وقد كثرت هذه الرحلات منذ ألفى عام قبل الميلاد ، واستمرت حتى آخر أيام الحضارة المصرية ، وأشهر هذه الرحلات هى الأسطول الكبير الذى أرسلته الملكة « حتشبسوت » فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وعاد محملا بخيرات تلك البلاد ، كما عاد أيضاً ومعه أشجار البخور . لغرسها فى حدائق معبد الإله أمون . وقد نقش الفنانون المصريون على جدران معبد هذه الملكة فى البر الغربى بالأقصر ، وهو المعروف باسم معبد الدير البحرى تفاصيل هذه الحملة وخيرات بلاد بونت ، ورسموا بعض بيوتها وأهلها وحيواناتها وأسماك البحر الأحمر . ومما يجدر ذكره أن الصلات التجارية بين مصر واليمن لم تقتصر على مدن الشاطىء ، بل وجدت طريقها إلى داخل البلاد . وقد رأيت فى رحلتى إلى اليمن فى العام الماضى بعض الآثار المصرية ، وأهمها جعران من عهد الملك « امينوفيس الثالث » من الأسرة الثامنة عشرة المصرية ، فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبعض آثار مصرية أخرى ، يرجع تاريخها إلى القرن السادس من قبل الميلاد . ولكن هناك ما هو أهم من هذه الصلات التجارية . ولقد عرف المصريون أن بعض أجدادهم أتوا من طريق قفط القصير ، كما أنهم كانوا يعلمون أن بعض آلهتهم وخاصة الإله حورس أتاهم من المشرق ، وأحيانا يقولون من الجنوب ، وليس الإله حورس هو الإله الوحيد الذى جعلوا بينه وبين بلاد العرب صلة بل إن هناك آلهة أخرى أشهرها الإله « بس » الذى كانوا يذكرون دائما نسبته إلى بلاد بونت .

وكما اتصلت اليمن بمصر فإنها اتصلت بمهد الحضارة الآخر فى العراق ، فقد ورد على آثار السوميريين منذ عام ٣٤٠٠ ق م . إشارات إلى الصلة بينهم وبين الجزيرة العربية ، وفى أخبار الملك « تيجلات بالسر الثالث » حوالى عام ٧٣٦ ق م . أنه أخذ من أهل سبأ جزية من الذهب والجمال والبخور .

أما صلة اليمن بالشاطىء الأفريقى فلا بد أنها بدأت منذ أقدم العصور ، وتركت القبائل اليمنية على الشاطىء الأفريقى ، وأحياناً داخل البلاد ، أثراً لا يمحى ، من حضارتها وثقافتها منذ آلاف السنين إلى اليوم ، وأهل أكسيوم القدماء ليسوا فى الأصل إلا بعض من هاجر من اليمن إلى بلاد الحبشة .

٣ — ذكر حضارة اليمن فى الكتب المقدسة :

وتعرف من القرآن الكريم ، ومن التوراة ، المدى البعيد الذى وصلت إليه حضارة اليمن ، وتكفى الإشارة إلى قصة سيدنا سليمان وملكة سبأ ووصف مملكتها وعرشها ، لتدرك

ما كانت عليه اليمن حوالى عام ١٠٠٠ قبل الميلاد ، كما جاء ذكر ممالك معين وسبأ فى التوراة ، فى كتب الأنبياء ، مثل أرميا وحزقيال وأيوب ، تدرك من بين هذه الإشارات ما كانت عليه تلك البلاد من حضارة ، وما كان فى أيدى أبنائها من سيطرة على تجارة الشرق القديم ، وذلك قبل مجىء الإسلام بأكثر من ١٢٠٠ سنة .

٤ — اليونان والرومان :

ولم تخل كتب مؤرخى اليونان والرومان من ذكر الجزيرة العربية وذكر المعينيين والسبئيين والحميريين ، وذكر تجارة البخور والعطور التى كانت فى أيدى تجار اليمن ، وهى التجارة التى كانت تدر على أصحابها أرباحا توازى ثمنها مائة مرة ، ولم يكن مسموحا للسفن الهندية أن تجتاز ميناء عدن ، فكانت تضطر إلى أن تبيع حمولتها إلى تجار اليمن الذين كانوا ينقلونها بقوافلهم إلى أسواق الشام مجتازين الجزيرة العربية ، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال ، ومن غزة تأخذ طريقها شرقا إلى بابل ، أو غربا إلى مصر ومنها إلى أوربا وتعود قوافل اليمنيين من الشام محملة بكل ما يجدونه فى أسواقها ، فيبيعونه مرة أخرى إلى سكان الجزيرة ، أو إلى التجار الهنود .

وأراد الرومان أن يخضعوا اليمن لسلطانهم ، ليفوزوا بالسيطرة على هذا الطريق التجارى الهام ، فأرسلوا فى عام ٢٤ قبل الميلاد حملة تحت إمرة القائد « أليوس جالوس » حاكمهم فى مصر ، فخرجت الحملة يساعدها الأنباط حلفاء الرومان ، يقصدون غزو اليمن ، فلاقى الجيش أهوالاً كثيرة ، ثم وصل بعد ستة شهور إلى نجران . ولكن قبل أن يصل مأرب التقى باليمنيين فى معركة قضت قضاء تاما على أمل الرومان ، فعادت فلول الجيش إلى مصر بعد أن مات أكثرهم . وهذه الحملة هى أول وآخر حملة حربية ذات أهمية حاولت فيها أوربا أن تستولى على جزيرة العرب .

٥ — اليهودية والمسيحية :

هناك فى اليمن جالية يهودية تعيش فى جميع أنحاء البلاد ، ويقدر البعض عدد اليهود بسبعين ألفاً ، يقيم منهم فى صنعاء نحو سبعة آلاف ، وأعتقد أن هذا الرقم مبالغ فيه ، ولا يمكن أن يزيد عدد اليهود عن خمسة وأربعين ألفا فى اليمن كلها ، وهم لا يختلفون فى مظهرهم العام عن باقى السكان ، اللهم إلا فى بعض مظاهر ، منها ترك الرجال لذؤابتين على جانبى الرأس ، ولبسهم

طاقية سوداء فوق رءوسهم ، ويقول اليهود إنهم أتوا إلى اليمن من فلسطين فى القرن الأول بعد الميلاد بعد تحطيم معبد أورشليم ، ولكن أكثر المؤرخين يميلون إلى عدم الأخذ بهذا الرأى ، ويعتقدون أن الدين اليهودى وصل إلى اليمن واعتنقه بعض اليمنيين قبل هذا التاريخ ببضع مئات من السنين . وقد كان المعينيون والسبئيون يعبدون الآلهة المختلفة ، ويرمزون لبعضها بالتماثيل كما لاقت عبادة الكواكب إقبالا كبيراً منهم ، وكان بعض هذه الآلهة محلياً أما البعض الآخر فقد جاء إلى اليمن من غيرها من البلاد وخاصة بابل . وعلى أى حال فقد انتشرت اليهودية انتشارا كبيرا فى جنوبى الجزيرة ، وكان أهم أوقات ازدهارها فى القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، كما أن بعض ملوك اليمن الحميريين اعتنق الدين اليهودى وأخذ فى اضطهاد غير اليهود وخاصة المسيحيين .

وبالرغم من أنه لا يوجد مسيحى واحد بين اليمنيين الآن فإننا نعرف أنه جاء وقت على تلك البلاد كانت الكنائس منتشرة فى أنحاء البلاد المختلفة ، وكانت بلاد نجران هى أول مناطق اليمن التى رحبت بالدين الجديد .

ورأى اليهود فى المسيحية خطراً عليهم ، وحدثت مذبحة الأخدود فى نجران التى قتل فيها أكثر مسيحيي تلك البلاد ، وكانت السبب الذى تذرع به ملوك بيزنطة ليطلبوا من حليفهم ملك الحبشة أن يغزو اليمن ليثأر للمسيحيين وكان ذلك فى أوائل القرن السادس الميلادى .

فغزا الأحباش بلاد اليمن ، وبنوا كنائس كثيرة أهمها «القليس» فى صنعاء التى زخرفها أبرهة إلى أقصى حد ووضع فيها التماثيل ورسم فيها صوراً مذهبة ، وأراد أن يجعل من صنعاء مركزاً تجاريا وثقافياً تأتى إليه القبائل بدلا من مكة وكعبتها فى الحجاز ، وليكون فى ذلك ما يحبب الناس فى قبول المسيحية ، ولكن حدث بعد ذلك ما أثار أبرهة ، فسار إلى مكة ليهدم الكعبة ، ولكنه عاد مدحورا إلى اليمن .

٦ — الاسلام :

وبينما كانت الجزيرة العربية فى هذه الحالة غير المستقرة ، أراد الله أن يظهر فى مكة دين جديد قضى على ما هناك من خلافات وحقق معجزة اتحاد سكانها ، ثم خرجت الجيوش العربية لتقضى على جيوش الفرس والروم .

وكان لليمن دور هام فى نشر دعوة الاسلام ، فإن قبيلتى الأوس والخزرج اللتين ناصرتا النبى الكريم يمنيتان ، هاجرتا من الجنوب واستقرتا فى المدينة على الطريق التجارى بين عدن وغزة ، كما أن دعوة الإسلام لقيت النجاح الكامل بين قبائل اليمن ، فلم يسلموا فحسب

بل كانوا أول المستجيبين لدعوة رسول الله إلى الجهاد . فخرجوا من بلادهم لنشر الدعوة ، وفتحوا الأمصار ونشروا الإسلام ، وكانوا بحكم مدنيتهم أقدر من سكان الحجاز ونجد على الحياة فى البلاد التى خضعت لنفوذ الإسلام . فكان جيش عمرو بن العاص الذى فتح به مصر من اليمن كله ، كما أن الجيوش التى سارت إلى شمال أفريقيا كان أكثرها من القبائل القحطانية ، وهـذا هو السبب فى التشابه المحسوس بين عادات بعض سكان تونس والجزائر ومراكش وبعض الواحات فى الصحراء الكبرى وعادات بعض سكان القبائل اليمنية وخاصة قبائل المشرق .

وأهل اليمن أذكياء ويستطيعون تكييف حياتهم فى أى محيط جديد ، فلم يلبثوا إلا قليلا حتى امتزجوا بسكان مختلف الأمصار ، وتعلموا منهم أشياء كثيرة يجهلونها ، كما علموهم أيضاً بعض ما يعرفونه من بقايا مدنيتهم السابقة ، فكانوا من أهم بناة الصرح العظيم الذى عرفه العالم باسم الحضارة الإسلامية .

٧ — بلاد اليمن فى العصر الاسلامى :

لم تلبث بلاد اليمن إلا قليلا حتى بدأت الخلافات المذهبية تحدث أثراً كبيراً فى وحدتها وأمنها ، ولـكن رغم ذلك تمتعت البلاد فى بضع فترات بازدهار كبير إذا لم يشمل اليمن كلها فإنه كان يشمل بعض مناطقها ، وخاصة اليمن السعيدة (لواء آب) ولواء تعز وزبيد وذمار وصنعاء . وظهرت دول كثيرة ترك بعضها ثروة هامة من العمارة وخاصة فى بنـاء الجوامع مثل الدولة الرسولية ، كما تابع اليمنيون فى العصر الإسلامى سياسة أسلافهم فى العناية باستغلال مياه الأمطار والسيول ، وذلك ببناء السدود والخزانات والصهاريج لأن بلادهم تكاد تكون خلواً من الأنهار .

وظلت اليمن مقطعة الأوصال مقسمة إلى دويلات ، ساعد على وجودها كثرة المذاهب الدينية ، فهناك مثلا الشوافع فى بلاد تهامة وفى لواء آب وفى بلاد المشرق ، وهناك الزيود أتباع الامام زيد بن على الذين بقيت لهم تقاليدهم الخاصة منذ ألف سنة ، ولهم إمامهم الخاص الذى لا يأتمرون بأمر غيره ، وهم يسكنون الجبال . وهناك أيضاً بعض الشيعة الإسماعيلية . وفى وقت من الأوقات اشتد ساعد أصحاب مذهب الباطنية ويسمون المكارمة ، وكانوا إلى سنوات مضت يمارسون مذهبهم فى بعض البلاد على مقربة من ذمار ، وفى بعض بلاد همدان ، ولم يقض على أعمالهم إلا جلالة الإمام يحيى رحمه الله .

ودانت اليمن لحكم الأتراك ، ولكن نفوذهم لم يتعد الشاطئ واقليم آب وصنعاء وما حولها ، وبقى أكثر البلاد يحيا حياة القبائل كما عاش أجدادهم ، ورغم الثلاثمائة عام التى اتصل فيها الأتراك باليمن ، فإنهم لم يستطيعوا توحيد البلاد ، بل على العكس تسببوا فى تمزيق أوصالها ، ولم تخضع لحكومة واحدة إلا فى عهد المرحوم الإمام يحيى بن حميد الدين ابتداء من عام ١٩٣٦ فقط وبعد جهاده أكثر من ثلاثين عاما وهو يعمل لهذا الغرض .

ولا شك أن بلاد اليمن تأخرت كثيرا عن غيرها من البلاد ، ولكن يجب أن نقرر حقيقة هامة ، وهى أن الصناع اليمنيين لم يفقدوا مقدرتهم ، بل ظلوا محتفظين بها ، كما أن علماء اليمن حافظوا على ما كان يصل إليهم من علوم ، فظلت جذوة الذكاء مشتعلة إلى اليوم .

٨ — المناطق الأثرية فى اليمن :

إذا أردنا حصر بقايا الحضارة الاسلامية فى اليمن وجدنا أن هناك نوعين أحدهما الجوامع وأهمها الجامع الكبير فى صنعاء وجامع الجند على مقربة من تعز وبعض المساجد فى تعز نفسها وخاصة الأشرفية ، كما نرى فى آب وزبيد وذمار بعض جوامع أخرى ، ولكنها فى مجموعها لا يمكن مقارنتها بجوامع القاهرة أو دمشق وغيرهما من الحواضر الإسلامية . وثانى آثار الحضارة الإسلامية هى آلاف المخطوطات المبعثرة فى اليمن وأهمها فى مكتبة المغفور له جلالة الامام الراحل ، وفى مكتبة الجامع الكبير ، وهناك مئات من المجموعات الخاصة فى جميع أنحاء البلاد ، وهى ثروة من العلم لا يوجد لها نظير فى أى قطر إسلامى آخر .

ولم يبق فى بلاد اليمن كلها شىء من بقايا الكنائس المسيحية ظاهرا فوق الأرض . كما أنه لا توجد فى اليمن كلها بيعة قديمة لها أهمية . وأقدم المخطوطات العبرية لدى اليهود لا يرجع تاريخه إلى أكثر من خمسمائة عام .

ويوجد فى أنحاء اليمن بعض بقايا الحصون من العصور الوسطى ، كما توجد فيها أيضاً بعض الأعمال الهندسية لحسن استغلال المياه ، ولكن أهم آثار اليمن هى بقايا الحضارات المعينية والسبئية والحميرية .

والحضارة المعينية هى أقدم حضارات اليمن ، وكانت عاصمتهم فى بلاد الجوف ، وما زال هناك الكثير من بقايا المدن القديمة وفيها آثار المعابد وعلى جدرانها وفى أبهائها النقوش ، وأهمها مدن معين والحزم والبيضاء والسوداء وكنا . وقد عثر الأهالى على الكثير من الأحجار

المكتوبة وعلى التماثيل ولوحات البرونز والحلى والعملة القديمة ، ووجدت طريقها إلى عدن ثم إلى بعض المتاحف الأوربية والأمريكية .

وكانت عاصمة الحضارة السبئية فى بلاد مأرب ، وما زالت خرائب العاصمة باقية إلى اليوم تنتظر يد العلم لتكشف عن وجهها القناع ، وخرائب هذه المدينة لا تقل فى اتساعها عن أى عاصمة من عواصم العالم القديم ، وترى الكثير من الأعمدة والأحجار المنقوشة ملقى بين خرائبها ، كما ترى بعض جدران منازلها ومعابدها ظاهرة فوق الأرض . وحول خرائب مأرب نرى الكثير من المناطق الأثرية أهمها المعبد المعروف باسم محرم بلقيس والمعبد المعروف باسم العمايد ، كما يوجد على مسافة ثمانية كيلو مترات تقريباً غربى الخرائب بقايا سد مأرب الشهير ، وسنتحدث عنه بشىء من الإسهاب فيما بعد .

ومن أهم مراكز الحضارة السبئية مدينة صرواح وفيها بقايا المعابد ، كما نجد فيها أيضاً الكثير من النقوش الهامة .

أما ثالث الحضارات وأقربها عهداً إلينا فهى الحضارة الحميرية ، وكانت فى الجنوب ، وأهم بقاياها نجدها فى مدينة ظفار على مقربة من مدينة يريم ، وفيها بقايا المعابد والمقابر ، ولكن قد تخرب أكثرها ، وسرق اللصوص أكثر ما فيها من نقوش أو أحجار مرسومة ، لأن ظفار واقعة فى المنطقة التى كانت خاضعة لحكم الأتراك ، بينما بلاد مأرب وبلاد الجوف لم تخضع يوما ما للحكم التركى ، ولم يجرؤ الناس على الذهاب إليها بكثرة خوفا من سطوة القبائل التى تقيم هناك ، ولم يستطع جلالة الإمام الراحل أن يضمها إليه إلا حوالى عام ١٩٣٢ .

٩ — الرحالة الذين زاروا الآثار :

أخذ البدو منذ وقت طويل يبيعون ما يجدونه من الآثار إلى الذين يتجرون فيها فى عدن وكان طبيعيا أن يسأل هؤلاء التجار عن البلاد التى أتت منها هذه الآثار ، فكانوا يحدثونهم عما فى بلاد مأرب وبلاد الجوف من بقايا المدن القديمة . ولم يتيسر لأحد من الأجانب الوصول إلى تلك البلاد قبل الصيدلى الفرنسى « يوسف توماس أرنو » فى عام ١٨٤٣ ، وقد لاقى أكبر المشقات وكان نجاحه محدودا .

وفى عام ١٨٧٠ أرسلت وزارة المعارف الفرنسية العالم « يوسف هاليفى » لنقل كل ما يستطيع نقله من نقوش فى بلاد اليمن لنشره فى معجم النقوش السامية ، فكان هاليفى أول وآخر أوربى استطاع أن يزور بلاد مأرب والجوف ، ولاشك أن هاليفى نجح فى عمله ، وأدى

للعلم أجل الخدمات ، وقد ساعده فى عمله أنه لبس ملابس اليهود واليمنيين ، وكان ينام فى منازلهم أينما سار ويتخذ أدلاءه من بينهم .

وفى عام ١٨٨٢ بدأ ادوارد جلازر رحلاته إلى اليمن — وهو إسرائيلى الدين مثل هاليفى — ولكنه لم يستطع الذهاب إلى مأرب إلا فى رحلته الثالثة إلى اليمن فى عام ١٨٨٨ وكان يدعى أنه من الحجاج الأتراك ، وسمى نفسه باسم الحاج حسين ، ورغم حماية أشراف مأرب له ، وتعهدهم للحاكم التركى فى صنعاء بسلامته فإن رجال قبيلة عبيدة كادوا يفتكون به لولا هروبه أثناء الليل من مأرب . ولم يذهب جلازر إلى بلاد الجوف ، ولهذا بقى ما نقله هاليفى من النقوش مصدرنا الرئيسى إلى اليوم رغم مرور ثمانية وسبعين عاما .

ولم يجرؤ أحد بعد جلازر على المخاطرة بالذهاب إلى تلك البلاد ، وكان المرحوم الإمام يحيى يخشى على حياة ضيوفه ، فلم يسمح لأحد منهم بالسفر إلى تلك المناطق التى تعيش فيها قبائل لا تخضع لقانون ولا ترتاح إلى رؤية شخص غريب ، ولم يسمح المرحوم الإمام يحيى لأحد بالسفر إلى مأرب إلا للأستاذ نزيه مؤيد العظم فى عام ١٩٣٦ ، كما أنه سمح للأستاذ محمد توفيق بالسفر إلى الجوف وزيارة آثاره فى عام ١٩٤٥ ، وكانت رحلة كل منهما برضاء جلالة الإمام ، وأرسل مع كل منهما الحراس اللازمين .

وفى شهر مايو عام ١٩٤٧ كان لى وفير الحظ بارتياد المناطق الأثرية فى اليمن ، فزرت بلاد صرواح ومأرب ، كما ذهبت أيضاً إلى بلاد الجوف وزرت خرائبها كلها . وعدت ومعى مجموعة صور فوتوغرافية لآثار اليمن ، وما رأيته فيها من كتابات أو أحجار منقوشة ، كما تمكنت من نقل نقوش كثيرة أكثرها لم يره أحد من قبل لأنه خرج من مكانه فى العامين الأخيرين فقط . وقد أضافت هذه الكتابات ثروة كبيرة إلى معلوماتنا عن تاريخ تلك البلاد ودياناتها القديمة . كما ألقت صور الأحجار المنقوشة كثيراً من الضوء على صلة الفن اليمنى القديم بفنون البلاد الأخرى وخاصة الحضارة البابلية .

وكان الفضل أولا وأخيراً فى نجاح زيارتى لآثار اليمن إلى المغفور له جلالة الإمام يحيى الذى لم يكتف رحمه الله بتسهيل زيارتى لهذه المناطق ، بل أمر بأن أكون ضيفه أثناء إقامتى هناك وكان يشملنى بعطفه وعنايته فلذكراه الغالية أطيب الشكر والعرفان بالجميل .

١٠ — سد مأرب :

ومن أهم ما عنيت بدراسته فى هذه الرحلة موضوع سد مأرب فأقمت على مقربة منه يومين

نقلت أثناءها جميع ما فيه من نقوش كما أخذت أبعاد بقايا الأبنية التى فيه . وقد كان هذا السد يؤدى غرضين أولهما حجز المياه خلف وادى مأرب المتسع عند مكان يكاد يلتقى فيه جبلا بلق الأيمن والأيسر ، فى نقطة تسمى الضيقة ، للانتفاع بالمياه مدة أطول من فترة مرور السيول ، وذلك بتصريفها من البوابات حسب الحاجة ، وثانى الغرضين رفع المياه خلف السد إلى علو خمسة أمتار على الأقل حتى يمكن رى أراضى الوادى المرتفعة . ولهذا الغرض بنوا فى عرض السايلة عند الضيقة حائطا ضخما جعلوا فيه فتحتين لتصريف المياه إحداهما إلى اليمين ، وكانت تخرج منها ترعة كبيرة لتروى الجنة اليمنى ، والأخرى وهى الأهم إلى اليسار ، فكانت تخرج منها ترعة كبيرة تسير نحو ١١٦٠ مترا ، ثم تصل إلى حوض كبير يخرج منه أربعة عشر مجرى للمياه فى الاتجاهات المختلفة لرى الوادى المتسع .

وقد كان كل من الترعتين يروى عدة بلاد اندثرت الآن بعد تهدم السد ولم يبق فى المنطقة إلا قرية صغيرة وهى قرية مأرب وتحتل ركناً صغيرا بين الخرائب وتعتمد فى زراعتها على الأماكن المنخفضة التى تستطيع أن ترويها مياه السايلة وتعتمد فى شرب سكانها وماشيتها على الآبار ، أما مياه الأمطار فتذهب الآن سدى فى الصحراء .

وهناك عدة خرائب لقرى كانت ترويها الترعة اليمنى — وهى الباقية من الجنة اليمنى — وأهمها مدينة النحاس وخرابة مروث ومحرم بلقيس والعمايد ، وفيها كلها بقايا معابد وأبنية بالحجر . أما الترعة اليسرى فكانت لرى مدينة مأرب العظيمة وهى ملأى ببقايا المعابد المختلفة والقصور المبنية بالحجر وتظهر أعالى جدرانها من بين الأنقاض هى والأعمدة . ومن النقوش التى على مقربة من السد نعرف أن أول من فكر فى إقامته هو الملك « سمهعلى ينوف » وأتم العمل ابنه « يثع أمر » اللذان عاشا فى القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد تهدم السد عدة مرات وأصلحه الملوك المختلفون وهذا هو السبب فى وجود أسماء ملوك عديدين فى نقوش الأحجار التى أعادوا استعمالها فى البناء . وكان آخر ترميم للسد هو الترميم الذى قام به الملك أبرهة الحبشى فى النصف الأول من القرن السادس الميلادى وذكر تفصيل انتصاراته وترميمه للسد على لوحتين كبيرتين ما زالتا على مقربة من مكانهما الأصلى وإحداهما مؤرخة فى عام ٥٤٢ والأخرى عام ٥٦٥ وأهم النصين يبدأ بقول أبرهة « بقوة وجبروت ورحمة الإله الرحيم ومسيحه والروح القدس نقشت أنا أبرهة هذا النقش كنائب لملك الجازمحيس وذويمان ملك سبأ وذوريدان وحضرموت واليمن وأعراب الجبال وتهامة » ، ثم يتحدث النص بعد ذلك عن الثورة التى قامت بين القبائل فى بلاد مأرب وذهابه لإخضاعها ثم عمله وهو هناك بأن سد

مأرب قد تصدع فأمر بإصلاحه وتم ذلك فى أحد عشر شهرا وصرفت المخازن للعمال الذين قاموا بهذا العمل ٥٠٨٠٦ كيسا من الدقيق و ٢٦٫٠٠٠ حمل من البلح و ٣٠٠٠ جمل وثور و ٢٠٧٠٠٠ رأس من الغنم وذلك عدا الحيوانات التى استعملها العمال فى النقل، وذكر أبرهة فى هذا النص أيضا مقاييس السد كما أشار إلى تفشى وباء الجدرى فى منطقة مأرب أثناء وجوده هناك .

وكان هذا الترميم هو آخر ترميم لسد مأرب ، إذ أصابه الخراب بعد ذلك بقليل فحدث سيل العرم الشهير ومنذ ذلك اليوم اندثرت جميع البلاد الزاهرة التى كانت فى هذه المنطقة .

خاتمة :

إن فضل اليمن على الحضارة الإسلامية فى غير حاجة إلى تذكير أو تعريف ، فقد كان لليمنيين الفضل الأكبر فى نقل حضارتهم وحضارات الأمم المختلفة التى نقلت الإسلام من مكان إلى مكان ، ونشروا الكثير من فروع العلم والمهارة وخاصة إقامة السدود فى جهات مختلفة فى آسيا وفى شمال أفريقيا وفى أسبانيا .

ولكنا نعرف أيضا أن بلاد اليمن لعبت منذ فجر التاريخ دوراً هاما فى نشر التجارة بين بلاد الشرق القديم واستقر المهاجرون اليمنيون فى شمال الجزيرة العربية فكان منهم البابليون الذين غلبوا السومريين على أمرهم فى بلاد ما بين النهرين فى الألف الرابع قبل الميلاد . وكان منهم أيضا القبائل التى عبرت البحر الأحمر إلى الشاطئ الأفريقى وصبغت جزءا كبيراً من تلك البلاد بحضارتها ، وأكبر الظن أن أحفاد بعض هذه القبائل وصلوا إلى وادى النيل من الجنوب ومن الشرق وذلك فى فجر التاريخ أيضا .

إن مناطق الآثار فى بلاد اليمن لم تمتد إليها يد العلماء بعد ، وكل ما وصل إلينا من معلومات لم يعد ترجمة الأحجار التى أتت من سطح الأبنية وبعضها يرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد ولكن بعض هذه الأكوام والأنقاض يرتفع ارتفاعاً كبيرا ، وكلما تعمق الحفار فى عمله وصل إلى عصور أبعد فى التاريخ لأن هذه المدن بنيت على أنقاض مدن أقدم منها .

إن هناك فجوات كثيرة فى التاريخ القديم للشرق بل لا نبالغ إذا قلنا إن هناك حلقات مفقودة فى أصل تاريخ حضارة بعض بلاد الشرق القديم وهناك أمل كبير فى أن الأبحاث المقبلة فى جنوبى الجزيرة العربية ستملأ هذه الفجوات وتصل بين هذه الحلقات بل وستلقى ضوءاً كبيرا على فضل الجنس السامى والدور العظيم الذى لعبته الجزيرة العربية فى حضارة العالم قبل دورها العظيم الذى قامت به عندما انبثق منها نور الإسلام » .

أحمد فخرى

مقومات الحضارة العربية

للدكتور سليمان حزين

لكل حضارة من الحضارات الكبرى فى تاريخ البشر مقوماتها وأسسها التى تقوم عليها وتستند إليها . وحضارة العرب هى إحدى الحضارات الكبرى التى ظهرت فى التاريخ، وعاشت فترة طويلة من الزمن ، وأثرت فى غيرها من الحضارات . بل إن بعض مظاهر الحضارة العربية ، لاسيا فى ميدان الثقافة والروح ، قد عاش وبقى على الأيام أطول مما عاش غيره من ألوان الفكر والثقافة التى ظهرت فى جهات أخرى من العالم . ومن المظاهر الخالدة فى ثقافة العرب لغتهم التى عاشت وأنتجت أدبا قام بذاته وعبر به أصحابه عن معانى الحياة ومشاعرها خلال فترة تقارب الستة عشر قرنا ، وهو ما امتازت به اللغة العربية على كثير من اللغات القديمة والحديثة ، فاللغة اللاتينية مثلا إنما عاشت بضعة قرون ، ماتت بعدها كلغة يتكلم بها الناس ويعبرون عن مشاعرهم ، ولم تبق إلا كلغة تدرس فى الكتب . واللغات الأوروبية الحديثة كلها لا يكاد يجاوز أطولها عمراً ، كلغة حياة وأدب ، ألف عام أو نحو ذلك . أما اللغة العربية فقد عاشت وأنتجت أدبا فهمته الأجيال المتعاقبة وتذوقته رغم بعد الشقة فى الزمن . ونحن الآن لا نزال نقرأ الأدب الجاهلى ونمتع لقراءته كما لا نزال نقرأ القرآن ويأخذنا سحره . وهذا ما يميز تراثنا الثقافى عن تراث كثير غيرنا من الأمم والشعوب .

وما يقال عن اللغة العربية يقال عن غيرها من نظم العرب الاجتماعية ، وما خلفوه من تراث حضارى عام . فقد بقى كله وخلد ، ولا بد لبقائه من سبب أو أسباب كانت من دعائم قوته ومقومات حياته . وقد يكون من المفيد فى هذا الحديث أن نستعرض بعض تلك الدعائم والمقومات ، استعراضاً يهدف إلى تبسيط الحقائق التى وصلت إليها دراساتنا الحديثة للعرب وحضارتهم ، أكثر مما يقصد إلى التعمق فى تفصيلات تاريخ الحضارة العربية .

وأول ما نلاحظه على حضارة العرب أنها حضارة أصيلة فى البيئة العربية ، قد تأثرت بظروف مهدها إلى أبعد الحدود . فهى إذن ليست حضارة دخيلة ولا منقولة وإن كانت قد تأثرت بغيرها من الحضارات المجاورة . وقد كان ارتباط الحضارة العربية بالبيئة الجغرافية لبلاد العرب سبباً من أسباب قوتها واستمرارها على الزمن . ولكن الشيء المهم أن البيئة العربية

ليست كلها صحراء كما قد تتصور ، وإنما فيها البادية وفيها الحضر ، وفيها النجاد الداخلية والسهول الساحلية ، وفيها العيون وفيها الأودية ومجارى الأنهار ، وبعض جهاتها كالربع الخالى وصحراء النفود مقفر مجدب شديد الجفاف ، وبعضها الآخر كبلاد اليمن غنى التربة غزير الأمطار يشبه الجهات الموسمية ، ثم إن جنوب بلاد العرب على الجملة تسقط أمطاره فى الصيف أى فى موسم الحرارة ، على حين تسقط أمطار شمالها فى الشتاء ، أى فى فصل البرودة . لذلك كله فإن البيئة العربية كانت بيئة متنوعة أو هى بعبارة أصح وأدق تجمع بين الوحدة والتنوع : الوحدة من حيث الموقع الجغرافى العام والبيئة الصحراوية الحارة على الجملة ؛ والتنوع من حيث الاختلافات الإقليمية والمحلية . وقد انعكست الصورة الجغرافية فى حضارة العرب وثقافتهم . فهى وإن كانت ذات طابع عربى عام ، فإنها مع ذلك تتسم بصفات محلية متنوعة. فهناك عرب الجنوب وعرب الشمال أو قحطان وعدنان ، وهناك أعراب البادية ، وأبناء الحضر . بل هناك فى شمال الجزيرة أرض العراق وأرض الشام ، ثم هناك حداة الإبل الذين يعيشون على اليابس ويعملون فى النقل على طول طرق القوافل ، وهناك العرب الملاحون الذين ورثوا الفينيقيين على سواحل البحر المتوسط وورثوا الملاحين القدماء فى الخليج الفارسى وبحر العرب . إلى غير ذلك من مظاهر التنويع التى كانت فى حد ذاتها مصدراً من مصادر القوة ، وعنصراً من عناصر اتساع الأفق وتفتح مجال الفرص فى حياة العرب وحضارتهم . ولولا ذلك التنوع الذى كان مرده إلى البيئة العربية ما كانت لحضارة العرب تلك المقدرة العجيبة على أن تجارى الزمن وتجارى الظروف ، ولا كانت لها تلك الحيوية التى ميزتها عن غيرها من الحضارات .

وليس معنى التنوع فى البيئة العربية وفى تكوين العرب أنهم كانوا مجرد جماعات اختلط بعضها ببعض ، وإنما معناه الصحيح أنهم كانوا جماعة ذات مواهب متنوعة ، وحيوية استطاعت على الدوام أن تجد مجالها فى العمل والنشاط وبناء الحضارة مهما اختلفت الميادين ومهما تباينت الظروف .. وذلك كله أمر صحيح يسلم به من يدرسون تاريخ العرب والحضارة العربية .

ولقد خرج العرب من بيئتهم إلى البيئات المجاورة واحتكوا بأهلها ، ونقلوا عنهم ما نقلوا كما منحوهم وأعطوهم من نتاج بيئتهم العربية ما ساعد على تزاوج الفكر والحضارة فى العالم القديم تزاوجا كانت له أطيب الثمرات . وكان ذلك على الأخص بعد ظهور الإسلام وانتشاره إلى الشرق والغرب وعلى طول طرق التجارة البرية والبحرية .

بل إن تجار العرب وملاحيهم قد انتشروا إلى جهات بعيدة من الأرض وإلى بيئات متباينة أشد التباين ، فهم وصلوا قلب آسيا وأطرافها الشرقية ، بل وبلغ تجارهم البر البلطى ، وانتشر ملاحوهم إلى سواحل إفريقية الشرقية وبلاد الزنج من جهة ، وإلى بلاد الملايو وجزر الهند الشرقية وبعض شواطئ الصين من جهة أخرى . وفى كل هذه الأصقاع كانوا رسل الثقافة وحملة النور . ولعل العرب من هذه الناحية أن يكونوا أوسع شعوب الأرض اتصالا ونشراً للثقافة ونور المدنية والحضارة . بل إنهم سبقوا فى سعة الاتصال وفاقوا فى اتساع الانتشار ما بلغه بعض شعوب أوربا الحديثة بعد ذلك بعدة قرون .

والحق أن العرب أمة كان لها فضل كبير فى الحضارة والمدنية . وهم سلالة الشعوب السامية القديمة ، وورثة ذلك الموقع الجغرافى الفذ فى قلب العالم القديم وهو الموقع الذى اتصلت فيه السلالات من كل الألوان ، وتعلم الإنسان أن يأخذ ويعطى ، وأن يؤثر ويتأثر ، وأن يغدو إنساناً فى حضارة عالمية بالمعنى الكامل الشامل . ولكن المهم بل الطريف أننا إذ ندرس الحضارة العربية نلمس فى يسر أنها رغم اتصالاتها العريضة كانت على الدوام حضارة ظاهرة مميزة ، وقد يكون من الطريف فى هذا المقام أن نسجل عنها بعض الأمور التى ميزت طابعها وأبرزت الدور الحضارى الذى قام به العرب فى صورة واضحة المعالم .

وأول هذه الأمور أن حضارة العرب الإسلامية أفادت من سعة انتشارها ما زاد من قوتها وحيويتها ، وأضاف إلى اتساع أفقها وتنوعها ، فاختلطت حضارة العرب فى أرض الشام بحضارة آرامية قديمة ذات اتصال بحضارة الأغريق وفلسفتهم ، واختلطت فى أرض العراق بحضارة سامية أخرى كانت متأثرة بحضارة الفرس فى مجال المادة ومجال الروح ، كما اختلطت فى مصر وأرض النيل بحضارة عريقة أصيلة كان من حظ أهلها أيضاً أنهم تلقوا حضارة الأغريق وثقافتهم ونتاج فكرهم فاحتضنوه وغذوه وحفظوه للعرب والمستعربين من أبناء الشرق القديم ، الذين ما لبثوا أن غدوا هم ورثة الثقافة الإغريقية ، والقوامين عليها خلال بضعة قرون . وبهذا الاختلاط كله فى أرض الشام والعراق ومصر وكذلك باتصال العرب مع أجزاء أخرى من العالم كفارس وبلاد الهند وشرق إفريقية وشمالها . . بذلك كله عدت حضارة العرب حضارة عالمية بالمعنى الصحيح ، وخرجت عن نطاقها ومهدها الضيق إلى العالم القديم بأسره ، واتسعت أوجه الشبه والاتصال بينها وبين حضارات ذلك العالم . وهكذا وجدت طريقا جديداً إلى الخلود والبقاء ولو فى صورة جديدة تختلف عما كانت عليه صورتها الفطرية فى قلب الجزيرة العربية .

والأمر الثانى الذى يهمنا هو أن الحضارة العربية فى نشأتها الأولى كانت حضارة بسيطة غير مركبة ، وذلك من حيث أسسها المادية ، ونظمها الاجتماعية الصحراوية ، واتجاهات فكرها ونزعاتها الروحية . وهذه البساطة فى حد ذاتها راجعة أيضاً إلى مقومات البيئة الجغرافية والاجتماعية بين الرعاة وحداة الإبل . ولكنها كانت إلى جانب ذلك مصدر قوة فى الحضارة العربية ، لأنها جعلت منها لوناً من الحضارة أو الحياة واضح المعالم محدد الأهداف والغايات قائماً على أساس خضوع الفرد للجماعة واندماجه فيها ، حتى فيما يمس حياته المادية ، فالماء والمرعى وغيرهما من مرافق الحياة مثلا كانت مرافق عامة تملكها القبيلة كلها أو العشيرة الضاربة فى جهة من الجهات ولذلك كانت حياة الفرد من حياة العشيرة ، كما كان دمه من دمها ، بل لذلك فإن الحضارة العربية حملت فى كيانها الأصلى روح الترابط بين الفرد والجماعة ولوناً من ألوان التآخى والتساند والتكافل بين الإنسان وأخيه الإنسان ، وهذا ما جعل منها حضارة عالمية تصلح لأن تنتشر إلى العالم الخارجى ، فتربط بين أطرافه ، ولا تميز بين عربى وغير عربى ، وإنما تشيع فى العالم كله لوناً جديداً من الحضارة الإنسانية ، التى تقوم على أساس الأخوة فى الحياة أو الأخوة فى الثقافة والدين على كل حال .

وأما الأمر الثالث فهو أن البساطة فى حياة العرب وحضارتهم قد ترتب عليها ظهور التجرد من المادة فى كثير من ألوان الفكر العربى ، ولعل خير ما يوضح لنا ذلك أن العرب حتى الآن لا يزالون يجدون مثلهم العليا فى أمور مجردة غير ملموسة ، فهم يرون القصيدة الشعرية أدق تعبيراً عن معانى الحق والخير والجمال من التمثال المجسم أو البناء المشيد ، وهم كثيراً ما يأخذهم سحر القول بأكثر مما يخلب لبهم الزخرف الملموس .. ولعل العرب أن ينفردوا فى ذلك بين غيرهم من الأمم وأصحاب الثقافات الأخرى .

أما الأمر الرابع والأخير فيتمثل فى صفة لم تكن أقل تمييزاً لحضارة العرب وثقافتهم من صفة البساطة ألا وهى المرونة والمقدرة على التجديد وعلى مجاراة الزمن ومجاراة ظروف البيئات المختلفة التى انتشر إليها العرب أو انتشرت ثقافتهم . ومن هذه الناحية ينبغى أن نصحح خطأ شائعاً عن العرب وعن حضارتهم الإسلامية . وذلك أن الاعتقاد السائد بين من يدرسون التاريخ العربى دراسة سطحية هو أن العرب قوم صحراويون ، قد انتشرت ثقافتهم ونجحت على الخصوص فى بيئات الرعاة المماثلة للبيئة العربية الأصلية . ولكننا إذا راجعنا خريطة العالم وجدنا أن العرب قد انتشروا ونقلوا معهم معالم حضارتهم وثقافتهم إلى بيئات متباينة أشد التباين .. منها أواسط آسيا وشمال أفريقية وهى أقاليم رعوية ، ومنها مصر وأرض

العراق وهى بيئات زراعية مستقرة ، ومنها بلاد الهند وهى مناطق زراعيــة أيضاً ولـكنها ذات مناخ يختلف تماما عن البيئة العربية الأصلية ، ثم منها جزر الهند الشرقية التى تقع عند خط الاستواء . وليس فى بيئتها الجغرافية ولا فى تكوين سكانها ونظمهم الاجتماعية ما يشبه من قريب أو بعيد بيئة الصحراء وحياة الرعاة من الأعراب . ولعل هذا كله أن يكون دليل المرونة والمقدرة على التشكل والتطور فى الثقافة العربية بما يجارى البيئة الجديدة . . وذلك ما اكتسبه العرب من بيئتهم الجغرافيــة وموقع بلادهم الجغرافى ، واحتكاكهم منذ القدم بالشرق والغرب وبالشمال والجنوب .

تلك خلاصة موجزة عن حضارة العرب ومقوماتها ، ومصادر القوة وعناصر الخلود فيها . لم يكن القصد منها أن نستوفى معالم تلك الحضارة سرداً واستعراضا ، فهيهات أن نستطيع ذلك فى مثل هــذا الحديث . ولـكنها خلاصة أردنا بها أن نبرز ما فى حضارتنا العربية من قوة ، وما تستند إليه من مقومات ، لم يزدها الزمن إلا رسوخا ولم تزدها الأيام إلا ثباتا ، حتى غدت بذلك كله تراثاً خالداً من حقنا أن نفاخر به ، ورسالة تالدة ما أحراها أن تعيش وأن تبقى على مر الأيام .

سليمان حزين

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

الجامعة العربية وأسسها الجغرافية والتاريخية

للدكتور سليمان حزين

أثار تكوين جامعة الدول العربية اهتماما كبيرا فى العالم خلال الأعوام الأخيرة ، وإن اختلفت وجهات النظر ، وتباينت البواعث على هذا الاهتمام . فقد نظرت كثرة أهل المشرق العربى إلى تأليف الجامعة على أنه أمل تحقق ، وتطلع غير قليل ممن يتكلمون العربية من أهل المغرب الأفريقى وبعض جهات آسيا العربيـة ذاتها إلى الانضمام إليها على أنه أمل يرتجى ، ووقف العالم الخارجى بين مشجع لهذه الحركة الجديدة ومحبذ لها ، وبين معارض لها وللفكرة من قيامها ، أو محايد يكاد لا يهتم لشأنها بأكثر من أن ينظر ليرى ما يكون من أمرها فى المستقبل .

ولسنا نود هنـا أن نعالج موضوع الجامعة من حيث إنها أمل تحقق أو رجاء يرتجى ، ولا من حيث إنها حادث دولى نرتقب نتائجه ، وما عسى أن يكون من أمره . فذلك كله من شأن أهل السياسة ، وقد يكون من الخير أن نفرغ إلى معالجة الموضوع من ناحيته الدراسية الخالصة . فمهما قيل عن الجامعة وضرورة قيامها كدعامة من دعائم السلم فى الشرق الأوسط فإن مصيرها إنما يرتبط فى الحقيقة بالمقومات الأساسية التى يستند إليها وجودها كهيئة تأتلف من مجموعة مترابطة من الأمم ذات المواقع الجغرافيـة المتجاورة والتاريخ البشرى المتداخل والمصالح المادية المتشابكة . وهذه المقومات الجغرافية والتاريخية تمثل عنصرا دائما ثابتاً لا يتغير كما تتغير الظروف والملابسات السياسية العارضة . وإذا نحن نظرنا إلى الجامعة ودرسناها من هـذه الناحية التى تكشف عن الأسس والمقومات ، فإننا نخرج بصورة تسمح بالحكم على ضرورة قيامها حكما يستند إلى الحقائق الثابتـة أكثر مما يستند إلى الأعراض التى قد لا تلبث أن تتغير أو تزول .

لذلك كله رأيت أن أعرض للجامعة كما يعرض لها باحث الجغرافيا أو دارس التاريخ . ولعل فى هذا النحو من الدراسة ما يلقى ضوءاً جديداً على هذه الجامعة الناشئة ، يبرزها فى وضعها الصحيح ، أو فيما يقرب منـه ، ويكشف لنا عن مكامن القوة وعوامل الدوام فيها ،

رغم ما قد يعترض سيرها من الناحية السياسية بين حين وحين بل يكشف لنا بقدر المستطاع عن قيمة هـذه المنظمة واحتمالاتها الـكامنة ، ومغزى تكوينها بالنسبة لأهلها من جهة ، وبالنسبة للعالم الخارجى من جهة أخرى .

ولعل أول ماينبغى أن نسجله من الناحية الجغرافية أن الشرق العربى يحتل موقعاً جغرافياً فذاً فى قلب العالم القديم ، تلتقى عنده قارات ثلاث هى آسيا وأوربا وأفريقيا ، التى كان لـكل منها دورها الخاص فى تاريخ البشرية ، ويمتـد من سواحله من الشمال بحر قديم كان مهداً لـكثير من مظاهر المدنية القديمة والحديثة هو البحر الأبيض المتوسط ، الذى امتاز بهدوء مياهه ، وانتظام ريحه وانتشار جزره ، وكثرة تعاريج سواحله وخلجانه ، حيث قامت المرافئ والموانئ منذ أقدم العصور . كذلك يتوغل فى هذا الشرق العربى من الجنوب ذراعان للمحيط الهندى والبحر العربى ، هما البحر الأحمر وخليج فارس ، وقد ارتقت كلا منهما سفن الملاحة آتية من بحار الهنـد والشرق الأسيوى البعيد ، أو من شرق أفريقية . ولـكن المهم أن الاتصال البحرى لم يكن تاما بين بحار الجنوب وبحار الشمال ، وإنما قطعت بين تلك البحار أرض الجزيرة العربية الشمالية ، فكان لزاماً أن تمر المتاجر بالبر فى تلك المرحلة ، ومن هنا أصبح لسكان تلك المنطقة التحكم فى المواصلات العالمية منـذ القدم . ولو أن الجزيرة العربية كانت جزيرة بالمعنى الجغرافى المعروف ، فأحاطت بها المياه من كل جانب ، واتصل البحر المتوسط ببحار الجنوب لتغير وجه التاريخ تغيراً تاماً ، ولما كانت لشبه جزيرة العرب وما يتصل بها من بلاد وأقطار تلك الأهمية الفريدة فى تاريخ المواصلات العالمية وفى علاقات الشرق بالغرب والشمال بالجنوب .

والحق إن هذا الشرق العربى فى جنوب غرب آسيا وشمال شرق أفريقية قد لعب بموقعه الجغرافى دوراً خطيرا فى تاريخ الاتصالات العالمية وتاريخ البشر بوجه عام ، وساعده على ذلك أنه كان مهدا لـكثير من الحضـارات القديمة فى مصر وبلاد الشام وسومر وبابل وآشور وعمان وبلاد اليمن ، كما نشأت فيه عدة إمبراطوريات امتد نفوذها وسلطانها إلى الشرق أو الغرب ، أو إلى الاثنين معا . وكان فوق ذلك مهبط الديانات السماوية الثلاث ، فيه نشأت ومنه انتشرت ، ومبعث كثير من ألوان الفكر والثقافة العالمية التى بقيت على الزمن . ولو أننا نظرنا إلى تاريخ الإنسانية المـكتوب وحسبنا أنه يمتد خلال خمسة آلاف عام أو نحو ذلك ، لـكان من الطريف أن نذكر أن هذا الإقليم الذى نحن بصدده — أو أن أجزاء منه على أقل تقدير — كانت مركز القوة السياسية الأول ومبعث الثقافة والعلم والمعرفة الإنسانية خلال

ما يقارب ثلاثة أرباع تلك الفترة . ولو قيست أهمية أقاليم وجه الأرض فى تاريخ البشر بطول الحقبة التى كانت فيها كل منها مركز السلطان ومبعث المعرفة ، لـكانت لهذا الإقليم المـكانة الأولى بين الأقاليم . ولعل من الخير والإنصاف أن نتمثل هذه الحقيقة البسيطة أمام أعيننا ، حتى لا يضلنا تغير الظروف والأحوال فى الوقت الحاضر والزمن الذى نعيش فيه ، فلا ندرك أهمية إقليمنا ولا نقدر مكانته العالمية على وجهها التاريخى الصحيح .

ويتألف هذا الشرق العربى فى داخليته من نواة صحراوية أو شبه صحراوية ، تقل فيها الأمطار ولا ينتظم سقوطها ، وتتمثل فيها حياة البادية العربية المعروفة ، فلا يستقر بها السكان إلا فى عدد من الواحات أو حول الآبار . وقد اخترقت تلك النواة منـذ فجر التاريخ طرق القوافل ، التى سار عليها حداة الإبل ووسطاء التجارة ، فنقلوا السلع والمتاجر ، وحملوا معهم أنواع الفـكر والثقافة ، فـكان ذلك الاحتـكاك المثمر فى بعض الواحات ومراكز الاتصال ، ولقحت المدنية الخارجية حياة العرب وحضارتهم منذ البداءة . كما استطاع البدو وتجارهم أن ينشروا نتاج بيئتهم الفـكرى إلى الخارج وكان هؤلاء التجار فوق ذلك وسطاء ثقافة ، حملوا رسالة الفـكر والمدنية بين أهل الشمال وأهل الجنوب ، وبين أهل البحـار المعتدلة والباردة وأهل البحار الدفيئة والحارة . ولم يكن غريبا بعد كل هذا أن ترتبط التجارة والثقافة فى حياة العرب وسكان الجزيرة الداخلية ذلك الارتباط القوى المعروف .

وعلى جانبى تلك النواة الصحراوية الداخلية التى تمثل قلب الشرق العربى ، والتى لم تكن نواة صماء ، وإنما اخترقتها الطرق فى جميع الاتجاهات ، ونفذت إليها الحياة الخارجية من كل سبيل ، كان هناك نطاقان من الحياة المستقرة فى أراض يزيد فيها المطر زيادة نسبية أو يتوافر بها الماء من المجارى والأنهار . ويحف أحد النطاقين بالنواة من جهة الجنوب ، لاسيما الجنوب الغربى والجنوب الشرقى ، كما يحف بها النطاق الآخر من جهة الشمال ، ويمتد خارج الجـزيرة إلى شمال شرق أفريقية ، ففى جنوب صحارى بلاد العرب ونجادها الوسطى كانت هناك اليمن وحضرموت وعمان وهى كلها مراكز لحضارات قديمة قبل الإسلام . فقد نشأت فى اليمن وأطراف حضرموت الحضارات المعينية والسبئية والحميرية فى ألف السنة السابقة لميلاد المسيح والخمسمائة السنة اللاحقة به . ونشأت فى عمان حضارة أخرى قديمة لا نعرف عنها الشىء الـكثير ولـكن بعض الباحثين يرى أنها ربما كانت أقدم من حضارة اليمن ، وأنها كانت على اتصال بأجزاء مختلفة من الجزيرة ، بل إن السومريين أنفسهم ربما جاءوا فى الأصل من تلك البلاد أو من جوارها قبل أن يستقروا فى جنوب العراق . وسواء أصح هـذا أم لم يصح ، فإن

اتصال سكان الجزيرة الجنوبيين فى عمان وحضرموت واليمن بسكانها الشماليين أمر تاريخى قديم لا جدال فيه ، وقد اشتد ذلك الاتصال بنوع خاص فى العصر الجاهلى وبعد ظهور الإسلام . وكان لهؤلاء الجنوبيين فضل كبير فى نشر الثقافة العربية والدين الإسلامى بالبحر إلى شرق أفريقية وجنوب آسيا وجزر الملايو وأندونيزيا ، فكانوا بذلك رسل الثقافة العربية ودعاتها فيما وراء البحار ، وقد عرف الحضارمة منهم بنوع خاص بأنهم « فينيقيو البحار الجنوبية » .

ومع ذلك فإن الجامعة العربية بتكوينها السياسى الحالى لا تشمل من جنوب بلاد العرب غير اليمن ، فى حين أن الظروف الطبيعية والبشرية والتاريخية تقضى كلها باعتبار حضرموت وعمان منطقتين متممتين لهذا الشرق العربى من ناحية الجنوب . ولا بد أن ننتظر اليوم الذى تنضم فيه تلك البلاد إلى الجامعة ، إذا أرادت هذه الأخيرة أن يتسق تكوينها السياسى مع تكوينها الجغرافى ، وأن تستكمل مقوماتها الطبيعية والتاريخية جميعا .

كل هذا عن النطاق الذى يحف النواة الصحراوية من ناحية الجنوب . فأما النطاق الشمالى ذو الحياة المستقرة والمدنيات الحضرية القديمة فيشمل مايعرف باسم «الهلال الخصيب» كما يمتد إلى شمال شرق أفريقيا ، لتدخل ضمنه مصر ووادى النيل الأوسط فى السودان . فأما الهلال الخصيب فيتألف من منطقة تمتد على شكل هلال مفتوح نحو الجنوب ، تتوغل فيه بادية الشام . ولهذا الهلال شقان هما العراق والشام بمعناها الأوسع . والعراق فى جملته سهل منبسط تحف به الجبال فى الشرق والشمال ، وتجرى فوقه أنهار دجلة والفرات وقارون وروافدها المنحدرة من الجبال . وقد نشأت بالعراق منذ القدم حضارات متتابعة ، كان بعضها فى أسفله مثل سومر ، وبعضها فى وسطه مثل بابل ، وبعضها فى أطرافه الشرقية مثل آشور . ولكن المهم أن العناصر السامية استطاعت فى النهاية أن تكتسح معظم أراضيه اكتساحا ، وأن تصبغها بالصبغة السامية ، حتى إذا ما جاء العرب وتوسعوا من داخلية الجزيرة قبل الإسلام وبعده ، لم يلقوا عناء كبيرا فى أن ينشروا فيه لغتهم ودينهم وثقافتهم ، وفى أن يتخذوا منه قاعدة ينشرون منها معالم تلك الثقافة نحو الشرق إلى إيران وتركستان . واستطاع العراق فى العهد العربى بمختلف أدواره أن يكون وحدة ثقافية ، حتى إذا ما جاء العهد الحديث كانت هذه الوحدة الثقافية عاملا هاماً فى وحدته السياسية رغم وجود بعض العناصر الكردية وغير العربية فى أقصى الشمال .

أما الشق الثانى من الهلال الخصيب فأكثر تعقيدا من الشق العراقى ، لأن الطبيعة

تجعل منه سهلا مستويا تجرى فوقه الأنهار تربط بين مختلف أجزائه ، وإنما جعلت منه إقليما معقد السطح والتضاريس . ففى شماله توجد سلاسل لبنان الشرقية والغربية ، التى تفصل بين سوريا وسواحل لبنان ، والأولى ذات حيضان وسهول داخلية تتجه نحو البادية ، وترتبط بها ارتباطا وثيقاً . أما لبنان فإن سفوح جباله الغربية وسهله الساحلى الضيق تتجه نحو البحر المتوسط ، وترتبط حياتها به ارتباطاً يرجع إلى أيام الفينيقيين . ولقد تأثر ساحل لبنان أكثر مما تأثر غيره من أقاليم الشرق العربى بحياة الملاحين فى شرق البحر المتوسط ، وبثقافة الإغريق والروم الشرقيين ، وظهرت آثار ذلك فى العهد المسيحى ، وفى الكنائس الطائفية التى لا تزال قائمة حتى الآن .

وإلى الجنوب من سوريا ولبنان هنالك شرق الأردن وفلسطين ، ويقسمهما منخفض الأردن والبحر الميت . وقد يكون من المهم هنا أن نلحظ الفرق الكبير فى التكوين الطبيعى بين ساحل فلسطين من جهة وساحل لبنان شمال حيفا من جهة ثانية ، فالأول رملى منخفض تكثر به الرواسب ، ويكاد يخلو من المرافئ الطبيعية الصالحة ، وإنما ترجع أهميته إلى الطرق البرية التى كانت تخترقه ، أو تسير على طوله وتربط ما بين مصر وشبه جزيرة سينا من ناحية ، وداخلية الجزيرة العربية الشمالية وبقية أرض الهلال الخصيب من ناحية أخرى . أما ساحل لبنان من حيفا شمالا فصخرى فى أكثر أجزائه ، ويوجد به عدد من المرافئ الطبيعية التى لا تزال تستعمل فى الوقت الحاضر مثل بيروت . وقد مثل هذا الساحل على الدوام المدخل البحرى الأساسى لتجارة الشق الشامى من الهلال الخصيب ، واستطاع أن يحتفظ بمكانته هذه على مر العصور . فكما تحكم الفينيقيون فى تجارة مملكة سليمان البرية التى كانت تشمل أراضى فلسطين والشام الداخلية ، كذلك استمرت موانئ لبنان ومرافئه السواحلية متحكمة فى تجارة الشرق الأدنى فى العصور الوسيطة ، ولا نزال فى الوقت الحاضر نلمس اعتماد سوريا الداخلية على بيروت (والاسكندرونة قبل أن تضم إلى تركيا) فى تجارتها البحرية . ولذلك كله فقد يكون من الخير فى معرض الحديث عن التكوين السياسى والقومى لكل من سوريا ولبنان أن نجمع بين حقيقتين لا سبيل إلى الأخذ بإحداهما دون الأخرى : فأما الحقيقة الأولى فإن مقتضيات البيئة الطبيعية والتوجيه الإقليمى والتاريخ الثقافى تقضى بأن يكون لكل منهما كيانهما القومى والسياسى والمستقل . وأما الحقيقة الثانية فإن مقومات الحياة الاقتصادية السليمة والمصالح المادية المشتركة تقضى بأن يكون بينهما أوثق الاتصال ، وبأن يكونا بمثابة الشقيقين التوأمين فى أسرة الأمم العربية .

فإذا ما نحن خرجنا من الجزيرة العربية بمعناها الجغرافى الضيق ، وانتقلنا إلى شمال شرق أفريقية وجدنا أرض وادى النيل التى ارتبطت فى تاريخها الطويل بالشرق الأسيوى المجاور ، وكانت فوق ذلك واسطة الاتصال بينه وبين الخارج فى بعض أدوار ذلك التاريخ . والحق إن الجغرافيين المحدثين لا يفرقون الآن بين شمال شرق أفريقية وجنوب غرب آسيا ، فهى كلها تؤلف إقليما جغرافيا واحدا ، رغم وجود البحر الأحمر بينها . وقد وثقت الطبيعة الصلة بين مصر وغرب آسيا ، فأعدت طريقا طبيعيا سهلا يصل بينهما ، ويسير على طول الساحل الشمالى لشبه جزيرة سينا ، حيث تسقط الأمطار فى فصل الشتاء ، فتختزنها كثبان الرمال المنتشرة على الساحل ، لتغذى بها المياه الجوفية طول العام ، وبذلك كثرت الآبار وتوافرت المياه على طول الطريق . وقد كان طريق سينا الشمالى هذا هو طريق الغزوات السامية العديدة التى جاءت من الشرق إلى مصر فى أيام قدماء المصريين كالهكسوس وغيرهم . ثم جاءت عنه غزوة العرب وهجرات قبائلهم خلال العهد الإسلامى ، وكذلك خرجت على طول هذا الطريق غزوات المصريين وحملاتهم إلى الشرق القريب فى أعصر التاريخ المختلفة ، ولا تزال لهذا الطريق أهميته العسكرية الكبرى ، فهو مفتاح مصر من ناحية الشرق ، وفيه تسير الآن سكة حديد فلسطين ، وجانب من طريق السيارات البرى الجديد . وكلما سهل الاتصال وتيسر من هذا الطريق استوثقت العلاقة بين مصر وجاراتها العربية ، وبرزت قيمة اهتمام مصر بشؤون تلك الجارات . ولا بد هنا من أن نشير بصفة خاصة إلى موقع فلسطين عند طرف مدخل مصر الشرق . ذلك أن فلسطين هى الجارة الوحيدة المباشرة لمصر من بلدان الشرق العربى ، فحدودها البرية من الشرق لا تلاصق بلدا غيرها ، ولا يمكن أن يتم الاتصال البري بيننا وبين بلدان هذا الشرق إلا عن طريق أرض فلسطين ، وإذن فإن فلسطين إن هى بقيت خارج نطاق الجامعة العربية الجديدة تستطيع أن تكون حاجزا حقيقيا بين مصر وبقية بلدان الجامعة ، فتعوق مثلا تنفيذ أية اتفاقية جمركية لتيسير تبادل المنتجات والمتاجر ونقلها بين أقطار الجامعة ، أو تعوق مرور قسم من أنابيب البترول السعودية إلى إحدى موانئ سواحل مصر للتكرير والتصدير ، أو تعرقل أية اتفاقية لتيسير مرور المسافرين بالبر بين مصر والشرق ، أو غير ذلك من الحالات التى قد تبدو افتراضية محضة فى الوقت الحاضر ولكنها قد تصبح واقعية ومؤلمة .

وفوق ذلك فإن لفلسطين قيمة أخرى بالنسبة للعلاقات بين مصر وجاراتها العربية ، فهى تعتبر قاعدة عسكرية من الدرجة الأولى ، وتستطيع أية سلطة تسيطر عليها أن تهدد كيان

الشرق العربى كله ، ولعل فى ذلك ما يكشف لنا عن ضرورة التعاون الشامل بين أمم الشرق العربى وشعوبه إن هى أرادت أن تحفظ كيانها بعد أن تغيرت بعض الأوضاع العسكرية فى هذا القسم الخطير من العالم .

على أن هذا الأمر فيما يتصل بمصر لا يقف عند أنها كانت وثيقة الصلة ببقية الشرق العربى ، ولا عند أنها تكوّن جزءاً أساسياً من هذا الإقليم الذى تشغله بلدان الجامعة ، وإنما يجب فى الوقت نفسه أن نلحظ أن مقومات الحياة فى مصر ذاتها ترتبط بناحية ثانية غير الشرق الأسيوى ، هى وادى النيل من ناحية الجنوب . فقد قضت الطبيعة أن تمتد حدود مصر « الحيوية » فى هذه الجهة الأخيرة إلى أبعد كثيراً من حدودها «السياسية» . ولذلك كان على مصر أن تستمسك بصلاتها ومصالحها فى الجنوب استمساكها بصلاتها ومصالحها مع الشرق . بل لذلك كان اتصال مصر بالجنوب قديماً قدم اتصالها بالشرق . وكما كان ذلك الاتصال بالشرق قائما على تبادل المنفعة والتجارة ، واحتكاك الفكر ، وانتشار الثقافة ، كان قائما كذلك على هذه الأشياء جميعا ، وعلى شىء آخر فرضته الطبيعة فرضا ، فأحسه المصريون إحساساً واستجابوا له بفطرتهم ، فاتجهوا نحو الجنوب لأنه مصدر الحياة ، ونشروا حضارتهم فرعونية ومسيحية وإسلامية فى ربوع السودان . بل تخطوه إلى بلاد أخرى فى شرق أفريقية وترتب على ذلك كله أن توطدت الصلات البشرية ، وتمكنت الروابط التاريخية ، فأضفت على الوحدة الجغرافية قوة جديدة ، لابد أن تنتهى مهما طال الزمن ، ومهما كثرت العراقيل المصطنعة ، إلى أن يتصل ما قضت الطبيعة — وما أمر الله به — أن يوصل بين مصر والسودان ... وإلى أن يتم ذلك ينبغى أن نواجه الحقيقة المزدوجة ، والتى لا يمكن تجاهلها ، وهى أن مصر لن تجد أمنها كاملا ، إن هى اكتفت بتحقيق صلاتها المكينة مع الشرق العربى الأسيوى دون أن تستكمل وحدتها فى الجنوب ، وإن هذا الشرق العربى ذاته لن يجد قوته كاملة ما لم تكن مصر والسودان معا عضوا أساسياً عاملا فى جامعة أممه الجديدة .

والآن وقد فرغنا من استعراض الروابط الجغرافية والتاريخية بين مختلف أقطار الجامعة نستطيع أن نعرض فى إيجاز الحركة التى انتهت بتأليف الجامعة ، فقد ينير ذلك التاريخ سبيلنا فى تحقيق مغزى هذه الحركة وتحديد أهدافها ومراميها واستشفاف بعض ما قد ينتهى إليه أمرها فى المستقبل . وهذه الحركة كغيرها إنما جاءت وليدة تطور بطىء فى الفكر والتنظيم داخل نطاق العالم العربى فى الشرق القريب ، وتطور بطىء أيضاً (وإن لم يخل من مفاجآت وتحولات سريعة أحياناً) فى علاقة سكان ذلك الشرق والعالم الإسلامى عامة بالعالم

الخارجي . وقد نذكر أن انتشار الإسلام اقترن منذ البداءة بحركات سياسية كبرى صحبت إنشاء الإمبراطوريات والممالك العربية المتتابعة ، ورغم تقلب السيادة وانتقالها فى النهاية من أيدى العرب إلى أيدى الأتراك ، ودخول الشرق إثر ذلك فى عصر مظلم ، ساده الانحلال والركود ، فقد احتفظ العالم الإسلامى فى جملته باستقلاله السياسى خلال قرون ثلاثة أو تزيد ، حتى إذا ما انتهى القرن الثامن عشر وطلع القرن التاسع عشر وجاء نابليون بحملته المشهورة على مصر والشرق العربى ، كان ذلك فاتحة عهد جديد ، إذ كانت هذه أول ضربة موجهة إلى قلب العالم الإسلامى ، لفتت النظر إلى أهميته الكامنة ، وقيمته بالنسبة للتسابق الأوربى نحو السيطرة العالمية . ومع أن حملة نابليون هذه أخفقت فى غرضها المباشر من احتلال مصر ، وقطع الطريق على الإنجليز إلى إمبراطوريتهم فى الهند ، فإنها كانت نقطة تحول فى التاريخ عامة ، وفى تاريخ اتصال الشرق بالغرب ، والعالم الإسلامى بأوربا بصفة خاصة . وربما كانت الحملة الفرنسية من هذه الناحية من أبعد حروب نابليون أثراً وأبقاها ذكراً على الزمن .

وقد تتابع الضغط الأوربى والتوسع السياسى على حساب العالم الاسلامى خلال القرن التاسع عشر . ولم يكن غريبا أن يؤدى إطراد الضغط والتوغل فى بلاد المسلمين وممتلكاتهم إلى رد فعل سياسى ، فنشأت فى الربع الأخير من القرن الماضى حركة خطيرة كان على رأسها جمال الدين الأفغانى ، وهى حركة « الوحدة الإسلامية » التى رمت إلى تحرير البلاد الإسلامية وإعزاز جانبها دفعا للخطر الأجنبى . وقد فسرت هذه الحركة إذ ذاك تفسيرات مختلفة ، فقال بعضهم إنها إحياء لحركة التوسع الإسلامى القديمة ، وإنها تنطوى على خطر كبير وشر مستطير بالنسبة لأوربا والمسيحية عامة . وقال بعضهم إنها وإن لم تستطع أن تعيد عهد السيف وأن تعلن الجهاد المسلح فإنها ستبعث روح التعصب ، وتغذى عناصر الحقد والكراهية التى لابد أن تجر الشرق والغرب فى النهاية إلى التطاحن والخراب ، وقالت فئة قليلة إن هذه الحركة لا تعدو أن تكون نفخا فى الهواء يثير الزوابع المحلية ، ولكنه لن يستطيع أن يبعث فى الشرق روح الجهاد ، كما بعثها ظهور الإسلام لأول مرة . والحقيقة أنها كانت حركة طبيعية ، ونتيجة لازمة لما سبق به الغرب من توغل واستفزاز ، ولم يكن الشرق ولا الدين مسئولين عنها بأكثر من الغرب ومن السياسة . وليس أدل على أن الدافع السياسى الكامن فى هذه الحركة كان أقوى من الدافع الدينى الظاهر من أنها ما لبثت — رغم تسميتها « بالوحدة الإسلامية » — أن تحورت وانقلبت بالتدريج فى أوائل القرن الحالى إلى حركتين عنصريتين داخل العالم الإسلامى ، وهما : حركة الطورانية ، وحركة الوحدة العربية . وكانت

هذه الأخيرة موجهة ضد العثمانيين المسلمين بقدر ما هى موجهة ضد الغرب المسيحى .

والذى يعنينا فى شأن حركة الوحدة العربية أنها كانت تمثل المرحلة الثانيـة فى الوعى السياسى الحديث للشرق العربى . ولم يكن هذا الشرق فى أوائل القرن الحالى قد أصابه كثير من ضغط أوربا المسيحية ، فيما عدا مصر التى استولى عليها الإنجليز ، بل كان ذلك الشرق فى جملته لا يزال تحت حكم العثمانيين بالفعل أو بالاسم . لذلك لم يكن هناك سبيل إلى أن تتخذ الحركة العربية مظهراً دينياً ، وإنما هى قد ظهرت على حقيقتها منذ البداءة . ولـكنها كانت بذلك أدعى إلى القوة ، وأدنى إلى الحقائق العملية من الحركة الأساسية الأولى ، فضلا عن أن العالم العربى كان أصغر كثيراً من العالم الإسلامى ، وكانت أجزاؤه أكثر تقاربا وتماسكا ، وشؤونه الاقتصادية أكثر تداخلا وتشابكا ، وثقافته أكثر وحدة واتساقا من العالم الإسلامى الـكبير الذى يشمل الهندى والفارسى والتركى والعربى وغـيرهم من ذوى الأقطار المتباعدة والمصالح المتفرقة ، والثقافات المختلفة ، والاتجاهات المتباينة التى يصعب الجمع بينها فى كيان سياسى واحد .

لذلك كله نشأت حركة الوحدة العربية وهى أصلح للبقاء والنمو من الحركة الإسلامية ، وقد أفادت الحركة الجديدة من الحرب العالمية الأولى عنـد ما انحاز العرب إلى جانب الحلفاء ضد تركيا التى انضمت إلى المعسكر الألمانى النمسوى . ومع ذلك فإن آمال العرب الواسعة ، وما حصلوا عليه من وعود وعهود كثيرة لم يتحقق منها غير جانب ضئيل محدود . ذلك أن الحرب التى أبرزت قيمة الموقع الجغرافى والعسكرى للشرق الأسيوى القريب أطمعت فيـه الدول المستعمرة وذات المصالح فى الشرق عامة . وقد جاهد العرب وناضلوا فى إزاحة سلطان الأتراك . ولـكنهم لم يرقوا إلى مكان السيادة إلا رقياً جزئياً محدودا ، وفى المناطق الداخلية البعيدة من الجزيرة كنجد ، أو المنزوية وغير المعروفة كاليمن الأعلى . أما السواحل العربية والمناطق الهامة فى المرور والمواصلات ، أو الغنية بموارد الزيت وغيرها ، فقد امتدت إليها الأيدى عارية سافرة ، أو مقفزة مستورة ، فكان فتح واحتلال ، وكان نفوذ وانتداب ، وخرجت بريطانيا وفرنسا بنصيب الأسد ونصيب النمر ، بعد أن حاولت أمريكا أن يكون لها يد ، ثم كفت عن ذلك وتقاعدت بعيدة عن الشرق ومشكلات الشرق .

وفى هـذه الأثناء كان الوعى السياسى فى الشرق العربى قد دخل فى المرحلة الثالثة من مراحل تطوره الحـديث ، إذ أخذ الشعور القومى المحلى يتسرب إلى هـذا الشرق بمختلف أصقاعه وبيئاته خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين ، وأخذت فكرة « الأمة » تتبلور

فى أوطان صغيرة وأقاليم محدودة . ولم يعد أساس فكرة « القومية » و « الأمة » الاشتراك فى الدين ، كما كانت الحال فى المرحلة الأولى أيام حركة الوحدة الإسلامية ، ولا الاشتراك فى اللغة والثقافة ، كما كانت الحال فى المرحلة الثانية إبان الأيام الأولى لحركة الوحدة العربية ، وإنما أصبح ذلك الأساس هو « الوطن » و « القومية الوطنية » التى تتصل ببيئة معينة وإقليم معين ، تعيش داخل حدوده جماعة بشرية تتشابك بين أفرادها المصالح ومقومات الحياة مادية ومعنوية ، ويكون من الميسور توجيه جهودهم والإعراب عن آرائهم بتلك الوسائل التى اصطنعتها وأخذت بها الأمم والقوميات الحديثة فى أوربا خلال الجيلين السابقين . وكانت شعوب الشرق العربى قد أخذت تدرك أن الظروف والأوضاع السياسية قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه من قبل . فمشروع الوحدة العربية لا يسهل تنفيذه فى صورته النظرية ، كما أن الوحدة الثقافية العامة لا تكفى أساساً لقيام الوحدة السياسية والقومية ، خصوصا إذا تشعبت المصالح المادية والنزعات القومية ، وإذا اختلفت مراحل النضج السياسى وتباينت نظم الحكم فى مختلف الأقطار .

ولكن الحرب المنتهية ما لبثت أن جاءت بعنصر جديد ، أو هى بعبارة أدق قد عجلت ظهور هذا العنصر الجديد . فبعد أن كان الشرق الأدنى فى الحرب العالمية الأولى ميداناً ثانوياً إذ به يصبح فى الحرب الثانية ميداناً أساسياً من ميادين القتال ، تجمعت فيه القوات المحاربة بأعدادها الضخمة من أغلب أقطار العالم ، ودارت فيه ملاحم كبرى كان بعضها فاصلا وحاسماً فى تقرير مصير الحرب كلها . فبرزت قيمة هذا الإقليم الحيوية ، وزاد اهتمام الدول الكبرى بشؤونه العامة ، وبكثير جداً من شؤونه التفصيلية الخاصة ، ونبه ذلك أهل الإقليم إلى أن بلدانهم وأقطارهم تحتل موقعاً جغرافياً بالغ الخطورة من ناحية المواصلات العالمية ، وماتسابقت الأمم المتحاربة الكبرى فى زحفها نحو هذا الموقع إلا لقيمته الفاصلة فى كل ما يتصل بالسيطرة العالمية فى الحرب والسلم على السواء . ومادام الأمر كذلك فإن مصاير الشرق الأدنى وتاريخه القابل ستبقى مرتبطة أشد الارتباط وأوثقه بالشؤون العالمية والمصالح الدولية ، ولن يفيد فى مثل هذا الموقف الدولى أن يكون لكل وطن صغير فى الشرق العربى استقلاله القومى ، فقد لا يلبث مثل ذلك الاستقلال أن يذهب مع الريح ، التى قد تهب من الغرب أو من الشمال ، أو هى قد تعصف عاتية كالإعصار من جميع الجهات ، فتكون الطامة الكبرى ، وتأتى الريح الصرصر على كل شىء ، ويطوح بأهل المشرق إلى أسفل الدرج من جديد .

فى هذه الظروف بدأ القائمون على شئون أمم الشرق العربى يدركون ضرورة إيجاد نوع

من التعاون بينها جميعا لعل ذلك يشد من أزرها ، ويقطع الطريق على بعض ذلك التنافس والتسابق بين الدول الكبرى على استغلال تفرق الكلمة بين أمم الشرق . وقد ساعد على هذا الاتجاه الجديد نحو التعاون أن بريطانيا التى تجمع لها من الخبرة والتجربة فى شئون هذا الشرق ومن المصالح الحيوية فيه أكثر مما تجمع لغيرها من الأمم القوية ، قد أحست حاجتها إلى أن تعدل فى سياستها التقليدية وإلى أن تساير الاتجاهات الجديدة قبل أن يسبقها الزمن ، فلم تعارض فى ما بذله قادة الشرق العربى من مسعى فى سبيل التعاون المنشود . . . وهكذا تهيأت الظروف ، وتسابقت الحوادث . حتى تم تأليف جامعة الأمم العربية ، التى نحن بصددها الآن .

على أن من المهم أن نلحظ أن هذه « الجامعة » العربية بتشكيلها الحالى تختلف عن « الوحدة » العربية بالمعنى السياسى المعروف ، وقد تقدمت شعوب الشرق العربى حثيثاً نحو الاستقلال القومى ، ونظرت — أو نظر فريق منها على الأقل — إلى « الوحدة » السياسية على أنها رجوع إلى وراء ، وعلى أنها أمر لا سبيل إلى تحقيقه بالمعنى الضيق للوحدة ، بعد أن اتخذت هذه الدول الناشئة سبيلها إلى تحقيق الاستقلال القومى فى كثير من الأشياء ، بل بعد أن أخذ كل منها بنظامه الخاص فى الحكم والإدارة إلى حد لم يستطع قادة الشرق أن يفكروا حتى فى إقامة « اتحاد » بين الأمم أو القوميات العربية على نحو ما نجد فى الولايات المتحدة الأمريكية ، أو اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وعلى ذلك لم يكن بد من الاكتفاء « بجامعة » تحتفظ فيها كل دولة بكيانها المستقل ، ولا ترتبط ببقية الأعضاء إلا بالمشاورة الحرة ، وفى حدود ما اتفق عليه الأعضاء مختارين ، تحقيقاً للمصالح المشتركة ، وضماناً لما عسى أن يصيب الأعضاء منفردين أو مجتمعين من خير لابد أن يترتب على اجتماع كلمتهم فى عالم لا تكاد الصيحات الفردية الضعيفة تجد فيه صدى ولا ترديدا .

ومع ذلك فقد لا نبعد كثيراً عن الحق إذا نحن قررنا أن مشروع الجامعة ، كما أخذ به ، كان خير ما يمكن التوفيق به بين فكرة الوحدة من جهة ، وبين ما استجد على الشرق العربى وأقاليمه من وعى سياسى قوى وما اقتضته الظروف الدولية ونظام العالم الجديد من جهة أخرى وقد لا يبعد أن تثبت الأيام أن هذه الخطوة التى خطاها الشرق العربى كانت خطوة سديدة خطتها شعوبه فى الاتجاه الصحيح ، وأن السياسة التى أملتها لم تكن سياسة عاطفية متطرفة بقدر ما كانت سياسة عملية تقوم على الاعتدال وإدراك الحقائق . بل قد لا يبعد أن تكون الجامعة فى قابل الأيام ، ورغم بعض الأغراض السياسية الطارئة ، أداة صالحة لتحقيق

التعاون الدولى فى هذا الإقليم الذى يعتبر محكا خطرا للعلاقات الدولية والعالمية ، وأن تكون فوق ذلك وسيلة صالحة لتوحيدا لجهود واستكمال ما نقص من استقلال أكثر أعضائها الحاليين وتمهيد السبيل لاستقلال بقية الشعوب العربية التى لا تزال خارج الجامعة ، ولكنها تتوق إلى الانضمام إليها فى يوم من الأيام .

***

وبعد فإن الشرق العربى كان منذ أقدم العصور مدرسة للانسانية فى كثير من الأشياء . ففيه نشأت غير واحدة من المدنيات القديمة ، وفيه نشأت الأديان السماوية ، ومنه انتشرت ذات اليمين وذات الشمال ، وفيه احتك الشرق بالغرب ، فتعارف الإثنان وتعلم كل منهما من الآخر بعض ما لم يكن يعلم . وقد مر الشرق العربى فى تاريخه الطويل بكثير من التجاريب والأحداث ، ولاشك أن تاريخه الطويل القابل سيحفل بمثل ما حفل به ماضيه ، وربما كان مرجع الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار فى هـذا الإقليم إلى أن بلدانه ذات تقاليد قديمة راسخة فى الحياة والحكم والثقافة ، وكل جديد فيها لابد أن يتسق مع القديم الذى لم يستطع الزمن أن ينسخه . ولذلك كان طبيعياً ألاّ تستقر النظم الجديدة فى سهولة ويسر . ومع ذلك فإن الشرق العربى يمر الآن بتجربة يكاد يسبق بهـا الزمن ، فهو يحاول أن يوفق فى نظامه السياسى بين القومية الضيقة التى ترتبط بوطن معين وأمانى قومية من الطبيعى ألاّ تخلو من بعض أنانية ، وبين التعاون الدولى فى جماعة من الأمم المتقاربة وذات المصالح المشتركة . ولابد أن يؤدى هذا التوفيق إن نجح إلى تهذيب الشعور القومى ، وتلطيف روح العصبية الإقليمية ، على نحو يعلم الأمم الصغيرة كيف تعمل وتضحى من أجل جاراتها وزميلاتها ، فيما تنتسب إليه من جامعة أو جامعات ، هى مثال مصغر لما تسعى إليه الإنسانية من هيئات عالمية شاملة . بل لعل تجربة الجامعة العربيـة إن هى نجحت وتوطدت أركانها على مر الأيام — ونجاحها متوقف على معاونة العالم الخارجى بقـدر ما هو متوقف على إخلاص أعضاء الجامعة وقبولهم التضحية — لعلها أن تكون مثالا يحتـذى فى مناطق مشابهة من العالم ، كأمريكا اللاتينية التى تشترك أممها ، أو تكاد تشترك ، فى اللغة والثقافة والمصالح العسكرية ، أو كأمم جنوب شرق أوربا ، التى تشترك فى الموقع الجغرافى والمصالح الاقتصادية ، وإن تباينت فى الجنس والثقافة . . . ومن يدرى لعل نجاح الجامعة العربية يكون درساً جديداً فى التنظيم والعلاقات الدولية يضيفه الشرق إلى ما قدم للانسانية فى تاريخه الطويل من دروس .

سليمان حزين

أستاذ الجغرافيا بجامعة فاروق الأول

حياة المهاجرين العرب فى أميركا

ماذا استفادت وماذا تستفيد منهم البلاد العربية ؟

للأستاذ حبيب ابراهيم كاتبه

فى عقود معدودة من السنين سيستقل الشرق العربى — سيستقل استقلالا حقيقياً ، استقلالا أدبياً روحياً تكون فيه علاقاته مع الغرب فى الأدب والفن والعلوم الاجتماعية والفلسفة — حتى والعلوم الطبيعية — علاقات الند بالند والسوي بالسوي . وفى هذه العقود المقبلة من السنين قد يختصر هذا الشرق العربى طريقه إلى محجته القومية إذا هو أحسن استخدام كنوز ثمينة من الاختبارات الشخصية والمعرفة المكتسبة والحكمة العملية المقتبسة التى أصبحت ملكة فى ألوف من المهاجرين العرب فى الديار الأميركية — من كندا شمالا إلى الأرجنتين جنوبا . فحياة المهاجرين العرب فى أميركا هى سجل غريب لتجربة عجيبة مدهشة فى تطور مئات الألوف من الناطقين بالضاد فى محيط يختلف اختلافاً بائناً عن المحيط الذى نشأوا وترعرعوا فيه . ولم يكن هذا التطور وما نجم عنه من الاختبارات دائماً فالحاً مفيداً . ولكن قسما كبيراً منه — إن لم يكن الأكبر — كان كذلك . حتى ليجوز لنا أن نقول إن العرب فى المهاجر الأميركية كانوا ، بوجه الإجمال ، ماهدين ما ينشده العرب من الحياة الجديدة فى عهد استقلالهم . ونعنى بها الحياة التى تحرص على عزة النفس وتتعشق الحرية وتسعى وراء الاستقلال الاقتصادى وتجدّ وراء رفع مستوى المعيشة بين عامة الشعب وتتقيد بالنظام وتطلب البرهان بالعمل وتنبذ وطنية الكلام والتبجح وتتمسك بالوطنية المثمرة البانية . ففى جميع هذه الأمور كان المهاجرون ولا يزالون على ما نعتقد مجلّين فى ميدان الحياة إذا قيسوا بإخوانهم فى الوطن القديم .

لذلك نحسب أن أول فائدة تجمع بين ما استفاده العرب وما أفادوا أو يرجى منهم أن يفيدوا به البلاد العربية هى مجرد نجاح العدد الكبير منهم فى مرافق الحياة المختلفة ، فقد جاء هذا النجاح دليلا واضحاً وحجة ناصعة على القوى الكامنة فى صدر العربى والإمكانيات الواسعة التى تبرز من عالم الغيب إلى عالم الحضور عندما تتوفر له الفرص والظروف المؤاتية . فالمهاجرون

العرب ، إلى أجل غير بعيد ، كانوا مقياساً للحد الأقصى الذى يستطيع العربى أن يصل إليه فى جو من الحرية يطلق فيه النبوغ من قيوده ويفسح للعبقرية مجال المباراة . ولا يخامرنا أقل شك فى أن الأقطار العربية — وبالأخص لبنان وسوريا — مدينة حتى الآن فى بعض نجاحها وتقدمها لجهود العرب المهاجرين فى أميركا وللاهتمام الشديد الذى أبدوه بأوطانهم القديمة . ففى لبنان خصوصا أصبح البيت المسقوف بالآجر الأحمر رمزاً ملموساً لهذا الدين ولهذا النجاح الذى أحرزه المهاجرون فى ديار غربتهم . وقد ساهم المهاجرون فعلا بمشاريع عديدة فى الوطن القديم — منها اقتصادية تجارية بحتة ومنها خيرية — حتى نكاد لا تخلو قرية فى لبنان وسوريا من أثر لهذه المساهمة مهما كان وضيعاً . وتكفى الإشارة إلى مشروع الغزل والنسج لعريضة إخوان فى طرابلس — لبنان — ومشروع الكهرباء لشمالى لبنان الذى اشترك المهاجرون اللبنانيون الشماليون فى ايستن — بنسلفانيا — وغيرها بقسط وافر من أسهمه وشركة عمرى ورومية للجلود فى دمشق التى قضت عليها تضييقات الاستعمار الفرنساوى حين أخذت تزاحم صناعة الجلود الفرنساوية .

لقد استفاد المهاجرون العرب فى حياتهم المهجرية فى أميركا — وأفادوا . ولست لأنوه هنا باستفاداتهم وإفاداتهم المادية — وهى كثيرة . بل أود أن أوجه إلى استفاداتهم وإفاداتهم المعنوية وهى أكثر أهمية وأبعد مدى . ففى الشؤون المادية أخذ المتخلفون يزاحمون إخوانهم المهاجرين وكثيراً ما يبزونهم فيها . وإذا ذكرنا الاستفادات والإفادات المعنوية فلا نعنى بذلك تفوق المهاجرين تفوقا خلقياً على المتخلفين أو أن ما يتحلى به المهاجرون من الصفات هو أفضل وأرفع شأناً مما توارثه المتخلفون من الأخلاق الطيبة السمحة جيلا بعد جيل ، بل نعنى أن هناك صفات خلقية تعد صالحة ومؤهلة للنجاح المادى والاجتماعى هى أوفر فى المهاجرين منها فى المتخلفين ، ونخص من هذه ثلاث صفات — (١) الحرية الشخصية (٢) الاجتهاد (٣) التعاون والتنظيم . هذه يصح أن ندعوها عوامل نفسية لا يستغنى عنها فى طلب النجاح . ولا أرانى بحاجة إلى التطويل فى الكلام على كل منها وقد نُشرت فصول بل كتب عديدة فى اللغة العربية عنها وعن غيرها فى سبيل الكلام عن مستقبل البلاد العربية ومتطلبات التقدم لها .

(١) لقد كان التوق إلى الحرية الشخصية والهرب من « الظلم التركى » والانتقاض على شرائع جائرة كان يفرضها السلطان على رعاياه فرضاً ، من أهم الأسباب التى حملت كثيرين فى سوريا ولبنان — ولا سيا من المسيحيين — على هجر ذينك البلدين الطيبين وركوبهم متن

البحار إلى « أمريكا » . وكان ما وجده المهاجرون العرب من معانى هذه الحرية ومداها ما أدهشهم ، فقد كان كثيرون ولا يزال بعض منهم أحياء يدعون رئيس الجمهورية الأميركية — أكان ذلك فى الولايات المتحدة أم المكسيك أم البرازيل أم الأرجنتين — « ملكا » . وكانت دهشة هؤلاء عظيمة عند ما يختبرون بنفوسهم أن « ملك » بلاد عظيمة كالولايات المتحدة مثلا ينزل إلى ميدان الانتخاب ويجاهد ويكافح ويسعى لاكتساب الأصوات بالوعود والتملق والاستعطاف ، وأن الذى ينصب هذا « الملك » أو ذاك فى البيت الأبيض هو هذا المصوت أو الناخب البسيط الذى يتسابق المرشحون إلى اكتساب صوته . وإذا وجد تلاعب فى الانتخاب أو وجد من الشعب من « يبيع » صوته ويمشى وراء زعيم فرض نفسه على أبناء جنسه لنفوذ اكتسبه فى الوطن القديم فاللوم يقع على الفرد المسىء لحريته الممتهن لكرامة نفسه لا على أميركا . ومن ظواهر هذه الحرية التى تدل على سلامة عنصر العربى وقبول نفسه لطابع الحرية التى كانت قديماً من شيمه وتقاليده التليدة أن العربى فى المهجر استساغ هذه الحرية الشخصية التى وجدها فى أميركا واستفاد منها أكثر مما استفاد غيره من المهاجرين . فبالرغم من بعض المظاهر التى قد تحملنا على عكس هذا الاستنتاج — من عصبية مذهبية أو إقليمية أو انقياد أعمى لصحفيين وزعماء أنانيين أو تمسك بجزئيات جذورها متأصلة فى الأوطان القديمة — نجزم بالقول أن العربى المهاجر كان أكثر تنعما بالحرية الشخصية فى أميركا من غيره من الشعوب السلافية مثلا أو الإيطاليين واليونانيين أو الألمان القريبى العهد من هجرتهم . وفوق ذلك لم يكن العربى المهاجر مقلداً فى استعماله الحرية الشخصية . فقد عدّل هذه الحرية بما رسخ فى قرارة قلبه من الاحترام للشرع الأدبى والتعاليم الدينية القويمة والمبادىء الإنسانية الشاملة التى توارثها عن آبائه وجدوده عوداً إلى فجر التاريخ . فقلّ بين المهاجرين العرب الجامحون والإباحيون والمجرمون الذين يدوسون حريات غيرهم غير عابئين فى تسارعهم إلى النجاح الذى يتهافتون عليه تهافت الجياع على القصاع . وهذه حقيقة اعترف بها الأميركيون نفوسهم ونوهوا بقلة المجرمين بين « السوريين » — وهو الاسم الذى كان يطلقه الأميركيون الشماليون على السوريين واللبنانيين معا إلى عهد قريب . أما فى أميركا اللاتينية فقد شاع استعمال النسبة القديمة المغلوطة « توركو » أى أتراك .

(٢) كان الاجتهاد الظاهرة البارزة التى بدت لعيان المتخلفين متجسمة . وفيها تغنى شاعر النيل حافظ إبراهيم فى قصيدته المشهورة عن المهاجرين التى يقول فيها — :

أسطولهم أمل فى البحر مرتحل وجيشهم عمل فى البر مغترب
رادوا المناهل فى الدنيا فلو وجدوا إلى المجرة ركبا صاعدا ، ركبوا

ويقول كثيرون إن هذا الاجتهاد الذى أظهره المهاجرون من سوريا ولبنان لو أظهروا جزءاً منه فى الوطن القديم لكان ذلك الوطن قد عمر وتقدم منذ عقود من السنين . فهؤلاء ينسون أو يتناسون أن الوازع أو الدافع لذلك الاجتهاد كان مفقوداً فى الوطن القديم — إلا فى مدة السنين الأخيرة . فليس الذى « يشتغل لنفسه » ويتمتع بثمر اجتهاده كالذى يشتغل لحاكم مستبد يستولى على جنى يديه وعرق جبينه . وقد كان زمن يذكره أبناء هذا الجيل عن آبائهم أو جدودهم فى سوريا وغيرها من بلاد المملكة العثمانية يتهرب فيه الفلاح من « تطويب » الأراضى الصالحة للزراعة باسمه خوفاً من عواقب « العشر » . فالمهاجر العربى عندما أمّ هذه الديار الأميركية فى أواخر القرن التاسع عشر وجد أن كل ما جنت يداه من مال ورزق — عدا ضريبة كانت آنئذ خفيفة لا تذكر — هو له « حلال زلال » فجد واجتهد واستغنى ، وفاض عنه ما أرسله إلى أهله فى الوطن القديم . ووجد أيضاً مجال الفرصة متسعا وميدان العمل الحر مفتوحا أمامه وتسهيلات النجاح متوفرة لديه فربيت فيه ملكة الاعتماد على النفس وشق طريق الفلاح بعزمه ودهائه فى بلاد كانت ولا تزال « فردوس الماهدين » .
وكان هذا الاجتهاد نفسه — أو بالأحرى نتيجة هذا الاجتهاد وحلاوة مذاقه وحرية التمتع بثماره — وازعا لمعنى آخر من الاجتهاد : نعنى به الاستنباط وانصراف قوى الإنسان إلى أمور أخرى غير التى اعتادها . فالسورى أو اللبنانى المهاجر الذى لم يتعود فى قريته الصغيرة أكثر الأحيان — إلا الفلاحة والزراعة ومشق ورق التوت لتربية دود القز أصبح بين ليلة وضحاها « بائع كشة » يحمل فى صندوقه عشرات أنواع البضائع التى لم يكن يعرف أسماءها قبلا . ثم بعد أن يجمع قليلا من رأس المال يفتح دكانة صغيرة لبيع « الخردة » ثم مخزنا كبيرا للأقمشة أو حانوتا للبدالة والمأكولات . وإذا تأمل القارئ أنواع التجارات والصناعات والمهن التى يضطلع بها المهاجرون العرب اليوم فى الولايات المتحدة فإنه ليدهش من تنوعها . نذكر بعضا منها هنا على سبيل المثال — تجارة المطرزات والخروجة Cases وصنعها فى معامل خاصة فى فرنسا وإيطاليا وبلجيكا وأخيراً فى الصين حيث يشتغل مئات الألوف من الرجال والنساء لحساب التجار السوريين واللبنانيين — حياكة الأقمشة الحريرية — حياكة الجاكيتات والكرافاتات — صنع الغلائل والمباذل النسائية — صنع الثياب النسائية المنزلية والسبورتية — تجارة البدالة على أنواعها — تجارة شحن الفواكه والخضر بالجملة — المقاولات لتعبيد الطرقات وبناء المنازل — التنقيب على البترول والغازات الطبيعية — الطب — الهندسة — الكيمياء — المحاماة — التاريخ — العلوم الاجتماعية — الفلسفة — اللغات — العلوم

الإلهية — الصحافة — التأليف — الموسيق — الرسم — النحت — الرقص .

وقد برز كثيرون من مهاجرينا فى كل من مرافق الحياة والمهن الحرة هذه وفى كثير مما لم نذكره . وقد أتيت فى كتيبي « الناطقون بالضاد فى أميركا[١] » على عدد من هؤلاء البارزين والنابغين من المهاجرين العرب .

وإذا ضربنا صفحاً عن الذين ظفروا من النجاح المادى بسهم وافر نعد بين المهاجرين العرب كثيرين من الذين أفادوا وطنهم الجديد وأفادوا أوطانهم القديمة بنجاحهم الأدبى الروحى . فكان بين هؤلاء من قرب فهم الروح الشرقية العربية إلى أذهان الأميركيين كجبران خليل جبران صاحب كتاب « النبى » وكتاب « يسوع الناصرى » وغيرهما من التآليف الصوفية النزعة الشعرية النثرية — وأمين الريحانى المعروف فى جميع البلاد العربية بتآليفه العديدة عن البلاد العربية وملوكها — وإبراهيم مترى الرحبانى صاحب كتاب « المسيح السورى » وكتاب « حكماء من الشرق وحكماء من الغرب » — والأستاذ فيليب حتّى صاحب كتاب « تاريخ العرب » وغيره من التآليف التاريخية عن العرب . وأفاد بعض من هؤلاء المؤلفين وغيرهم بما كتبوه باللغة العربية « كالريحانيات » « وزنبقة الغور » « لأمين الريحانى » « والأجنحة المتكسرة » و « دمعة وابتسامة » لجبران « والآباء والبنون » لنعيمه الخ . وفيها كلها انتقاض على روح الرجعية والتعصب والاستبداد . وترانا بغير حاجة للتنويه بالشعراء العرب الذين نبغوا فى الديار الأميركية ورددت أندية الأدب والمدارس فى عواصم العالم العربى قصائدهم وسارت بها الركبان كإيليا أبى ماضى ونسيب عريضة ورشيد سليم الخورى المعروف بالشاعر القروى ورشيد أيوب والياس فرحات وندره حداد وفوزى وشفيق معلوف ونعمة قازان وشكر الله الجر وغيرهم . جميع هؤلاء نفخوا روح الحرية فى أشعارهم وعكسوا على صفحات دواوينهم فكرة أميركا التى لم تبق بعد الآن فكرة أقليمية جغرافية بل فكرة روحية قد تجدها فى أواسط أفريقيا ومجاهل آسيا وقد لا تعثر عليها فى مجاهل نيويورك ومغاور شيكاغو . ويشط بنا المزار لو جئنا نعدد جميع الناجحين البارزين من المهاجرين العرب فى المهاجر الأميركية بل يستحيل علينا إحصاؤهم الآن بالضبط ، ولكننا نستطيع أن نقول بلا وجل أو تردد إنه لا يكاد يخلو مرفق من مرافق الحياة أو ناحية من نواحى الاجتهاد فى أميركا لا يتمثل فيه عربى أو ابن عربى مهاجر . فمنذ أقل من سنة توفى فى

---

(١) نشر هذا الكتيب « معهد الشؤون العربية الأميركية » فى نيويورك ، وترجم إلى العربية بتوسع وشرح الأديب الفلسطينى « يعقوب عويدات » المعروف بالبدوى الملثم .

باريس رجل اسمه الدكتور جبرائيل طربه ابن مهاجر لبنانى كاد يصل إلى رئاسة جمهورية كولومبيا . وفى جامعة كورنيل عالم بالهندسة الكهربائية نشرت عنه جريدة التيمز النيويوركية مقالة اخبارية مطولة منذ بضع سنوات لما اكتشف حلا رياضيا لمعضلة هندسية كهربائية قيل إنها أعجزت الرياضيين مدة أكثر من مئتى سنة — وهو الأستاذ ميشال مالطى . وفى نيويورك مهاجر عربى آخر أخترع آلة لتدوين الصوت واسعة الانتشار . وفى هيوستن — تكساس — مهندس جيولوجى اكتشف طريقة لتسهيل استخراج البترول من الأراضى الرملية . وفى لك سيتى — أوكلاهوما — طبيب من بلدة جديدة مرجعيون اسمه الدكتور ميخائيل شديد صاحب فكرة أول مستشفى تعاونى فى أميركا وهو يدعى « أبا الطب التعاونى » فى هذه البلاد . ولو أردنا التحرى والتوسع فى هذا الموضوع لملأنا عشرات الصفحات بذكر هؤلاء المهاجرين وأولادهم الذين استفادوا من هجرتهم وأفادوا أوطانهم الجديدة وأوطانهم القديمة — إن لم يكن بشىء سوى ما أكسبوا هذه الأوطان من السمعة الحسنة ، لكفى .

(٣) التعاون والتنظيم : بالرغم من أن الفردية تملكت شواعر العربى — المقيم والمهاجر على السواء — فقد علمت مصائب الدهر العرب أهمية التعاون والتنظيم . وكان للمهاجرين منهم نصيب من ذلك . لم يتوصل المهاجرون العرب إلى تأليف شركات مساهمة كبرى وأكثر ما نجد من شركات هؤلاء المهاجرين هو من نوع الشركات العائلية تنحصر أسهمها بأخوة وأنسباء . وهذا لا يعنى أن عدداً من المهاجرين العرب لم يساهموا فى تأليف شركات أميركية . على أن التعاون الذى نحن فى صدده ظهر بين المهاجرين العرب فى مشاريعهم الخيرية وجمعياتهم الكبرى ؛ ففى البرازيل حيث يتجلى هذا التعاون فى أبهى مظاهره نجد « كليتين » عربيتين ومستشفى وداراً للعجز وأندية مختلفة منها النادى الرياضى فى سان باولو الذى يعد من تحف تلك المدينة العظمى . ولا غرو فى ذلك فإن جالية سان باولو العربية هى كبرى الجاليات العربية — خارج العالم العربى — يبلغ عددها فوق الأربعين ألف نفس وتجارة تلك المدينة بالأقمشة يكاد يسيطر عليها المهاجرون من أصل عربى . بل أن شركة يافث إخوان تعد من أكبر الشركات التجارية الصناعية فى البرازيل . ولأسباب لا نريد أن نبحث فيها فى هذا المقام لم يتوفق المهاجرون العرب فى الولايات المتحدة فى مظهر التعاون بمثل ما توفق إخوانهم فى أميركا اللاتينية . فإذا استثنينا بعض الجمعيات الخيرية و « أحلاف » لجمعيات سورية لبنانية تشمل الولايات المتحدة كلها ويصح فيها المثل العربى « تسمع بجيجا ولا ترى

طحينا » لا يستطيع المهاجرون العرب في الولايات المتحدة أن يتباهوا بما يحق لإخوانهم جنوبي نهر الغراندي أن يتباهوا به في مضمار التعاون والاتحاد . على أن مهاجري الولايات المتحدة لم تفتهم الاستفادة من التنظيم والكفاءة الأميركيتين . فقد تطبع بها السوريون واللبنانيون تطبعا غريبا حتى فاق فيهما بعضهم الأميركيين من الأصل السكسوني . ويصح هذا بالأخص في أبناء الجيل الثاني . فمصنع « مود أوداي Mode OF Day » (أي موضة اليوم) لأنيس معلوف وإخوته في لوس انجيليس ، له - أو كان له منذ بضع سنوات — ٣٥٠ محلا تبيع بضائعه من جميع أنواع الألبسة النسائية المنزلية المعتدلة الثمن . وقد فتق لهؤلاء الأخوة أثناء الأزمة الاقتصادية الكبرى في هذه البلاد أن لا يبيعوا بضائعهم بل يضعونها بالأمانة في مخازن يتعهد أصحابها بأن لا يبيعوا من الثياب النسائية إلا ما يصنع في معملهم . وبعملهم هذا وفروا على أصحاب المخازن كثيراً من رأس المال وكفلوا بضاعتهم من الخسارة إذا ما أفلس المخزن أو حاول الإفلاس ولهذه الشركة بناية كبرى بأربعة عشر طابقا ومكتب شرعي لعقد الاتفاقات التجارية بين أصحابه وأصحاب المخازن التي تتعامل معهم . وفي دالاس (تكساس) أعظم شركة لصنع البنطلونات الرجالية في العالم وهي ملك مهاجر لبناني ولها ثلاث معامل أحدها في دالاس نفسها يعد من أتقن وأنظم وأنظف المعامل من نوعه في جميع البلاد ، الهواء في داخله معدّل Air — Conditioned ، وغرفه منارة بالنيون Neon الأزرق الذي لا يؤذي العيون وفيه مطعم ومستوصف . وفي جاكسونفيل (فلوريدا) أجمل معمل لتنظيف الثياب وصاحبه أيضاً لبناني .

يتساءل القارئ ولا ريب قائلا : « لقد سمعنا كثيراً عن تقدم المهاجرين العرب ولكن بماذا يفيد هؤلاء المهاجرون أوطانهم أو بماذا تستفيد منهم هذه الأوطان» ؟ والجواب على ذلك في رأينا يتوقف بالأكثر على الدول والشعوب العربية لا على المهاجرين نفوسهم . فالمهاجرون في أميركا قد ولوا أوكادوا ، وأولادهم قلما سمعوا عن العالم العربي ما يشحذ مخيلاتهم بالشوق إلى « الوطن القديم » . فقد أصبح هذا الوطن عندهم أرض خيال كما لو أنك أبرزته من صفحات « ألف ليلة وليلة » . فإذا شئنا أن نستفيد مما اكتسبه المهاجرون وأولادهم وأن نستغل اختباراتهم فعلينا أن نخرج مساقا واسعا لتحقيق هذه الأمنية — مساقا تهذيبيا يقرب بين المهاجرين والمتخلفين — مساقا مرتكزاً إلى المنفعة المتبادلة والربح المغرى . واختصارا من وقت القارئ أثبت فيما بقي لي من هذه الفسحة بعض الاقتراحات التي تكشف للقارئ ما أعني من هذا المساق .

فى الأدب والفنون

من المشاريع التى يجب أن تتحقق بوقت قصير لتوطيد أواصر الصداقة بين المهاجرين وإخوانهم فى العالم العربى وضع كتاب فى « أدب المهجر » يقسم إلى جزئين : الجزء الأول منـه يحتوى على منتخبات نثرية لأفضل ما كتبه أدباء المهاجر الأميركية بالعربية والانكليزية والأسبانية والبرتغالية بعد ترجمتها إلى العربية . والجزء الثانى يحتوى على أفضل ما نظمه شعراء المهجر من القصائد الخالدة . فمجرد نشر كتاب كهذا يفيد الأقطار العربية ببث روح جديدة فى الأدب العربى أو بتعزيز تلك الروح . هـذا عدا ما ينطوى عليه نشر الـكتاب من تشجيع لأدباء المهجر واعتراف بعبقريتهم والتعارف بينهم وبين الأدباء فى العالم العربى .

ومما نقترحه فى هذا الباب أيضاً وضع كتاب فى تاريخ الهجرة العربية إلى العالم الجديد واستراليا وأفريقيا الجنوبية والغربية . وهذا الـكتاب علاوة على أنه تحفة بحد ذاتها — إذا تحقق نشره — سيكون من أهم عوامل التعريف بين المهاجرين العرب والعالم العربى . وقد يرفق هـذا الـكتاب أو يتبعه كتاب آخر بسيط سلس العبارة عن حاضر العالم العربى بالانكليزية والاسبانية والبرتغالية .

ويضيق بنا المقام عن عرض اقتراحات أخرى فى هذا الباب كإنشاء معرض للمهاجرين فى بيروت مثلا بإشراف الجامعة العربية يضم أفضل ما أنتجه المهاجرون من أدب وفن وصناعة . ثم هناك اقتراح آخر يجدر بالجامعة العربية الاهتمام به وهو تبادل رجال الأدب والصحافة والتفـكير بين العالم العربى والديار الأميركية وتنظيم سياحات خطبية لأجل هـذا الغرض ودعوة الجمعيات الـكبرى لعقد اجتماعاتها السنوية فى حاضرة من حواضر العالم العربى كل سنة . ومما يستدعى استعداداً كبيراً ويتطلب مالاً وفيراً ويجدر التفـكير به منذ الآن تأليف شركة للترجمة والنشر تنشر أفضل ما يصدر فى العالم العربى من كتب الأدب والتفـكير الاجتماعى والفلسفة والسياسة وغير ذلك فى دور النشر الأميركية بالاتفاق مع أصحابها .

فى العلوم الصرفة والعلوم التطبيقية

لقد أصبح بين المهاجرين العرب عدد كبير من الاختصاصيين فى العلوم المختلفة يستفيد منهم العالم العربى استفادة محسوسة . فيجدر بالجامعات والـكليات العربية الاهتمام بدعوتهم

لإلقاء محاضرات أو أن تطلب الحكومات العربية خدماتهم فى دوائرها المختلفة . على أن هناك فئة من الخبراء الذين اكتسبوا خبرة واسعة بالممارسة المستندة فى أحيان كثيرة إلى علم صحيح وإن لم يكن مما يجعل أصحابها من العلماء . خذ لك مثلا واحداً يكفيك مؤونة التطويل . أعرف فى وتشيتا فولز Witchita fulls وتيلر Tyler (تكساس) عدداً من الاختصاصيين — من أبناء المهاجرين العرب — فى التنقيب على البترول وحفر آباره . فاستخدام هؤلاء الفنيين فى استثمار البترول لحساب الحكومات العربية وبمقتضى اتفاقات معقولة تعود على الخبراء بالربح وتبقى ملكية البترول بأيدى أصحاب البلاد ، أمر على أقصى ما يكون من الأهمية — لا سيما فى هذه الأيام الحرجة التى تهدد العالم العربى باستعمار اقتصادى جارف . ومثل ذلك يقال فى استخدام كثيرين من المهندسين والكيمائيين والميكانيكيين من أبناء الجيل الثانى من المهاجرين . أعرف أحدهم خبيراً بصنع السلاح — من نوع البرنيز — انتدبته حكومة الولايات المتحدة أثناء الحرب الأخيرة لترويج إنتاج مصنع سلاح عظيم فى كندا .

تأسيس معامل مشتركة

وهنا نتقدم إلى اقتراح فيه فائدة قصوى قريبة المنال وهو تأسيس معامل صناعية كبرى يشترك فيها المهاجرون بأموالهم واختباراتهم وعلمهم . ولا يخامرنا شك بأنه متى تأكد المهاجرون العرب وأولادهم من استتباب الأمن والسلام والحرية الشخصية فى البلاد العربية فإنهم سيقبلون إقبالا عظيما على الاشتراك فى هذه الشركات اشتراكا يدر عليهم ، وعلى الأقطار العربية كافة ، الربح الوفير . فالجامعة العربية تستطيع أن تسعى مع كبار رجال الأموال والمصارف والحكومات العربية لكى يؤلفوا شركات صناعية وعمرانية كبرى تشجع المهاجرين بالإعلانات فى الصحف المهجرية على شراء أسهمها واستخدام الفنيين منهم فيها . ومتى بدأت الأرباح تتسرب إلى جيوب المهاجرين يتدفق سيل من رؤوس الأموال الأميركية — العربية غير منقطع للاستثمار فى هذه الشركات ويعود إلى الأوطان العربية مئات بل ألوف من المهاجرين ذوى الاختبار الواسع والمعرفة التكنيكية والثقافة العالية الذين إن لم تكن الأوطان العربية بحاجة ماسة إليهم فهى على الأقل تزداد غنى وربحا بوجودهم .

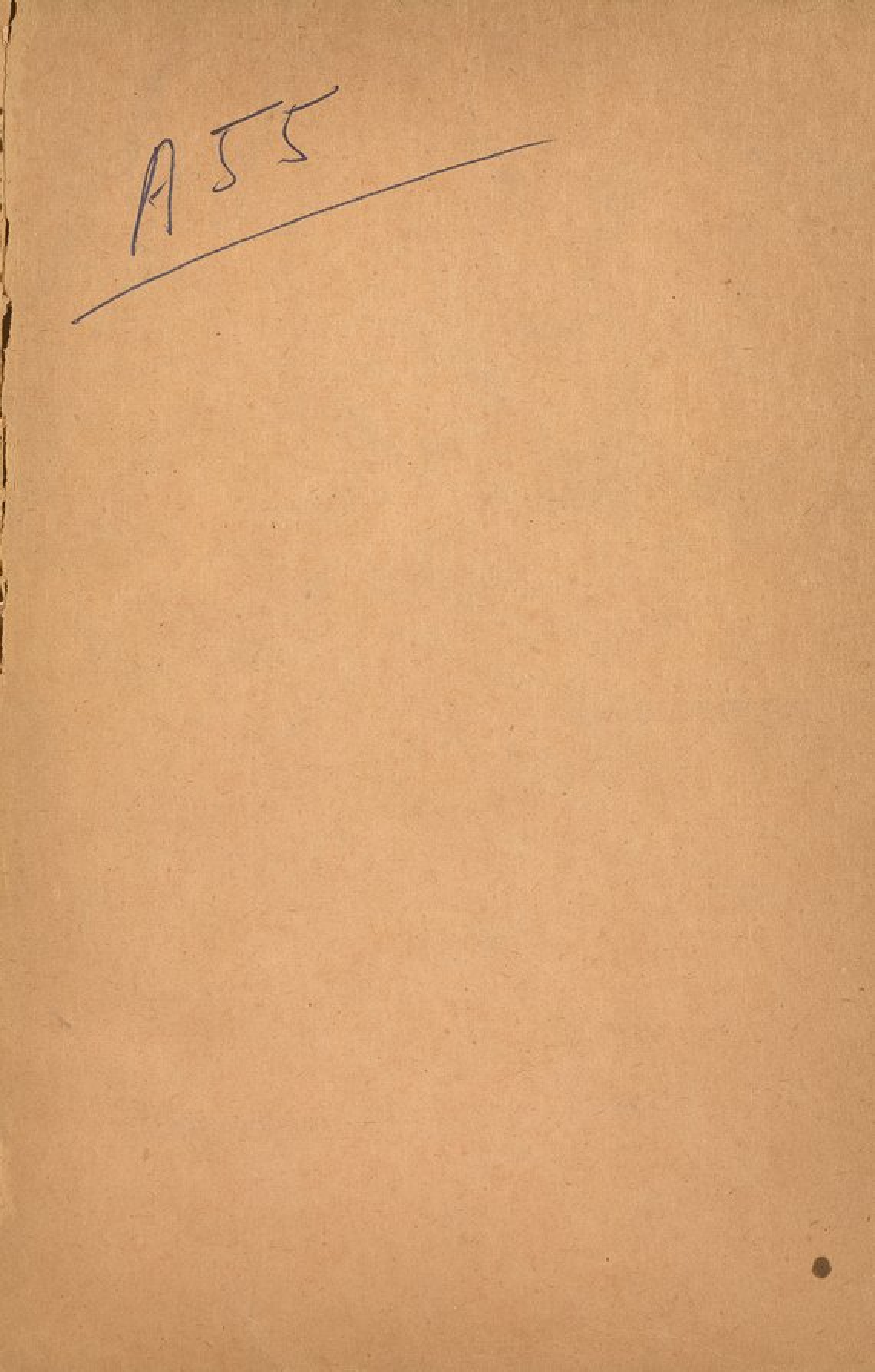
ولأجل تحقيق هذه الاقتراحات وغيرها مما يماثلها لا بد للجامعة العربية من إنشاء مركز رئيسى فى نيويورك ومثله أو فروع له فى عاصمة المكسيك وسان باولو وبونس ايرس . فيكون هذا المركز الرئيسى أو المكتب العام الحلقة الملموسة لربط هذه العوامل الاتصالية

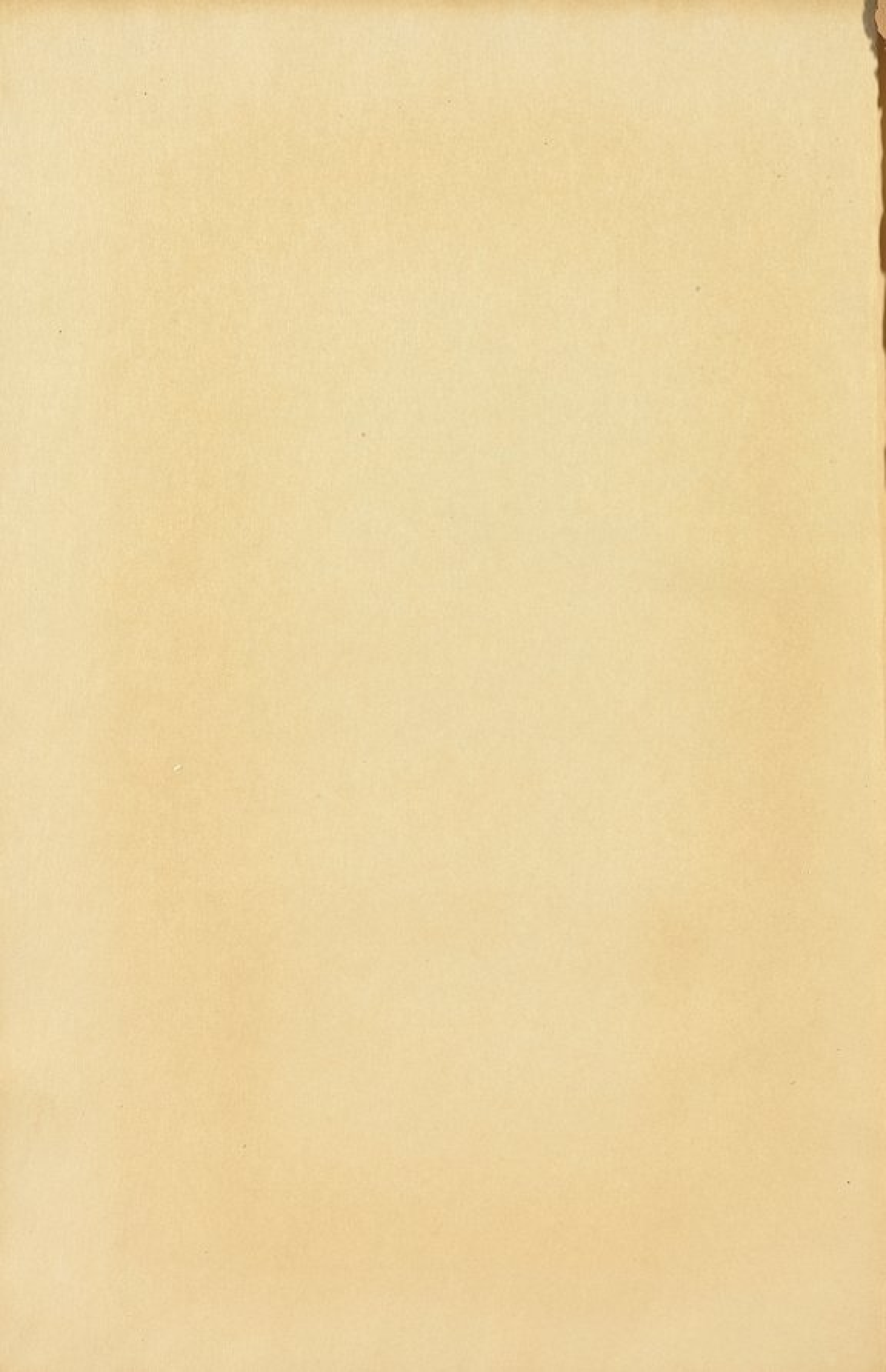
معا وتنسيقها وتنظيمها . وقد يدخل فى هـذا المـكتب أو يوازيه مكتب آخر للدعاية العربية بين الشعب الأميركى . وفى هذا الاتجاه أيضاً نجد عدداً من الصحفيين والأدباء الأميركيين العرب الذين تستفيد منهم الدول العربية .

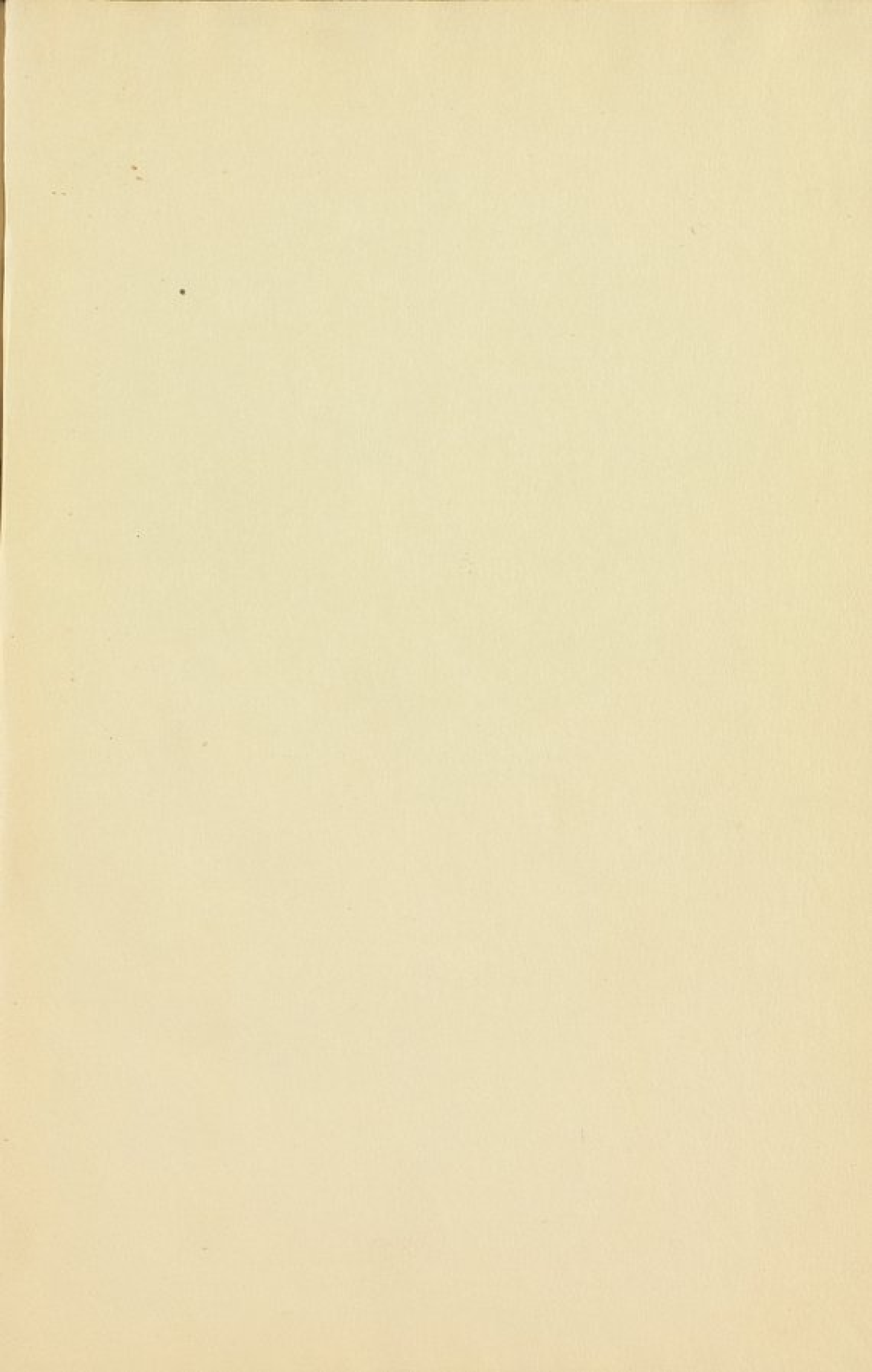
هـذا ملخص وجيز لموضوع واسع لم نلم إلا بأطرافه ولم نتوخ فيه إلا تنبيه الجامعة العربية ولفت نظر ذوى الشأن من زعماء العرب إلى وجوه أهميته المتعددة .

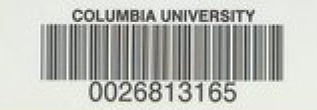
حبيب ابراهيم كاتبه




A55







956
L4745
1

BOUND

APR 30 1956

